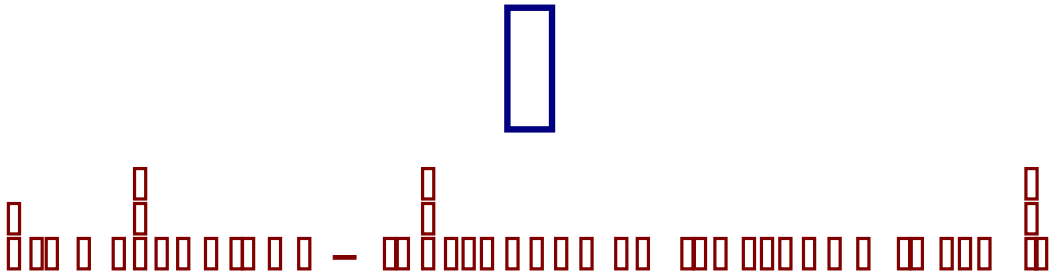

التَّعازي والمَراثِي

أبو العبَّاس المبرِّد

محمَّد بن يزيد الأزدي النحوي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

الحمد لله الذي يرث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، الذي كتب على عباده الفناء، واستأثر بالبقاء، وصلى الله على محمد عبده ورسوله، وعلى آله الطيبين الأخيار وسلم كثيراً.

قال أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي النحوي، المعروف بالمبرد رحمه الله تعالى: دعانا إلى تأليف هذا الكتاب واجتلاب محاسن من تكلم في أسباب الموت من المواعظ والتعازي والمراثي على قدر ما يحضر فإنا ابتدأناه عن غير خلوةٍ بفكرٍ ولا تمييز لكتب، وإنما اقتضبناه اقتضاباً ثقةً بالله وتوكلاً عليه مصابنا برجل استخفنا لذلك وبعثنا عليه، وهو أبو إسحاق القاضي إسماعيل بن إسحاق

ابن إسماعيل بن حماد بن زيد بن درهم. وإنما نسبناه التماساً للتنويه باسم سلفه الصالحين.

ولقد كان رحمه الله عليه في أكثر الأمور أنجع وأنفع. ولو عد كاملٌ لا سقطة فيه لكان إياه، لكن الله جل ثناؤه جعل في المخلوقين النقص، وجعلهم ضعفاء، وحكم بأنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً. ولقد كانت أنصباؤه في ذلك القليل كالمحتوية على أكثره رحمة الله عليه مع ما جمع الله جل وعز فيه من حكم عادل، ورأي فاصل، وأدب بارع، ولبٍ ناصع، وتصرفٍ في العلوم، وحلم يربي على الحلوم، وفي الله تعالى ذكره خلفٌ من كل هالك، وعزاء من كل مصيبة. وبرسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة والقدوة، وكل خطب، إذا ذكرت وفاته، صغير، وكل رزء حقير؛ عليه رحمة الله وبركاته.

ويروى عن علي بن أبي طالب رحمة الله عليه من وجوهٍ، سمعنا ذلك وبعضها يزيد على بعض، أنه قال: لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم تولى غسله العباس، وعلي، والفضل، فقال علي: لم أره يعتاد فاه في الموت ما كنت أراه في أفواه الموتى. ثم لما فرغ علي من غسله وأدرجه في أكفانه، كشف الإزار عن وجهه، ثم قال: بأبي أنت وأمي، طبت حياً، وطبت ميتاً، انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت أحد ممن سواك من النبوة والإنباء، خصصت حتى صرت مسلياً عمن سواك، وعممت حتى صارت المصيبة فيك سواء. ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك الشؤون، ولكن ما لا يدفع كمدٌ وإدبارٌ محالفان وهما داء الأجل، وقلا لك. بأبي أنت وأمي. أذكرنا عند ربك، واجعلنا من همك. قال: ثم نظر إلى قذاةٍ في عينه فلقطها بلسانه ثم رد الإزار على وجهه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعزوا عن موتاكم بي.

وهذا كلام تلقاه عنه المؤمنون ثم أدوه إلى من بعدهم من إخوانهم المؤمنين، فاحتذى هذا المثال يقيناً وإيماناً جماعة كلهم سلكه فاهتدى، ووصفه فأحسن، فمنهم عبد الله بن أراكة الثقفي، فإنه أصيب بابن له فأسرف أخوه عبد الله ابن عبد الله في البكاء فوعظه وعزاه فقال: الطويل

وقلت لعبد الله إذ جدّ باكياً * تعزّ وماء العين منهملٌ يجري

لعمري لئن أتبعت عينيك ما مضى * به الدّهر أو ساق الحمام إلى القبر

لتستنفدن ماء الشؤون بأسره * ولو كنت تمريهنّ من ثبج البحر

تأمّل! فإن كان البكا ردّ هالكاً * على أحدٍ، فاجهد بكاك على عمرو

ولا تبك ميتاً بعد ميتٍ أجنّه * عليٌّ وعبّاسٌ وآل أبي بكر

باب من التعازي

وهو أكثر ما تكلم فيه الناس، لأنه لم يعر أحد من مصيبة بحميم، ذلك قضاء الله على خلقه. فكل تكلم إما متعزياً وإما معزياً، وإما متصبراً محتسباً.

قال أبو الحسن المدائني: كانت العرب في الجاهلية وهم لا يرجون ثواباً ولا يخشون عقاباً يتحاضون على الصبر، ويعرفون فضله، ويعيرون بالجزع أهله، إيثاراً للحزم وتزيناً بالحلم، وطلباً للمروءة، وفراراً من الاستكانة إلى حسن العزاء، حتى إن كان الرجل منهم ليفقد حميمه فلا يعرف ذلك فيه. يصدق ذلك ما جاء في أشعارهم، ونثي من أخبارهم. قال دريد بن الصمة في مرثيته أخاه عبد الله:

الطويل قليل التّشكّي للمصيبات حافظٌ * مع اليوم أدبار الأحاديث في غد

صبا ما صبا حتّى إذا شاب رأسه * وأحدث حلماً قال للباطل ابعد

قال أبو عبيدة: كان يونس بن حبيب يقول: هـذا أشـعر مـا قيل في هذا الباب.

وقال أبو خراش الهذلي: الطويل

تقول أراه بعد عروة لاهياً * وذلك رزءٌ لو علمت جليل

فلا تحسبي أنّي تناسيت عهده * ولكنّ صبري يا أميم جميل

وقال أبو ذؤيب:

الطويل وإنّي صبرت النّفس بعد ابن عنبسٍ * وقد لجّ من ماء الشّؤون لجوج

لأحسب جلداً أو لينبأ شامتٌ * وللشّرّ بعد القارعات فروج

وقال أوس بن حجر:

المنسرح أيّتها النّفس أجملي جزعا * إنّ الّذي تحذرين قد وقعا

وقال أبو ذؤيب:

الكامل وتجلّدي للشّامتين أريهم * أنّي لريب الدّهر لا أتضعضع

والشيء يذكر بالشيء: يروى أن الحسين بن علي بن أبـي طالب رحمهما الله دخـل علـى معاويـة وهـو فـي علـة لـه غليظة، فقال معاوية: ساندوني ثم تمثل بهذا البيت:

وتجلّدي للشامتين أريهم * أني لريب الدهر لا أتضعضع

فسلم الحسين رحمه الله ثم تمثل:

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها * ألفيت كلّ تميمةٍ لا تنفع

فاستظرف الجواب كون البيتين من قصيدة واحدة.

وقال عمرو بن معدي كرب: مجزوء الكامل

كم من أخٍ لي صالحٍ * بوّأته بيديّ لحدا

ما إن هلكت لفقده * ليس البكاء يردّ زندا

ألبسته أثوابه * وخلقت يوم خلقت جلدا

وقال حارثة بن بدر الغداني:

البسيط الصّبر أجمل والدّنيا مفجّعةٌ * من ذا الّذي يجرّع مرةً حزنا?

وما جاء في هذا أكثر من أن يؤتى على غابره.

وتعزيك الرجل تسليتك إياه. والعزاء هو السلو وحسن الصبر على المصائب وخير من المصيبة العوض منها والرضى بقضاء الله والتسليم لأمره تنجزاً لما وعد من حسن الثواب، وجعل للصابرين من الصلاة عليهم والرحمة. فإنه يقول تبارك وتعالى: وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون. وقال وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم. وقال تبارك اسمه: ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه يقول الاسترجاع. خبرني بذلك غير واحد من الفقهاء.

وروى أبو الحسن عن الفضل بن تميم قال: قيل للضحاك بن قيس: من قال عند المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون، كان ممن أخذ بالتقوى وأدى الفرائض? فقال: نعم، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة.

قال الأصمعي عن بعض العلماء: لـو وكـل النـاس بـالجزع للجؤوا إلى الصبر.

وروي عن الحسن أنه كان يقـول: الحمـد للـه الـذي أجرنـا على ما لا بد لنا منه، وأثابنا على ما لـو كلفنـا غيـره لصـرنا فيه إلى معصيته.

قال الأصمعي وأبو الحسن: جزع سليمان بـن عبـد الملـك على ابنه أيوب فقال له رجل من القراء: يا أمير المـؤمنين إن امرأ حدث نفسه بالبقاء في الدنيا وظن أنـه يعـرى مـن المصائب فيها لغير جيد الرأي. فكـان ذلـك أول مـا تسـلى به.

وكان علي بن أبي طالب رضوان الله عليـه يقـول: عليكـم بالصبر، فإن به يأخذ الحازم وإليه يعود الجازع.

وروي عن أبي الحسن، عن أبي عمـرو بـن المبـارك قـال: دخل زياد بن عثمان بن زياد على سليمان بن عبـد الملـك، وقد توفي ابنـه أيـوب، فقـال: يـا أميـر المـؤمنين، إن عبـد الرحمن بن أبي بكرة كان يقول: من أحب البقاء فليـوطن نفسه على المصائب.

قال أبو الحسن عن علي بن سليمان عـن الحسـن: الخيـر الذي لا شر فيه الشكر مع العافية، والصـبر عنـد المصـيبة. فكم من منعم عليه غير شاكر، ومن مبتلى غير صابر.

قال: ومن أحسن التعزية إبلاغ في إيجاز. قال أبو الحسن: ومن أحسن ما سمعنا في ذلك عن أبي الحكم الليـثي عـن شيبة بن نصاح قال: لما قبض النبي صلى الله عليه وسـلم صرخت أسماء بنت عميس، فنادى مناد من ناحيـة الـبيت، يسـمعون حسـه ولا يـرون شخصـه: السـلام عليكـم أهـل البيت ورحمة الله وبركاته، أعلـى رسـول اللـه تبكـون، أم

على رسول الله تصرخون؟ فقالت أسماء: ما على رسول الله صلى الله عليه وسلم نبكي ولا على رسول الله نصرخ، ولكن على انقطاع الوحي عنا. قال: ثم نادى الثانية: كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. إن في الله عزاءً من كل مصيبة، وعوضاً من كل مرزئة، ودركاً من كل فائت، وخلفاً من كل هالك. فبالله فثقوا، وإياه فارجوا. المحبور من حبره الثواب، والخائب من أمن العقاب.

قال أبو الحسن عن الحسن بن دينار عن علي بن زيد عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع إبراهيم في حجره وهو يجود بنفسه فقال: لو لا أن الماضي فرط الباقي وأن الآخر لاحق بالأول لحزنا عليك يا إبراهيم. ثم دمعت عينه فقال: تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب. وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون.

قال أبو الحسن: أخبرنا عن مسلمة عن أبان عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لأن أقدم فرطاً أحب إلي من أن أدع مئة مستلئم. وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: من عزى مصاباً فله مثل أجره قال أبو الحسن عن بعض أصحابه قال: عزى أبو بكر عمر على طفلٍ له، فقال: عوضك الله منه ما عوضه منك.

تفسير هذا أنه يقال: إن الطفل يعوض من أبويه الجنة.

قال أبو الحسن عن أبي بكر عن أبي المليح قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله جل ذكره: إذا أخذت صفي عبدي فصبر لم أرض له ثواباً دون الجنة.

باب من الشعر

مراثي الجاهلية المشهورة المستحسنة المستجادة

المقدمة معلومة موسومة منها قصيدة متمم بن نويرة في أخيه مالك، على أن سائر أشعاره غير مذموم، وان تقدمتهن العينية التي أولها. الطويل لعمري وما دهري بتأبين هالكٍ * ولا جزعٍ ممّا أصاب فأوجعا

ومنها قصيدة دريد في أخيه عبد الله التي أولها الطويل أرثّ جديد الحبل من أمّ معبد * بعاقبةٍ وأخلفت كلّ موعد

ومنها قصيدة كعب بن سعد الغنوي يرثي فيها أخـاه، وهـي التي أولها:

الطويل تقول سليمى ما لجسمك شاحباً * كأنّك يحميك الشّراب طبيب?

ومنها قصيدة أعشى باهلة، أبي قحافة وهي التي أولها:

البسيط إنّي أتتني لسانٌ لا أسرّ بها * من علو لا عجبٌ منها ولا سخر

ومراثي الخنساء ومراثي ليلى الأخيلية، وسنذكر مـن ذلـك طرفاً، ومن مراثـي أوس بـن حجـر فـي فضـالة بـن كلـدة الأسدي، ومراثي لبيد في أخيه أربد، وعدي المهلهل فيمـن بكاه من قومه اختيارات بارعة وننبـه علـى مـا فيهـا ولمـن اختيرت ثم ننحط إلى شعر الإسلام من قديم ومحدث ومـا بينهما إن شاء الله. ونفصل ذلك بـالمواعظ كلامـاً وشـعراً والتعازي على ما يحضر ونوفق له إن شاء الله.

فمما اخترنا من قصيدة متمم وكان الذي تـولى قتـل أخيـه بأمر خالد بن الوليد بن المغيـرة ضـرار بـن الأزور الأسـدي وحدثنا التوزي في إسناد أن ضراراً هـذا أتـى رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم ليسلم ففعل وقال:

المتقارب تركت الخمور وضرب القدا * ح واللّهو تصليةً وابتهالا

وكرّي المحبّر في غمرةٍ * وشدّي على المشركين القتالا
فيا ربّ لا أغبنن صفقتي * فقد بعت أهلي ومالي بدالا
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما غبنت صـفقتك يا ضرار.
ثم نرجع إلـى اختيارنـا مـن العينيـة، ففيهـا مـن حـر الكلام وصادق المدح قوله:
الطويل إذا ابتدر القوم القداح وأوقدت * لهم نار أيسارٍ كفى من تضجّعا
بمثنى الأيادي ثمّ لم تلف مالكاً * على الفرث يحمى اللّحم أن يتمزّعا
وقوله:
وكنّا كندماني جذيمة حقبةً * من الدّهر حتّى قيل لن نتصدّعا
وعشنا بخيرٍ في الحياة وقبلنا * أصاب المنايا رهط كرى وتبّعا

فلمّا تفرّقنا كأنّي ومالكاً * لطول أجتماعٍ لم نبت ليلةً معا
وفيها مما يختار:
أقول وقد طار السّنا في ربابه * وغيثٌ يسحّ الماء حتّى تريّعا
سقى الله أرضاً حلّها قبر مالكٍ * ذهاب الغوادي المدجنات فأمرعا
وآثر بطن الواديين بديمةٍ * ترشّح وسميّاً من النّبت خروعاً

تحيّته منّي وإن كان نائياً * وأضحى تراباً فوقه الأرض بلقعا

فما وجد أظار ثلاثٍ روائمٍ * رأين مجرّاً من فصيلٍ ومصرعا

يذكّرن ذا الوجد القديم بوجده * إذا حنّت الأولى سجعن لها معا

بأوجد منّي يوم فارقت مالكاً * ونادى به النّاعي السّميع فأسمعا

يريد بالسميع: المسمع.

ومما يستحسن من شعره فيه:

الطويل كهولٌ ومردٌ من بني عمّ مالكٍ * وأيفاع صدقٍ لو تملّيتهم رضى

سقوا بالعقار الصّرف حتّى تتابعوا * كدأب ثمودٍ إذ رغا سقبهم ضحى

إذا القوم قالوا:

من فتىً لعظيمةٍ? * فما كلّهم يعنى ولكنّه الفتى

وهذا يشبه قول طرفة: الطويل إذا القوم قالوا:

من فتىً? خلت أنّني * عنيت فلم أكسل ولم أتبلّد

ومن ذلك قوله في أخرى: الطويل وكلّ فتىً في النّاس بعد ابن أمّه * كساقطةٍ إحدى يديه من الخبل

وبعض الرّجال نخلةٌ لا جنى لها * ولا ظلّ إلاّ أن تعدّ من النّخل

وهذا من جيد الكلام لصحة معناه، ولأنه وافق حقاً. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الناس كإبل مئة، لا تكاد ترى فيها راحلة وقد قال الآخر لشجرات ضرب بهن مثلاً:

الطويل إذا لم يكن فيكنّ ظلٌّ ولا جنىً * فأبعدكنّ الله من شجرات

والرجل رحمه الله الذي أنشأنا هـذا الكتـاب بسـببه، ومـن أجل وفاته، نأمن أن يلحق وصفنا إياه تزيد أو تكلف لإجماع العامة فيه على قـول الخاصـة. فكـأنه شـيء وقـع إلهامـاً، وكأن مادحه يستملي مدحه من قول القائل:

الكامل جلّت مصيبته فعمّ مصابه * فالنّاس فيه كلّهم مأجور

والنّاس مأتمهم عليه واحدٌ * في كلّ دارٍ رنّةٌ وزفير

تجري عليك دموع من لم توله * خيراً لأنّك بالثّناء جدير

ويشاكل هذا المعنى قول عمارة بن عقيل لخالـد بـن يزيـد بن مزيد:

الطويل أرى النّاس طرّاً حامدين لخالدٍ * وما كلّهم أفضت إليه صنائعه

قال: النصب في كلهم أحب إلي، والرفع جيد ولن يترك الأقوام أن يحمدوا الفتى * إذا كرمت أعراقه وطبائعه

فتىً أمعنت ضرّاؤه في عدوّه * وخصّت وعمّت في الصّديق منافعه

وإن سلم أحد من أن يكون له عدو فإسماعيل بن إســحاق القاضي رحمة الله عليه، ذلك الرجل. ولكن من سلم مــن أن يعادى لجناية فغير سالم من حاسد باغ.

وحدثني الرياشي قال: حدثني محمد بن عبد الله الأنصاري في إسناد قال: صلى أبو بكر رحمة الله عليه صلاة الصــبح يوماً، فلما انفتل قام متمم بن نويرة في آخر الناس، وكان رجلاً أعور دميماً، فاتكأ على قوسه ثم قال:

الكامل نعم القتيل، إذا الرّياح تناوحت * خلف البيوت، قتلت يا بن الأزور

أدعوته بالله ثمّ غدرته * لو هو دعاك بذمّةٍ لم يغدر

وأومأ إلى أبي بكر، فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله ما دعوته ولا غدرت به، ثم اتكأ متمم على سية قوسه حتى دمعت عينه العوراء، ثم أتم شعره فقال:

لا يمسك العوراء تحت ثيابه * حلوٌ شمائله عفيف المئزر

ولنعم حشو الدّرع كنت وحاسراً * ولنعم مأوى الطّارق المتنوّر

فقام إليه عمر فقال: لوددت أنك رثيت أخي بما رثيت به أخاك. فقال له: يا أبا حفص، لو أعلم أن أخي صار حيث صار أخوك ما رثيته يقول: إن أخاك قتل شهيداً. فقال عمر: ما عزاني أحد بمثل تعزيتك

وفي حديث آخر أنه رثى زيد بن الخطاب فلم يجد، فقال له عمر: لم أرك رثيت زيداً كما رثيت أخاك مالكاً، فقال: إنه والله يحركني لمالك ما لا يحركني لزيد. وقال له عمر يوماً: إنك لجزل فأين كان أخوك منك؟ فقال: كان، والله، أخي في الليلة ذات الأزيز والأصوات والصراد، يركب الجمل الثفال بين المزادتين المتلونتين، ويجنب الفرس الجرور، وعليه الثملة الفلوت، وفي يده الرمح الثقيل حتى يصبح متهللاً، ولقد أسرت مرة في بعض أحياء العرب فمكثت فيهم سنة أحدثهم وأغنيهم، فما أطلقوني. فلما كان بعد، وقف عليهم مالك في شهر من الأشهر الحرم، فحادثهم ساعة ثم استوهبني منهم وهم لا يعرفونه فوهبوني له، فعلمت أن ساعة من مالك أكثر من حول مني.

قال: وأما مرثية دريد بن الصمة فكان الأصمعي يقدمها جداً، وهي أهل ذاك. وكان سبب هذه المرثية أن أخاه عبد الله بن الصمة أحد بني جشم بن بكر بن هوازن، غزا قبائل غطفان بن سعد بن قيس بن مرة، وفزازة وأشجع بن بغيض. فاكتسح أموالهم وانصرف، فلم يجاوز بعيداً حتى أناخ وأمر بالإبل تنحر، فقال له أخوه دريد: يا أبا فرعان، إن غطفان غير نائمة عن أموالها فتقدم شيئاً ثم أنخ. فقال: لا والله لا أريم حتى آخذ مرباعي وأنتقع نقيعتي، فأمر الإبل فنحرت، وأجلسوا ربيئتهم فلما سطعت الدواخن قال له الربيئة: إني أرى غبرة قد ارتفعت أكثر من هذه الدواخن. قالوا: فتأمل ماذا ترى. قال: أرى قوماً على خيلهم كأنهم الصبيان. قالوا: هذه فزازة، لا بأس، فتأمل. قال: أرى قوماً كأنهم غمسوا في الجأب فقالوا: تلك أشجع ولا بأس، تأمل. قال: أرى قوماً كأنما يتقلعون من صخر، يقلعون دوابهم ببوادهم. قالوا: تلك عبس والموت. فلم ينشبوا أن التقى القوم فاقتتلوا شيئاً، ثم نادوا: أردي، والله، فارس هو أبو فرعان، فأقبل دريد فإذا به صريعاً، وأصاب دريداً جراحات. وله خبر في ذلك اليوم ليس من هذا. ففي ذلك يقول في كلمته هذه:

الطويل وقلت لعارضٍ وأصحاب عارضٍ * ورهط أبي السّوداء والقوم شهّدي

أمرتهم أمري بمنعرج اللّوى * فلم يستبينوا النّصح إلاّ ضحى الغد

فلمّا عصوني كنت منهم وقد أرى * غوايتهم وأنّني غير مهتد

فما أنا إلاّ من غزيّة إن غوت * غويت وإن ترشد غزيّة أرشد

فقلت لهم:

ظنّوا بألفي مقاتلٍ * سراتهم في الفارسي المسرد

فنادوا وقالوا:

أردت الخيل فارساً * فقلت: أعبد الله ذلكم الردي?

فجئت كأمّ الوّ ريعت فأقبلت * إلى جذمٍ من جلد سقبٍ مقدّد

فما راعني إلاّ الرّماح تنوشه * كوقع الصّياصي في النّسيج الممدّد

فإن يك عبد الله خلّى مكانه * فما كان وقّافاً ولا طائش اليد

كميش الإزار خارجٌ نصف ساقه * بعيدٌ من السّوءات طلاّع أنجد

قليل التّشكّي للمصيبات حافظٌ * مع اليوم أدبار الأحاديث في غد

وهوّن وجدي أنّني لم أقل له: كذبت، ولم أبخل بما ملكــت يدي

وأشـعار الجاهليـة مشـهورة معروفـة، وإنمـا نملـي منهـا العيون. ألا ترى إلـى قـوله قليـل التشـكي للمصـيبات ثـم وصله بقوله حافظ مع اليوم أدبار الأحـاديث فـي غـد كيـف قرن فيه معنى ظريفاً بآخر مثله في الظرافة التي لا يمتنع اللبيب من قبولها واستحسانها والمعرفة بحقيقـة مـا فيهـا كما قلنا في الذي قبله.

وكذلك قول كعب بن سعد الغنوي: الطويل وداعٍ دعا:

يا من يجيب إلى النّدى? * فلم يستجبه عند ذاك مجيبٌ

فقلت:

أدع أخرى وأرفع الصّوت رفعةً * لعلّ أبا المغوار منك قريب

ألا ترى ما وصفه به من الجود الذي هو عادة يجتمع عليها ثم لم يعدل به أحداً?.

وكذلك قول أعشى باهلة في مرثيته المنتشر بن وهب حيث يقول في جلده، إذ كان جل ما فيه مما يمدح به فيما كان به موصوفاً:

البسيط ما يغمز السّاق من اينٍ ومن وصبٍ * ولا يعضّ على شر سوفه الصّفر

ماضي العزيم على العزّاء منصلتٌ * بالقوم ليلة لا ماءٌ ولا شجر

كأنّه عند صدق القوم أنفسهم * باليأس تلمع من قدّامه البشر

ولا نعلم بيتاً في هذا المعنى من يمن النقيبة وبركة الطلعة أبرع من هذا، فإنما نملي هذا الضرب من العيون. ومثل ذلك قوله:

لا يتأرّى لما في القدر يرقبه * ولا تراه أمام القوم يقتفر

قال أبو العباس: وحدثنا الرياشي في إسناد ذكره قال: أنشد منشد أبا بكر الصديق رضي الله عنه قول زهير في هرم بن سنان:

الكامل أن نعم معترك الجياع إذا * خبّ السّفير وسابيء الخمر

ولنعم حشو الدرع أنت إذا * دعيت: نزال ولجّ في الذّعر

وترّهق النّيران يحمد في ال * لأواء غير ملعّن القدر

فجعل أبو بكر يقول عند كل بيت: هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنشده:

والسّتر دون الفاحشات وما * يلقاك دون الخير من ستر

فقال: هكذا، والله، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قال: أشعر شعرائكم زهير.

ويروى من غير وجه حدثناه مسعود بن بشر وغيره أنه لمـا مات مخلد بن يزيد بن المهلب، حضره عمر بن عبد العزيز وصلى عليه ثم قال:

الكامل بكّوا حذيفة لا تبكّوا مثله * حتّى تبيد قبائلٌ لم تخلق

ثم قال: لو أراد الله بيزيد خيراً لأبقى له هذا الفـتى. فهـذا من الأبيات الجامعة كنحو ما ذكرنا.

ولقد أحسنت الكندية في قولها في إخوتها:

الطويل أبوا أن يفرّوا والقنا في نحورهم * فماتوا وأطراف القنا تقطر الدّما

ولو أنّهم فرّوا لكانوا أعزّة * ولكن رأوا صبراً على الموت أكرما

هوت أمّهم ماذا بهم يوم صرّعوا * بجيشان من أسباب مجدٍ تصرّما

والقائل:

الوافر ألا لهف الأرامل واليتامى * ولهف الباكيات على قصيّ

لعمرك ما خشيت على قصيّ * منيّة بين سلعٍ والسّليّ

ولكنّي خشيت على قصيّ * جريرة رمحه في كلّ حيّ

فأحسن الشعر ما خلـط مـدحاً بتفجـع، واشـتكاءً بفضـيلة، لأنه يجمع التوجع الموجع تفرجاً، والمدح البارع اعتذاراً من إفراط التفجع باستحقاق المرثي وإذا وقع نظم ذلـك بكلامٍ صحيح ولهجة معربة ونظـم غيـر متفـاوت فهـو الغايـة مـن كلام المخلوقين.

واعلم أن قول الخنساء من أجمل الكلام حيث تقول:

البسيط وإنّ صخراً لوالينا وسيّدنا * وإنّ صخراً إذا نشتو لنحّار

وإنّ صخراً لتأتمّ الهداة به * كأنّه علمٌ في رأسه نار

فجعلته موضعاً للسؤدد ومعنيّاً بأمر العشيرة لقولها: لوالينا وسيدنا، وجواداً مفضلاً نحاراً في وقت الأقتار والشتوة، ثم قالت: وإن صخراً لتأتم الهداة به فجعلته إمام الأئمة، ثم جعلته علماً والعلم: الجبل ، فلم تقتصر على ذلك حتى جعلت في رأسه ناراً، شهرةً في الكرم، وناراً على علم في الهداية.

وقول الله عز وجل: وله الجواري المنشآت في البحر كالأعلام إنما هي الجبال. وقال جرير: الرجز إذا قطعن علماً بدا علم

ومن عجيب ما قيل قول النابغة في حصن بن حذيفة إكباراً لشأنه، واستعظاما لموته، وتعجباً من ذهاب مثله:

الطويل يقولون حصنٌ ثمّ تأبى نفوسهم * وكيف بحصنٍ والجبال جنوح?

ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزل * نجوم السّماء والأديم صحيح

فعمّا قليلٍ ثمّ جاء نعيّه * فظلّ نديّ الحيّ وهو ينوح

وذكرنا أوساً ومراثيه في فضالة بن كلدة الأسدي. وكان من خبره معه أنه قصده من أرض بني تميم، فلما قارب منزله، جالت به ناقته فرمت به فكسرت فخذه. فأقام ليلته مكانه لا يريم حتى إذا أصبح نظر وهو في عام خصيب إلى جوار من صبيات بني أسد، قد خرجن يجتنين الكمأة، فجعل ينسبهن حتى وقف على ابنة فضالة، فقال لها: خذي هذا الحجر فأتي به أباك، فقولي له: قد زارك

ابن هذا، وخبريه بحالي، فلما أتته قال: أتانـا، واللـه، بمـدح كثير أو بذم كثير. فأتاه، فضرب قبةً، ولم يزل يعالجه حـتى برأ.

قـال الأصـمعي: وفـي بنـي أسـد حذاقـة بـالجبر. قـال: وسمعت أعرابياً من بني أسد يقول: أنا أجـبر النـاس لفـك أو ترقوة. قال الأصمعي: وهما أشد مـا يجـبر. ففـي ليلتـه تلك يقول: المتقارب

خذلت على ليلةٍ ساهره * بصحراء شرجٍ إلى ناظره

تزاد ليالي في طولها * فليست بطلقٍ ولا ساكره

كأنّ أطاول شوك السّيال * تشكّ به مضجعي شاجره

وفي حليمة بنت فضـالة بـن كلـدة الـتي ذهبـت إلـى أبيهـا برسالته يقول:

الطويل لعمرك ما ذمّت ثواء ثويّها * حليمة إذ ألقت مراسي مقعد

ولكن تلقّت باليدين ضمانتي * وحلّ بفلجٍ فالدّثينة عوّدي

ولم تلهها تلك التّكاليف إنّها * كما شئت من أكرومةٍ وتخرّد

سأجزيك أو يجزيك عنّي مثّوبٌ * وقصرك أن يثنى عليك وتحمدي

فأقام عند فضالة مدة يسيرة ثم مات فضـالة ففيـه يقـول قصائد نذكر بعضها والمختـار منهـا: قـال أبـو عبيـدة: كـان أوس بن حجر شاعر مضر فـي الجاهليـة حـتى نشـأ زهيـر والنابغة فوضعا منه، ولكنه شاعر تميم غيـر مـدافع. فممـا قال فيه:

المنسرح أيّتها النّفس أجملي جزعا * إنّ الّذي تحذرين قد وقعا

إنّ الذي جمّع السّماحة والنّ * جدة والبأس والقوى جمعا
الألمعيّ الّذي يظنّ لك * الظّنّ كأن قد رأى وقد سمعا
والمتلف المخلف المرزّأ لم * يمتع بضعفٍ ولم يمت طبعا
والحافظ النّاس في تحوط إذا * لم يرسلوا خلف عائذٍ ربعا
وعزّت الشّمأل الرّياح وقد * أمسى كميع الفتاة ملتفعا
وشبّه الهيدب العبام من ال * أقوام سقباً ملبّساً فرعا
وكانت الكاعب الممنّعة الح * سناء في زاد أهلها سبعا
ليبكك الشّرب والمدامة وال * فتيان طرّاً وطامعٌ طمعا
وذات هدمٍ عارٍ نواشرها * تصمت بالماء تولباً جدعا

تأويل ما في هذه القصيدة مما ليس بواضح إلا بعد نظر: قوله: أيتها النفس اجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا. تقول العرب: الحذر أشد من الوقيعة. وإنما حق الشيء المتخوف أن يكون صاحبه مرتاعاً حذر وقوعه، فإذا وقع البأس ارتفع ذلك الحذر.

ومن ذلك ما يتدارسه الصالحون: إذا استأثر الله عز وجل بشيء فاله عنه.

ويحكى عن بعض الأعاجم من ملوكهم أنه مات له ابن فلم يجزع عليه، وأقبل على شأنه، فسئل عن ذلك فقال: إنما الروعة قبل وقوع المخوف، فإذا وقع فعلى اللبيب ألا ينسب إلى الوقوف متفكراً في إثر ما لا يدرك، ولكن ليزجر النفس عن خطائها، ويعمل الشغل فيما يجدي عليه.

وقوله: الألمعي الذي يظن لك الظن كأنه قد رأى وقد سمعا الألمعي: الحديد القلب الذي يوقع الشيء موقعه. وهذا مثل لا نعلمه لأحد قبله. وكان مولانا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقوله بأوضح من هذا.

كان يقول: لا يعيش بعلم أحد حتى يعيش بظنه، وقال الزبير بن العوام: لا عاش بخير من لم يره ظنه ما لم تره عينه. وقال عمرو بن العاص: ظن الرجل قطعة من علمه، ولسانه قطعة من عقله.

وقوله: المخلف المتلف قد جمع فيه ما يغني عن التفسير والتزيد إذ يقول: يتلف جوداً وكرماً، ويخلف نجدةً واكتساباً.

وقوله: لم يمتع بضعف أي لم يقرن به. تقول: أمتع الله بفلان أي أبقاه الله حتى يتمتع به أحباؤه. وكما قال جرير لعبد العزيز بن الوليد:

الوافر إذا جدّ الرّحيل بنا فرحنا * فأحسن ذو الجلال بك المتاعا

وقوله ولم يمت طبعا يقال: طبع يطبع طبعاً إذا غلب عليه الحرص حتى يغطي على قلبه. ويقال: طبع السيف إذا ركبه الصدأ حتى يغطي على صميم الحديدة. وقوله: والحافظ الناس في تحوطٍ يقال للسنة الجدبة: تحوط وقحوط بالتاء والقاف جميعاً. وقوله: إذا لم يرسلوا خلف عائذ ربعا العائذ: التي معها ولدها، فإذا كانت السنة الجدبة نحروا الفصال لئلا تضر بالأمهات. وقوله: وعزت الشمأل الرياح يقول: غلبت الرياح وتلك علامة الجدب والقحط، لأن الجنوب هي التي تأتي بالندى والمطر. ويقال عز فلان فلاناً إذا قهره. وقول الله جل ثناؤه: وعزني في الخطاب أي كان أعز مني في المخاطبة. وقولهم في المثل. من عز بز أي من غلب استلب. والكميع: الضجيع. يقال: كامعها. يقال أضحى كميعها ملتفعاً. والملتفع: الملتحف. فهو منقبض عنها مشغول بما يلاقي من القر. وقوله: وكانت الكاعب الممنعة الحسناء الكاعب: التي كعب

ثـدياها. قـال اللـه جـل وعـز: وكـواعب أترابـا والممنعـة: المحفوظة المخبأة، كانت كالسبع في زاد أهلها، وإنما مــن شأنها أن تترف وتنعم إذا كانت في هذه الصفة.

وقــوله: وشــبه الهيــدب العبــام فالهيــدب: المســترخي، والعبام: الثقيل الذي لا يكـاد ينبعـث، فشـبه فـي انقباضـه بالسـقب، وهـو ولـد الناقـة إذا كـان ذكـراً، وإن كـان أنـثى فحائل. ملبساً فرعا أي قـد جعـل عليـه جلـد الفـرع، وهـو فصيل كانوا يتقربون بـه فـي الجاهليـة فقـال رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم: لا فرع فأبطله الإسلام.

وقوله: وذات هدمٍ فالأهدام خلقان الثياب، فيصف الفقيرة وأنه كان لها ملجأ. وقوله: عار نواشرها: من الضر والجوع والبؤس. والنواشر: عروق الذراع، كما قال زهير:

الطويل ودارٌ لها بالرّقمتين كأنّها * رواجع وشمٍ في نواشر معصم

وقوله تصمت بالماء أي تسكن طفلهـا بالمـاء، وتسـكنه إذ لم يكن له ثفل. والجدع: السـيء الغـذاء، وكـذلك الجحـن والقتين.

ومما قال فيه مما اخترناه: المتقارب ألم تكسف الشّمس والبدر وال * كواكب للجبل الواجب

لفقد فضالة لا تستوي ال * فقود ولا خلّة الذاهب

ألهفا على حسن أخلاقه * على الجابر العظم والحارب

على الأروع السقب لو أنّه * يقوم على ذروة الصّاقب

لأصبح رثماً دقاق الحصى * كمتن النّبيّ من الكاثب

ورقبته حتمات الملو * ك بين السّرادق والحاجب

ويكفي المقالة أهل الرّحا * ل غير معيبٍ ولا عائب

ويحبو الخليل بخير الحبا * ء غير مكبٍّ ولا قاطب

برأس النّجيبة والعبد وال * وليدة كالجؤذر الكاعب
وبالأدم تحدى عليها الرّجا * ل وبالشّول في الفلق العاشب
فمن يك ذا نائلٍ يسع من * فضالة في أثرٍ لا حب
هو الواهب العلق عين النّفي * س والمتعلّي على الواهب
نجيحٌ مليحٌ أخو مأقطٍ * نقابٌ يخبّر بالغائب
فأبرحت في كلّ خيرٍ فما * يعاشر سعيك من طالب

وهذه القصيدة أملیناها بأسرها لأنها جمعت تقدم كل بيت منها وكثرة المعاني والاختصار.

قوله: للجبل الواجب فالواجب: الساقط، يقال للبعير إذا برك فسمع صوت كركرته: وجب، وكذلك كل ساقط. قال أبو عبيدة: وأظن قولهم في الشيء: وجب أي وقع. وقوله: لفقد فضالة ثم قال: الأروع السقب، يعني فضالة. وهذا كقولك: إني لأثني على زيد، ثم تقول: على الشريف الكريم، وأنت تعنيه. والسقب: الطويل. وله مواضع هذا أحدها. والخلة: الخلل الذي قد تركه، وكان مسدوداً به. وأصل الخلة: الثلمة. يقال: فلان به خلة أي ليس أمره مستوياً، وفلان مختل الجسم كذلك.

وقوله لا تستوى الفقود، أي المصائب لاختلاف أوزان أهلها. فمن ذلك من يوجد منه العوض، ومنهم من يعسر وجود مثله. وأقول أنا: كمن أنشأنا هذا الكتاب من أجله، يبعد في الوهم إدراك نظيره ومدانيه، فضلاً عن مساويه.

والصاقب الذي ذكر: جبل معروف بعينه. يقول: فلو تحامل عليه. وليس يقوم من القيام على القدم، ولكن من قولك: فلان يقوم بأمر أهله، ويقوم بهذا الأمر أي يدافع عنه. فيقول: لو دافع الجبل العظيم متحاملاً عليه لأصبح

الجبل رثماً كظهر النبي وهو رمـل بعينـه مـن الكـاثب، أي كمكان هذا من هذا. ومثله أبو عبيدة فقال: كقولك كظهـر المربد من البصرة، والمرتوم المحطوم المـدقوق. يقـال: رتم أثفه أي دقه.

وقوله دقاق الحصى أي دقيـق، مثـل قولـك: رجـل طـوال وطويل، وجسام وجسيم، وخفاف وخفيف.

وقوله ورقبته حتمات الملوك يقول: إذا أحتم على الملـوك أمـراً أو فـي أمـر يخـافه، أطـاعه الملـك وأجـابه. ويقـول بعضهم: هي الحتمة، وينشده حتمات مثل ظلمة وظلمات. وذكـر قـرب مكـانه مـن الملـوك فقـال: بيـن السـرادق والحاجب. وقوله ويكفي المقالـة أهـل الرحـال يقـول: إذا حضر استغني به عن غيره لبيانه وصـوابه، فقـد كفـى مـن وراءه غير معيب عندهم ولا عائب لهم.

وهذه الأبيات إذا اعتبرت فأكثرها يشتمل الـبيت منـه علـى معان. وقوله:

ويحبو الخليل بخير الحبا * ء غير مكبٍّ ولا قاطب

أي يتبع ما يفعله بأجمل البشر ولا يكب مفكـراً ينـدم علـى ما فعل، ولا طالباً حيلة يدفع بها السائل، كما قال القائل:

الكامل لا ينكتون الأرض عند سؤالهم * لتطلّب العلاّت بالعيدان

وقوله وبالشول فـي الفلـق العاشـب يقـول: يعطيهـا فـي أحسن حالاتها. والفلق: المطمئن من الأرض، وهو موضـع الكلأ لاستقرار الماء بـه. وكـانت العـرب تقـول للرجـل إذا حسنت إبله وسـمنت: أخـذت إبلـه رماحهـا، وأخـذت إبلـه سلاحتها. واستنجدت عليه أي منعته أنفسها من أن تـوهب أو تنحر ضناً بها، كقول القائل:

الخفيف لا أخون الصّديق ما حفظ العه * د ولا تأخذ السّلاح لقاحي

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هلك الفـادون إلا من أعطاها في نجدتها ورسـلها، أي مـن أعطاهـا بسـهولة ومع امتناعها لحسنها. وهو وقت نجدتها عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم لقيس بن عاصـم: نعـم المـال الأربعون، والكثر السـتون، وهلـك أصـحاب المئيـن إلا مـن نحر سمينها وأفقر ظهرها، ومنح غزيرتها، وأطـرق فحلهـا، وأعطاها في نجدتها ورسلها.

وقالت ليلى الأخيلية:

الطويل ولا تأخذ الكوم الجلاد سلاحها * لتوبة في صرّ الشّتاء الصّنابر

الفدادون: أصحاب الإبـل الكـثيرة وقـوله نجيـح مليـح أخـو مأقط يقول: هو في السلم سهلٍ مبتـذل حلـو مقبـول، ولا يمنعـه ذلـك مـن أن يكـون جلـداً فـي الحـرب. والمـأقط: موضـع مجتلـد القـوم. وهـو مـع هـذا فطـن طبـن، منقـب طـواف ببـدنه وفكـره، يظـن فيصـيب. فـذلك قـوله يخـبر بالغائب.

وقوله نقاب أي منقب في الأمور، كما قال الله جـل وعـز: فنقبوا في البلاد، هل من محيص. وقال امرؤ القيس:

الوافر وقد نقّبت في الآفاق حتّى * رضيت من الغنيمة بالإياب

ومن هـذا قيـل للطرقـات فـي الجبـل: النقـوب والنقـاب، واحدها نقب.

وقال ابن الأيهم التغلبي يصف خيلا:

الخفيف وتراهنّ شزّباً كالسّعالي * يتطلّعن من ثغور النّقاب

وقال أيضاً يرثيه:

الكامل أأبا دليجة من لحيّ مفردٍ * صقعٍ من الأعداء في شوّال?

وإذا ذكرت أبا دليجة أسبلت * عيني فبلّ وكيفها سربالي

ومعصّبين على نواجٍ سدتهم * مثل القسيّ ضوامرٍ برحال

وقوارصٍ بين العشيرة تتّقى * داويتها وسملتها بسمال

لا زال ريحانٌ وفغوٌ ناضرٌ * يجري عليك بمسبلٍ هطّال

فلنعم وفد الحيّ ينتظرونه * ولنعم حشو الدّرع والسّربال

ولنعم مأوى المستضيف إذا دعا * والخيل خارجةٌ من القسطال

قوله معصبين يعني ملوكاً قد عصوا بالتيجان. والنواجي: الخيل السراع. وقوله صقع من الأعداء في شوال، الصقع: المتحير الذي لا يدري أين يتوجه. يقال: صقع وصعق، وبنو تميم تقول: صعق، هي لغتهم فكأنه الذي أصابته الصاعقة فتحير لتوقع الغارة كما يتحير المتوقع الصاعقة. وقال في شوال لأنه شهر حل، ففيه يغير الناس بعضهم على بعض. فإن قال قائل: أفليس شهور الحل ثمانية، فما باله خص هذا? فالجواب في ذلك أنه إذا ذكر الشيء غير المقصود دخل ما كان نظيره في حكمه. قال الله تبارك وتعالى: الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم. ولم يقل على ظهورهم ولم يذكر الارتفاق لأنه يعلم أن الأمر في ذلك واحد. وكذلك قوله جل وعز: سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ولم يذكر البرد. وقوله:

وقوارصٍ بين العشيرة تتّقى * داويتها وسملتها بسمال

يقال: سمل بين العشيرة إذا أصلح، فإنما أراد به السيد الذي يأتمرون بأمره. والفغو.: نور الحناء، يقال له الفغو والفاغية. وهو من أطيب الريحان رائحةً. قال أبو عبيدة: قوله يجري عليك بمسبل هطال قال: يعني: مع مسبل، أي مع غيث مسبل. قال: فالباء تقوم مقام مع يا فتى، قال أبو العباس: والذي قال صواب وتفسيره أقرب مما قال. وتأويل هذا عند النحويين أن الباء للإلصاق، ومع للمقاربة، فهما يلتقيان في هذا الموضع. تقول: مررت بزيد، فالباء ألصقت مروري به. وكذلك: كتبت بالقلم أو ضربت بالسيف. فهذا حقيقة معناه.

وقوله ولنعم حشو الدرع والسربال أي نعم الشيء في الأمن والفزع. والمستضيف: الملجأ، يا فتى. يقال أرهق فلان فدعا لمضوفة، كما قال الشاعر:

الطويل وكنت إذا جاري دعا لمضوفةٍ * أشمّر حتّى ينصف السّاق مئزري

ويقال قسطل وقسطال يما يثور من الغبار.

وقال أيضاً يرثي فضالة قصيدةً أولها: البسيط عينيّ لا بدّ من سكبٍ وتهمال

اخترنا منها أبياتاً نادرة كما شرطنا في أول الكتاب. من ذلك قوله:

جمّا عليه بماء الشّأن واحتفلا * ليس الفقود ولا الهلكى بأمثال

أمّا حصان فلم تحجب بكلّتها * قد طفت في كلّ هذا النّاس أحوالي

على أمريءٍ سوقةٍ ممّن سمعت به * أندى وأكمل منه أيّ إكمال

أوهب منه لذي أثرٍ وسابغةٍ * وقينةٍ عند شربٍ ذات أشكال

وخاريجٍّ يزمّ الألف معترضاً * وهونةٍ ذات شمراخٍ وأحجال
أبا دليجة من يوصى بأرملةٍ * أم من لأشعث ذي طمرين طملال
أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا * لدى ملوكٍ أولي كيدٍ وأقوال
أم من لقومٍ أضاعوا بعض أمرهم * بين القسوط وبين الدّين أزوال
خافوا الأصيلة واعتلّت ملوكهم * وحمّلوا من أذى غرمٍ بأثقال
أبا دليجة من يكفي العشيرة إذ * أمسوا من الأمر في لبسٍ وبلبال
أم من لأهل لويٍّ في مسكّعةٍ * في أمرهم خالطوا حقّاً بإبطال
أم من لعاديةٍ تردي ململمةٍ * كأنّها عارضٌ من هضب أوعال
وما خليجٌ من المرّوت ذو حدب * يرمي الضّرير بخشب الطّلح والضّال
يوماً بأجود منه حين تسأله * ولا مغب بترجٍ بين أشبال
ليثٌ عليه من البرديّ هبريةٌ * كالمرزبانيّ عيّالٌ بآصال
يوماً بأجرأ منه حدّ بادرةٍ * على كميٍّ بمهو الحدّ قصّال
لا زال مسكٌ وريحانٌ له أرجٌ * على صداك بصافي اللّون سلسال
يسقي صداك وممساه ومصبحة * رفهاً ورمسك محفوفٌ بأظلال
ورّثتني ودّ أقوامٍ وخلّتهم * وذكرةً منك تغشاني بإجلال

فلن يزال ثنائي غير ما كذبٍ * قول امريءٍ غير ناسيه ولا سال
لعمر ما قدرٍ أجدى بمصرعه * لقد أخلّ بعرشي أيّ إخلال

قد كانت النّفس لو ساموا الفداء بها * إليك مسمحةً بالأهل والمال

هذا آخر الشعر. قال أبو العباس: قوله لذي أثر يعني سيفاً له فرند وهو الرونق. وقوله: يـزم الألـف أي يتقـدمها كـأنه يقودهـا، يعنـي فرسـاً. والخـارجي: الـذي يخـرج بنفسـه. أنشـدني الرياشـي لأعرابـي يمـدح عبـد اللـه بـن جعفـر الهاشمي:

الوافر أبا العبّاس، لست بخارجيٍّ * وما إن بحر جودك بانتحال

وقــوله: ذات شــمراخ فإنمــا يعنــي فرســاً ذات غــرة. والشمراخ من الغرر: السائلة في الوجه إذا دقت وطالت.

وقـوله لأشـعث ذي طمريـن إنمـا يريـد أنـه يجـبر الفقيـر. والأطلس: الأغـبر، ومـن ثـم قيـل للـذئب: اطلـس. وإنمـا نسب الفقير إلى الطلسة لسوء حاله ودناءة لبسته.

والأقوال: الملوك، واحدهم قيل، وأصله قيل فخففوه كمـا قالوا في الميت: ميـت، وفـي الهيـن والليـن: هيـن وليـن. وقالوا في الجمع: أقوال كمـا قـالوا فـي الميـت: أمـوات، ويقولون: هو من مقاولة كندة.

والقسوط: العصيان. يقال: قسط يقسط إذا جار وخـالف. قال الله عز وجل: وأما القاسـطون فكـانوا لجهنـم حطبـا. ويقال: أقسط يقسط إذا عدل، والله يحب المقسطين.

وقوله بين القسوط وبين الدين. يقـول: هـم بيـن الطاعـة وبين المعصية. والأزوال هم المتصرفون. يقال: رجل زول وقوم أزوال. وأنشدني التوزي:

الرجز وقد أقود بالكرام الأزوال * معدّياً لذات لوثٍ شملال

وقوله واعتلت ملوكهم أي لم يعطوهم شـيئاً. فـذلك قـوله خافوا الأصـيلة واعتلـت ملـوكهم أي خـافوا أن يستأصـلوا. وقوله: وحملوا أي لزمتهم حمالات وغرم، فهو كـان يصـلح هذا كله بالنجدة والغرم.

وقوله: وذات أوغال هي هضبة معروفـة بعينهـا والمـروت: أرض بعينها فيها نبات ومسايل، وهي من أرض العالية.

وقـوله يرمـي الضـرير بخشـب الطلـح والضـال، الضـرير: ضـرير الـوادي، وهـو نـاحيته. وقـوله: كالمرزبـاني يريـد كسرى، وإنما يعني ها هنا الأسد، فيقول هو منفرد بغيضـته تهابهه الأسد أن تنزل معه كما قال أبو زبيد:

البسيط أفرّ عنه بني الخالات جرأته * لا الصّيد يمنع منه وهو ممتنع

وقوله: رفهـاً يقـول: دائمـاً، فـي كـل يـوم يسـقي صـداه. وقوله: حملتني ود أقوام يعني أهل بيت فضالة.

باب من التعازي والمواعظ

ثم نعود إن شاء الله إلى الشعر ونصله بمثـل هـذا والقـوة لله جل ذكره.

يروى عن جعفر بن محمد أنه قال: مـات أخ لبعـض ملـوك اليمـن فعـزاه بعـض العـرب فقـال فـي تعزيتـه: اعلـم أن الخلق للخالق، والشكر للمنعـم، والتسـليم للقـادر، ولا بـد مما هو كائن، ولا سبيل إلى رجوع ما قـد فـات. وقـد أقـام

معك ما سيذهب عنك أو ستتركه، فما الجزع مما لا بد منه، وما الطمع فيما لا يرجى؟ وما الحيلة فيما سينقل عنك أو تنتقل عنه؟ قد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصله. وأحق الأشياء عند المصائب الصبر. وأهل هذه الدنيا سفر لا يحطون الركاب إلا في غيرها. فما أحسن الشكر عند النعم، والتسليم عند الغير. فاعتبر بمن قد رأيت من أهل الجزع، هل رد أحد منهم إلى شيء من درك. واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها. وإنما ابتلاك المنعم وأخذ منك المعطي، وما ترك أكثر. فإن نسيت الصبر فلا تغفل عن الشكر، وكلاً فلا تدع. وما أصغر المصيبة اليوم مع عظم المصيبة في غد، فاستقبل المصيبة بالحسنة تستخلف بها نعماً فإنما نحن في الدنيا أغراض تنتضل فيها المنايا، ونهب المصائب، مع كل جرعة شرق وفي كل أكلة غصص. لا تنال نعمة إلا بفراق أخرى ولا يستقبل معمر يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله، ولا تحدث له زيادة في أكلة إلا بنفاد ما قبلها من رزق، ولا يحيا له أثر إلا مات له أثر. فنحن أعوان الحتوف على أنفسنا، وأنفسنا تسوقنا إلى الفناء، فمن أين نرجو البقاء وهذا الليل والنهار لا يرفعان من شيء شرفاً إلا أسرعا في هدم ما رفعا وتفريق ما جمعا فاطلب الخير وأهله، واعلم أن خيراً من الخير معطيه، وشراً من الشر فاعله. والسلام.

قال أبو العباس: وعن جويرية بن أسماء عن عمه أن إخوةً ثلاثة شهدوا يوم تستر، فاستشهدوا، فخرجت أمهم إلى السوق يوماً لبعض شأنها، فتلقاها رجل قد حضر أمرهم فعرفته فسألته عن بنيها. فقال: استشهدوا. فقالت: أمقبلين أم مدبرين؟ فقال: بل مقبلين. فقالت: الحمد لله، نالوا الفوز وحاطوا الذمار، بنفسي هم وأمي وأبي.

وقال خالد بن عطية قال عمر بن عبد العزيز عند وفاة ابنه عبد الملك: الحمد لله الذي جعل الموت حتماً واجباً على خلقه، ثم سوى فيه بينهم، فقال: كل نفس ذائقة الموت. فليعلم ذوو النهي صائرون إلى قبورهم، مفردون بأعمالهم، واعلموا أن عند الله مسألةً فاحصةً فقال جل وعز: فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون.

وقال يحيى بن إسماعيل بن أبي المهاجر عن أبيه: استشهد ابن لأبي أمامة الحمصي فكتب عمر إلى أبي أمامة: الحمد لله على آلائه وقضائه وحسن بلائه. قد بلغني الذي ساق الله إلى عبد الله بن أبي أمامة من الشهادة. فقد عاش بحمد الله مأموناً، وأفضى إلى الآخرة شهيداً، وقد وصل إليكم من الله خير كثير إن شاء الله.

وقال يزيد بن عمر الكلابي: قال رجل لعمر بن عبد العزيز عند وفاة ابنه عبد الملك:

الطويل تعزّ أمير المؤمنين فإنّه * لما قد ترى يغذى الصّغير ويولد

هل ابنك إلاّ من سلالةِ آدمٍ * لكلٍّ على حوض المنيّة مورد

وقال أبو البيداء الأسدي عن شيخ من أهل الحرة، أن عمر بن عبد العزيز خطب الناس بعد وفاة ابنه عبد الملك، ونهى عن البكاء عليه، وقال: إن الله جل ذكره لم يجعل لمسيء ولا لمحسن خلوداً في الدنيا، ولم يرض بما أعجب أهلها ثواباً لأهل طاعته، ولا ببلائها عقوبةً لأهل معصيته، فكل ما فيها من محبوب متروك، وكل ما فيها من مكروه مضمحل. كتب على أهلها الفناء، وأخبر أنه يرث الأرض ومن عليها. فاتقوا الله، واعملوا ليوم لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً.

ودخل عمر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك وكان موته بالطاعون، وكانوا يقولون: إذا مس الطاعون، وهو قرحة،

فوجد ليناً طمع لصاحبه في البرء منه، وإن كان خشناً يئس من صاحبه، فدخل عمر على ابنه فقال: دعني أمس قرحتك، فكره عبد الملك أن يمسها أبوه فيجزع، وكانت خشنةً، فقال أو تعفيني يا أمير المؤمنين؟ فعلم عمر لم منعه، فقال ولم يا بني؟ فوالله لأن أقدمك فأجدك في ميزاني أحب إلي من أن تقدمني فتجدني في ميزانك. فقال: وأنا والله يا أمير المؤمنين لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب. فلمسها فقال: يا عبد الملك، الحق من ربك، فلا تكونن من الممترين. فقال. ستجدني إن شاء الله من الصابرين.

وروى عبد الله بن مسلم وغيره أن خنساء دخلت على عائشة أم المؤمنين وعليها صدار من شعر، فقالت لها: يا خنساء، أتتخذين الصدار وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه؟ فقالت: يا أم المؤمنين، إن زوجي كان رجلاً متلافاً فأملقنا فقال: لو أتيت معاوية فاستعنته؟! فلقيني صخر أخي فقال: اين تريدين فأخبرته، فشاطرني ماله فأتلفه زوجي، ففعل ذلك ثلاث مرات، فقالت امرأته: لو أعطيتها من شرارها، تعنى الإبل، فسمعته يقول:

مشطور الرجز والله لا أمنحها شرارها * ولو هلكت عطّلت خمارها

واتّخذت من شعرٍ صدارها

فلما هلك اتخذت هذا الصدار، ونذرت لا أضعه حتى أموت.

وقال أبو محمود: قالت الخنساء: كنت أبكى صخراً على ما فاته من الحياة، فأنا اليوم أبكي له من النار.

ويروى أن عائشة رضي الله عنها أنشدتها الخنساء بعض أشعارها في صخر، أحسبه قولها:

الوافر ألا يا صخر إن أبكيت عيني * لقد أضحكتني دهراً طويلا

بكيتك في نساءٍ معولاتٍ * وكنت أحقّ من أبدى العويلا

دفعت بك الخطوب وأنت حيٌّ * فمن ذا يدفع الخطب الجليلا?

إذا قبح البكاء على قتيلٍ * رأيت بكاءك الحسن الجميلا

فقالت لها عائشة: أتبكين صخراً وإنما هو جمرة في النار? قالت: يا أم المؤمنين، ذلك والله أشد لجزعي عليه.

وقال مسلمة: لما قتل عبد الله بن عامر بن مسمع بالزاوية أتوا الحجاج برأسه، فقال اذهبوا برأسه إلى عامر بن مسمع يعني أباه فأتوه به، فجعله في ثوبه وأقبل به إلي الحجاج وهو يبكي، فقال: أجزعت عليه? فقال لا، بل جزعت له من النار. فإن رأى الأمير أن يأذن لي في دفنه، فأذن له، فدفنه.

وقال مسلمة بن محارب: قتل معاوية بن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب في الحرب التي كانت بين قتيبة وبين سفيان بن معاوية. فلما ولي سفيان البصرة أرسل إلى خالد بن صفوان أن ابنك قتل، وقتل ابني فأرسلت إليك أتعزى بك وتتعزى بي. فقال: أصلح الله الأمير، أنا وأنت كما قالت الباكية:

المجتث أسعدنني أخواتي * فالويل لي ولكنّه

فقال سفيان: جددت لي حزناً. فقال: أصلح الله الأمير، فليسل عنك ما جددت لك العلم بأنك غير باق.

وقال كليب بن خلف: قال عبد الكريم المازني لعبد الله بن عبد الله ابن الأهتم: كيف كان جزعك على أهل بيتك? فقال: ما ترك حب الغداء والعشاء في قلبي حزناً على أحد.

وقال يزيد بن عياض بن جعدبة: كان عبد الله بن الزبير إذا أصابته مصيبة يقول: إن ابتليت فقد قتل أبي وإمامي عثمان. فصبرت.

وقال قائل لعبد الملك بن مروان: أأدركت قتل أمير المؤمنين عثمان؟ فقال: نعم. قال: فكيف كان جزعك عليه؟. قال: شغلني الحنق لأن أدرك بثأره عن الحزن عليه.

وقال أبو عبد الرحمن العجلاني عن إسماعيل بن يسار: مات ابن لأرطاة بن سهية المري، من غطفان، يقال له عمرو، فأقام على قبره حولاً، يأتيه كل غداة فيقول: يا عمرو، هل أنت غ اد معي؟ فلما كان رأس الحول تمثل قول لبيد:

الطويل إلى الحول ثمّ أسم السّلام عليكما * ومن يبك حولاً كاملاً فقد أعتذر

ثم ترك قبر ابنه.

وقال أبو عمرو بن يزيد: مات أخ لمالك بن دينار فبكى وقال: يا أخي لا تقر عيني بعدك حتى أعلم أفي الجنة أنت أم في النار، ولا أعلم ذلك حتى ألحق بك.

وقال مسلمة بن محارب: لما أتت معاوية وفاه زياد استرجع وقال:

الطويل وأفردت سهماً في الكنانة واحداً * سيرمى به أو يكسر السّهم كاسر

وقال أبو زكريا العجلاني وغيره أن معاوية نعي إليه سعيد بن العاصي وعبد الله بن عامر فاسترجع وقال:

الطويل إذا مات من خلف امريءٍ وأمامه * وأفرد من جيرانه فهو سائر

وقال عبد الله بن مسلم: بكى رجل على شاة له أصيب بها فأكثر، فرآه رجل من باهلة يقال له الحارث بن حبيب فقال:

السريع يا أيّها الباكي على شاته * يبكي بكاءً غير إسرار

إنّ الرزيئات وأمثالها * ما لقي الحارث في الدّار

دعا بني معنٍ وأشياعهم * فكلّهم يعدو بمحفار

وكان للحارث المذكور عشرة بنين، فحلب يوماً في علبة ووضعها فمج فيها أسود سالخ، فبعث بالعلبة إلى بنيه، وهو لا يدري، فشربوها فماتوا جميعاً. وقيل: بل كانوا سبعة، فسقط عليهم حائط فقتلهم.

وقال خالد بن يزيد بن بشر: جزع سليمان بن عبد الملك على ابنه أيوب، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، إن رجلاً حدث نفسه بالبقاء لغير جيد الرأي.

وقال صدقة بن عبد الله المازني: مات حنظلة بن عبد الله الأسيدي فجزعت عليه امرأته، فنهتها جاراتها وقلن لها: إن هذا يحبط أجرك، فقالت:

السريع تعجّب الدّهر لمحزونةٍ * تبكي على ذي شيبةٍ شاحب

إن تسأليني اليوم ما شفّني * أخبرك قولاً ليس بالكاذب

إن سواد العين أودى به * حزنٌ على حنظلة الكاتب

وكان حنظلة قد كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال إسحاق بن أيوب وعامر بن حفص ومسلمة بن محارب: قدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك ومعه محمد بن عروة فدخل محمد دار الدواب، فضربته دابة فخر ميتاً، ووقعت في رجل عروة الأكلة، ولم يدع ورده تلك الليلة. فقال له الوليد: اقطعها، وإلا أفسدت

عليك جسدك، فقطعها بالمنشار وهو شيخ كبير. ولم يمسكه أحد. وقال: لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا.

وقدم على الوليد في تلك السنة قوم من بني عبس، فيهم رجل ضرير فسأله الوليد عن عينيه فقال: يا أمير المؤمنين، بت ليلةً في بطن واد ولا أعلم عبسياً يزيد ماله على مالي؛ فطرقنا سيل فذهب بما كان لي من أهل وولد ومال غير بعير وصبي مولود. وكان البعير صعباً فند. فوضعت الصبي واتبعت البعير، فلم أجاوزه إلا قليلاً حتى سمعت صيحة ابني، فرجعت إليه ورأس الذئب في بطنه وهو يأكله، ولحقت البعير لأحبسه فنفحني برجله على وجهي فحطمه وذهب بعيني فأصبحت لا مال لي ولا أهل ولا ولد ولا بصر. فقال الوليد: انطلقوا به إلى عروة ليعلم أن في الناس من هو أعظم منه بلاءً.

وشخص عروة إلى المدينة فأتته قريش والأنصار فقال له عيسى بن طلحة ابن عبيد الله: أبشر يا أبا عبد الله، فقد صنع الله بك خيراً، والله ما بك حاجة إلى المشي. فقال: ما أحسن ما صنع الله إلي، وهب لي سبعة بنين فمتعني بهم ما شاء، ثم أخذ واحداً وترك ستة، ووهب لي ست جوارح، فمنعني بهن ما شاء، ثم أخذ واحدة ثم ترك لي خمساً: يدين ورجلاً وسمعاً وبصراً، ثم قال: اللهم لئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت.

وكثر الموت سنةً بالبصرة، فقيل للحسن: يا أبا سعيد، ألا ترى؟ فقال: ما أحسن ما صنع ربنا. أقلع مذنب، وأنفق ممسك، ولم يغلط بأحد.

وقال مخلد بن حمزة عن عبد الملك بن عمير قال دخل عبد الله بن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر، فقال لها: يا أمه، قد خذلني الناس فما بقي معي إلا من ليس عنده

من الصبر أكثر من ساعة، والقوم يعطونني ما أردت، فما رأيك؟ قالت: أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض على حقك، ولا تمكن غلمان بني أمية من نفسك، فقال: وفقك الله، هذا رأيي، وإني لحسن الظن بربي، فإن هلكت فلا يشتد علي جزعك، فإن ابنك لم يتعمد إتيان دنية، ولا عملاً بفاحشة، ولم يجر في حكم، ولم يسع بغدر، ولم يكن شيء آثر عنده من رضى ربه. اللهم، إني لا أقول هذا تزكيةً لنفسي وأنت أعلم بي، ولكني أقوله لتسلو عني.

وقال علي بن مجاهد عن عبد الأعلى بن ميمون: دخل عبد الله بن الزبير على أمه: فقال: كيف أصبحت يا أمه؟ فقالت: إني لوجعه، قال: إن في الموت لراحةً. قالت: والله ما أحب أن أموت حتى آتي على أحد طرفيك: إما ظفرت فقرت عيني، وإما قتلت فاحتبستك، وإن أحبهما إلي أن تكون تصلي علي وتدفنني. فما دمعت عينه ولا عينها. فما ندري من أيهما نعجب.

ولقد قال: إني لا آمن إن قتلت أن أصلب، فقالت له: يا بني إن الشاة لا تألم للسلخ. فحمل على أهل الشام وهو يتمثل:

الطويل فلست بمتباع الحياة بسبّةٍ * ولا مرتقٍ من خشية الموت سلّما

قال أبو الحسن المدائني: وأخبرنا يزيد بن عياض قال: لما مات علي بن الحسين ضربت امرأته على قبره فسطاطا، فأقامت فيه حولاً ثم رجعت إلى بيتها. فسمعوا قائلاً يقول: أدركوا ما طلبوا. فأجابه مجيب: بل يئسوا فانصرفوا.

قال: وأخبرنا علي بن مجاهد عن عبد الأعلى بن ميمون بن مهران عن أبيه قال: عزى رجل عمر بن عبد العزيز

عن ابنه عبد الملك، فقال عمر: الذي نزل بعبد الملك أمـر كنا ننتظره، فلما وقع لم ننكره.

قال: وأخبرنا بشر بن عبد اللـه بـن عمـر قـال: قـام عمـر على قبر ابنه عبد الملك، فقال: رحمـك اللـه يـا بنـي، لقـد كنت سـاراً مولـوداً، ويـاراً ناشـئاً، ومـا أحـب أنـي دعوتـك فأجبتني! وقال الأصمعي: دخل عمر بن عبد العزيـز علـى ابنه عبد الملك وهو يجـود بنفسـه، فقـال: كيـف تجـدك يـا بنـي؟ قـال: أجـدني فـي المـوت، فاحتسـبني يـا أميـر المؤمنين، فإن ثواب الله خير لك منـي. قـال: رضـي اللـه عنك يا بني، فإنك لم تزل تسر أباك وأنت في الخرق، ومـا كنت قط أسر إلي منـك حيـث يصـيرك اللـه فـي ميزانـي، فرضي الله عنك وعـن كـل شـاهد وغـائب دعـا لـك بخيـر. فجعل الناس يدعون له رجاء أن يـدخلوا فـي دعـوة عمـر. وعاش عمر بعده أربعين يوماً ثم هلك.

وقال الأصمعي: قال عمر: إنما الجزع قبل فـوات الشـيء فإذا فاتك الشيء فاله عنه.

وقال الأصمعي: كتب رجل إلى عمر يعزيـه، فأجـابه: إنـي لم أزل في صحة منه وسلامة، موطناً نفسي على فراقـه. والسلام.

وأخبرنا أبو الحسن عمن حدثه عن مسلمة قال: لمـا مـات عبد الملك كشف أبوه عن وجهه وقال: رحمك الله يا بني، سررت بك يوم بشرت بك، ولقد عمرت مسروراً بـك ومـا أتت علي ساعة أنا بك فيها أسر مني بك من ساعتي هذه، أما والله إن كنت لتدعو أباك إلى الجنة.

وتحدث المدائني عن سليمان بـن أرقـم أن عمـر بـن عبـد العزيز قال لأبي قلابة وكـان ولـي غسـل ابنـه: إذا غسـلته

وكفنته فآذني به قبل أن تغطي وجهه. فنظر إليه فقال: رحمك الله يا بني وغفر لك.

وتحدث عن يحيى بن إسماعيل بن أبي المهاجر عن أبيه قال: استشهد ابن لأبي أمامة الحمصي فكتب عمر إلى أبي أمامة: الحمد لله على آلائه وقضائه وحسن بلائه. فقد بلغني الذي ساق الله إلى عبد الله بن أبي أمامة من الشهادة، فقد عاش بحمد الله في الدنيا مأموناً، وأفضى إلى الآخرة شهيداً، وقد وصل إليكم من الله خير كثير إن شاء الله.

وتحدث عن جعفر بن هلال بن حباب عن أبيه قال: كتب عمر إلى عماله: إن عبد الملك بن عمر كان عبداً من عبيد الله أحسن إليه وإلى أبيه فيه، أعاشه ما شاء ثم قبضه إليه. وكان ما علمت والله به أعلم خيراً، من صالحي شباب أهل بيته قراءةً للقرآن وتحرياً للخير. وأعوذ بالله أن تكون لي محبة في شيء من الأمور تخالف محبة الله، فإن ذلك لا يحسن بي في إحسانه إلي، وتتابع نعمه علي. وقد قلت عند الذي كان بما أمر الله عز وجل أن أقول عند المصيبة ثم لم أجد بحمد الله إلا خيراً، ولا أعلم ما بكت عيه باكية، ولا ناحت عليه نائحة، ولا اجتمع لذلك أحد، فقد نهينا أهله الذين هم أحق بالبكاء عليه.

وتحدث عن محمد بن عباد أنه بلغه أن عبد الملك بن عمر لما مات، فخرج بسريره ليصلى عليه، صف عمر الناس خلفه ثم قام حيال صدره أو رأسه ثم قال: هكذا يقوم ولي الرجل من الرجل، ومن المرأة يقوم حيال وسطها. فلما صار إلى القبر دخل فيه وأخذ برأس ابنه حتى وضعه في اللحد. ثم قال: هكذا يصنع ولي الرجل بالرجل. ثم قام على قبره وجعل القبر بينه وبين القبلة. فلما رآه الناس

قائماً قاموا، فقال: اجلسوا، فإنما يجب القيام على أولياء الميت.

وتحدث عن مسلمة بن عثمان أن سليمان بن عبد الملك قال لعمر بن عبد العزيز: هل يكون المؤمن في حالة تنزل به المصيبة فلا فلا يألم لها؟ قال لا يا أمير المؤمنين، لا يكون أن يستوي عندك ما تحب وما تكره، أو تكون الضراء والسراء عند أحد سواء. ولكن معول المؤمن الصبر.

وقال عن عبد الله بن الأسود: لما مات عاصم بن عمر بن عبد العزيز جزع عليه أخوه عبد الله فرثاه. وأنشدني هذا الشعر الرياشي:

الطويل إن تك أحزانٌ وفائض عبرةٍ * أثرن دماً من داخل الجوف منقعا

تجرّعتها في عاصمٍ فاحتسبتها * لأعظم منها ما أحتسى وتجرّعا

فليت المنايا كنّ صادفن غيره * فعشنا جميعاً أو ذهبن بنا معا

وقال إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب يرثي أخاه محمد بن عبد الله:

البسيط أبا المنازل يا عبر الفوارس من * يفجع بمثلك في الدنيا فقد فجعا

الله يعلم أنّي لو خشيتهم * وأوجس القلب من خوفٍ لهم فزعا

لم يقتلوك ولم أسلم أخي لهم * حتّى نعيش جميعاً أو نموت معاً

وكان قتله في المعركة عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله وهو الذي قتل إبراهيم أخاه.

وقال أبو الحسن: أخبرنا العباس بن معاوية قال: عزى محمد بن الوليد ابن عتبة بن أبي سفيان عمر بن عبد العزيز عن ابنه عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، ليشغلك ما أقبل من الموت إليك عمن هو في شغل عما دخل عليك، وأعدد لما ترى عدة تكون لك جنة من الحزن وستراً من النار. فقال عمر: فهل رأيت حزناً ينكر أو غفلةً أنبه لها؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لو أن رجلاً ترك تعزية رجلٍ لعلمه وانتباهه لكنته، ولكن الله قضى أن الذكرى تنفع المؤمنين.

وقال أبو الحسن: دخل مسلمة على عمر في مرضه، فقال: يا أمير المؤمنين، ألا توصي؟ قال: وهل لي مال أوصي فيه؟ فقال مسلمة: هذه مئة ألف أبعث بها إليك فهي لك أوص فيها. قال: فهلا غير ذلك يا مسلمة؟ فقال: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: تردها من حيث أخذتها. فبكى مسلمة وقال: يرحمك الله، فقد ألنت منا قلوباً كانت قاسية، وزرعت لنا في قلوب المؤمنين مودة، وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً.

وقال أبو الحسن عن سعيد بن عامر عن محمد بن عمرو بن علقمة قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: ما أنعم الله على عبد نعمةً فانتزعها منه وعاضه من ذلك الصبر إلا كان ما عوضه أفضل مما انتزع منه. ثم قرأ: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.

وقال مقسم، وهو مولىً لبعض أهل المدينة، يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

البسيط لو أعظم الموت خلقاً أن يلاقيه * لأعظم الموت أن يلقاك يا عمر

لهفي عليك ولهف الموجعين معي * على العدول الّتي تعيى لها الجفر

ثلاثةٌ لا ترى عينٌ لهم شبهاً * تضمّ أعظمهم في المسجد الجدر

فقد بلغت ولم تبلغ فعالهم * ما فوقه لإمامٍ مبصرٍ بصر

قال أبو الحسن: قال محمد بن حرب الهلالي: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عزى يقول: آجركم الله ورحمكم. وإذا هنأ قال: بارك الله لكم وبارك عليكم.

وقال ابن الأعرابي: وقف جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس على قبر أخيه محمد بن سليمان فقال: اللهم إني أمسيت أرجوك له وأخافك عليه، اللهم فصدق رجائي وأمن خوفي، إنك على كل شيء قدير.

قال الأصمعي: ولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كعب بن سور قضاء البصرة. قال أبو العباس: وكان سبب ذلك أنه حضر مجلس عمر، فجاءت امرأة فقالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي صوام، قوام. فقال عمر: إن هذا لرجل صالح، ليتني كنت كذا. فردت عليه الكلام فقال عمر كما قال. فقال كعب بن سور الأزدي: يا أمير المؤمنين، إنها تشكو زوجها، تخبر أنه ليس لها منه حظ. فقال: علي بزوجها. فأتي به، فقال له: ما بالها تشكوك، وما رأيت امرأة أكرم شكوى منها؟ فقال: يا أمير المؤمنين:

الرجز إنّي امرؤٌ أفزعني ما قد نزل * في الحجر والنّحل وفي السّبع الطّول

فقال له كعب:

الرجز إنّ لها عليك حقّاً يا بعل * فأوفها الحقّ وصم ثمّ وصلّ

فقال عمر لكعب: اقض بينهما. فقال: نعم، يا أمير المؤمنين، أحل الله للرجل أربعاً، فأوجب لكل واحدة ليلة، فلها في كل أربع ليال ليلة، ويصنع بنفسه في الثلاث ما شاء. فألزمه ذلك. وقال لكعب: اخرج قاضياً على البصرة.

قال أبو العباس: اتصل هذا بخبر الأصمعي.

فلم يزل عليها حتى قتل عثمان. فلما كان يوم الجمل، خرج مع أهل البصرة وفي عنقه مصحف، فقتل هو يومئذ وثلاثة إخوة له أو أربعة. فجاءت أمهم فوجدتهم في القتلى، فحملتهم وجعلت تقول:

المتقارب أيا عين بكّي بدمعٍ سرب * على فتيةٍ من خيار العرب

فما ضرّهم غير حين النّفو * س أيّ أميري قريشٍ غلب

وقال أبو الحسن: أخبرني مخبر قال: كتب غيلان إلى رجل من إخوانه أصيب بابنه فجزع عليه: أما بعد. فإن الله أعطاك هبته، وجعل عليك أدبه ومؤنته، وأنت تخشى فتنته، فاشتد بذلك سرورك. فلما قبض الله هبته، وكفاك أدبه ومؤنته، وأمنت فتنته، اشتد لذلك جزعك، فأقسم بالله أن لو كنت تقياً لعزيت على ما هنئت عليه، ولهنئت على ما عزيت عليه. فإذا أتاك كتابي فاصبر على الأمر الذي لا غنى بك عن ثوابه، ولا صبر لك على عقابه. واعلم أن كل مصيبة لم يذهب فرح ثوابها حزنها، فذلك الحزن الدائم.

وقال أبو الحسن: لما هلك ابن عمر بن ذر وقف عليه أبوه وهو مسجىً فقال: يا بني، ما علينا من موتك غضاضة، وما بنا إلى أحد سوى الله من حاجة. فلما دفن قام على قبره فقال: يا ذر غفر الله لك، لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن

عليك، لأنا لا ندري ما قلت وما قيل لك. اللهم، إني قد وهبت له ما قصر فيه مما افترضته عليه من حقي، فهب لي ما قصر فيه من حقك، واجعل ثوابي عليه له، وزدني من فضلك فإني إليك من الراغبين؟ فسئل عنه فقيل: كيف كان معك؟ فقال: ما مشيت معه بليل قط إلا كان أمامي، ولا بنهار قط إلا كان خلفي، وما علا سطحاً قط وأنا تحته.

قال أبو الحسن: أخبرني بعض قريش، يرفع الحديث إلى ابن عباس قال: هلك رجل من أهل المدينة فشهد جنازته عبد الله بن العباس رضي الله عنهما فلما دفن الرجل قال بعض من شهده: ليت شعري إلى ماذا صار صاحبنا؟ فسمعه ابن عباس فقال: أما تدري؟ قال: لا والله، قال: لكني والله، أدري، قال الله جل ثناؤه: فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم. وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم، وليس صاحبنا من المكذبين الضالين. فإن أخطأه أن يكون من المقربين فلن يخطئه أن يكون من أصحاب اليمين. قال: ففرح جميع القوم بما سمعوا.

وقال عن عوانة: لما بلغ خالد بن الوليد موت أبي بكر رضي الله عنه قال: الحمد لله الذي أمات أحب خلقه إلي، واستخلف أبغض الأمة إلي. وقد استخلف عليكم أمين أمتكم، يعني أبا عبيدة بن الجراح.

وقال الأصمعي: قام خالد بن الوليد على رأس أبي عبيدة، فستره بردائه من الشمس، فقيل له: ما أردت إلى هذا؟ قال: أردت إعزاز الإسلام.

وقال أبو الحسن عن محمد بن الفضل عن أبي حازم قال: مات عقبة بن عياض بن غنم الفهري فعزى رجل أباه

فقال: لا تجزع عليه، فقد قتل شهيداً وكان من سادة الجيش فقال: وكيف لا أصبر وقد كان في حياته زينة الحياة الدنيا، وهو اليوم من الباقيات الصالحات.

وأخبر عن عامر بن الأسود قال: استشهد لمولىً لبني نوفل بنون، فعزاه رجل فقال: آجرك الله في الباقين، ومتعك بالفانين. فقال له رجل لعلك غلطت. فقال: لا، إن الله يقول: ما عندكم ينفد وما عند الله باق.

وأخبر عن عمر بن مجاشع قال: قال نافع، مولى عمر بن الخطاب: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول: نسأل الله تمام النعمة. فقال: أتدري ما تمام النعمة?. إن تمام النعمة النجاة من النار.

وسمع صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول: اللهم، ارزقني صبراً. فقال: يا عبد الله، سألت بلاءً، فاسأله الله العافية.

وعن عمر بن مجاشع قال: قال رجل لابن عمر وعزاه: أعظم الله أجرك. فقال ابن عمر: نسأل الله العافية.

قال: وهذا حديث نمليه وقد مضى في صدر الكتاب ناقصاً فأتممناه في هذا الموضع ليتوفر ويتصل به ما بعده: تحدث المدائني عن يعقوب بن داود عن بعض أشياخه أن عبيد الله ابن العباس بن عبد المطلب كان عاملاً لعلي بن أبي طالب عليه رضي الله عنه السلام على اليمن، فخرج إلى علي، واستخلف على صنعاء عمرو بن أراكة الثقفي. فوجه معاوية بسر بن أرطاة، أحد بني عامر بن لؤي، فقتل عمرو ابن أراكة فيمن قتل. فجزع عليه أخوه عبد الله. فقال أبوه:

الطويل لعمري لئن أتبعت عينيك ما مضى * به الدّهر أو ساق الحمام إلى القبر

لتستنفدن ماء الشّؤون بأسره * ولو كنت تمريهنّ من ثبج البحر

لعمري لقد أردى ابن أرطاة فارساً * بصنعاء كاللّيث الهزبر أبي الأجر

فقلت لعبد الله إذ حنّ باكياً * تعزّ، وماء العين منحدرٌ يجري

وأنشدني التوزي عن أبي زيد: إذ خن باكياً تبيّن فإن كان البكا ردّ هالكاً * على أحدٍ، فاجهد بكاك على عمرو

ولا تبك ميتاً بعد ميتٍ أجنّه * علي وعبّاسٌ وآل أبي بكر

قال أبو العباس: وكان بسر قد قتل خلقاً باليمن. يقول بعضهم: حتى أخاض الخيل في الدماء. وكان في من قتل طفلان لعبيد الله بن العباس أخذهما من الكتاب. فروي أنه قتلهما وهما يقولان: يا عم لا نعود? وأما الرواية الفاشية التي كأنها إجماع، فإنه أخذهما من تحت ذيل أمهما وهي امرأة من بني الحارث بن كعب، ففي ذلك تقول لما خرج بهما من عندها:

مجزوء الوافر ألا من بيّن الأخوي * ن أمّهما هي الثّكلى

تسائل من رأى ابنيها * وتستبغي فما تبغى

وقالت أيضاً:

البسيط يا من أحسّ بنيّيّ اللّذين هما * كالدّرّتين تشظّى عنهما الصّدف

يا من أحسّ بنيّيّ اللّذين هما * قلبي وطرفي فقلبي اليوم مختطف

يا من أحسّ بنيّيّ اللّذين هما * مخّ العظام، فمخّي اليوم مزدهف

نبّئت بسراً وما صدّقت ما ذكروا * من قولهم ومن الإفك الّذي اقترفوا

أنحى على ودجي شبليّ مرهفةً * بغياً، كذا وعظيم البغي يقترف

قال أبو الحسن: مات الحسن بن الحصين، أبـو عبيـد اللـه بـن الحسـن وعبيـد اللـه يومئـذ قاضـي البصـرة وأميرهـا فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره، فأجمعوا علـى أنه إذا ترك شيئاً كان يصنعه فقد جزع، فأتاه صالح المـري فعزاه فقال له: يا هذا، إن كانت مصيبتك أحدثت لك عظـة في نفسك فنعم المصيبة مصـيبتك. وإن كـانت لـم تحـدث لك عظـة فـي نفسـك فمصـيبتك فـي نفسـك أعظـم مـن مصيبتك بأبيك وأخبر عن عامر بن حصين والمثني بن عبـد الله قالا: مات أخ لمحمد ابن سيرين فجزع عليه، فلما كان في مؤخر الدار ذكـر أنـه لـم يسـرح لحيتـه. فجلـس ودعـا بمشط، فسرح لحيته ورأسه ثم خرج.

وقال الأصمعي: كان ابن سيرين يترجل غبـاً، فجـاءه نعـي أخيه في يوم ترجله فترجل.

وأخبر أبو الحسن عن عبد الله بن مرة عـن بعـض أشـياخه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للخنساء: ما أقرح مآقي عينيك؟ قالت: بكائي علـى السـادات مـن مضـر؟؟! قال: يا خنساء، إنهم في النار. قالت: ذاك أطـول لعـويلي عليهم.

وقال عن أبي محمود: قالت الخنساء: كنـت أبكـي لصـخر على الحياة فأنا اليوم أبكي له من النار.

وأخبر عن محمد بن عبد الحميد قال: نعى رجل لرجل ابنه فقال: قد نعي إلي قبل ذلك، قال: ومن أعلمك بموته، وما نعاه غيري ممن يعرفك؟ قال: نعاه الله حيث يقـول لنـبيه: إنك ميت وإنهم ميتون.

وأخبرني عن أبي المقـدام، وكـان كـبيراً، أدرك سـعيد بـن المسيب قال: بلغني أن أبـا مسـلم الخـولاني كـان يقـول: لأن أقدم سقطاً أحـب إلـي مـن أن أدع مئـة مـن خـولان، ولأن أقدم فرطاً أحب إلي من أن أخلف خولان كلها.

باب من التعازي والتعزي في الأشعار

قالت ليلى الأخيلية، قال أبو العباس: قرأته على الرياشي:

الطويل أقسمت أبكي بعد توبة هالكاً * وأحفل من دارت عليه الدّوائر

لعمرك ما بالموت عارٌ على الفتى * إذا لم تصبه في الحياة المعاير

فلا الحيّ ممّا يحدث الدّهر سالمٌ * ولا الميت إن لم يصبر الحيّ ناشر

وكلّ شبابٍ أو جديدٍ إلى بلىً * وكل امريءٍ يوماً إلى الله صائر

فلا يبعدنك الله يا توب هالكاً * أخا الحرب إذ دارت عليك الدّوائر

فأقسمت لا أنفكّ أبكيك ما دعت * على فننٍ ورقاء أو طار طائر

قتيل بني عوفٍ فيا لهفي له * وما كنت إيّاكم عليه أحاذر

قال أبو العباس: وأشعار المراثي كثيرة، وإنما نختار عيونـاً مـن جميعهـا ومـن الشـيء أحسـنه. وكـذلك الكلام غيـر الشعر. ولـم تكـن ليلـى الأخيليـة امـرأة لتوبـة، ولا بينهمـا نسب لاصق إلا أنهما جميعاً من بنـي عقيـل بـن كعـب بـن ربيعة ابن عامر بن صعصعة. وكـانت تحبـه ويحبهـا. وروت

الرواة أن خلا بها مرة فأرادها على ما يريد الرجـال، فـأبت واشمأزت. ففي ذل تقول:

الطويل وذي حاجةٍ قلنا له لا تبح بها * فليس إليها ما حييت سبيل

لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونه * وأنت لأخرى صاحبٌ وخليل

فأقاما دهراً على حـب عفيـف، وهـي السـنة الجاريـة فـي العشاق الماضين من بني عذرة، وغيرهم.

وكان سبب قتل توبة أن بني عوف كانوا يطلبونه فأحسوه، وقـد قـدم مـن سـفر معـه عبيـد اللـه بـن الحميـر، أخـوه، وقـابض، مـولاه. وبينـه وبيـن الحـي ليلـة، فـأتوه طروقـاً، فهرب صاحباه وأسلماه فقتل. ففي ذلك تقول ليلى:

الطويل دعا قابضاً والمرهفات تنوشه * فقبّحت مدعوّاً ولبّيت داعيا

فليت عبيد الله حلّ محلّه * فأودى ولم أسمع لتوبة ناعيا

وقالت: الطويل عيني على الحزم ألا فابكي على أبن حميّر * بدمعٍ كفيض الجدول المتفجّر

لتبك عليه من خفاجة نسوةٌ * بماء شؤون العبرة المتحدّر

خفاجة بن عقيل.

سمعن بهيجا أوجفت فذكرنه * وقد يبعث الأحزان طول التّذكّر

كأنّ فتى الفتيان توبة لم ينخ * بنجدٍ ولم يطلع مع المتغوّر

ولم يرد الماء السّدام إذا بدا * سنا الصّبح في أعقاب أخضر مدبر

السدام: الآبار القديمة المندفنة. وجمعهـا سـدوم وقولهـا: سنا الصبح، السنا: مـن الضـوء، مقصـور كقـول اللـه جـل

وعـز: يكـاد سـنا برقـه يـذهب بالأبصـار. والسـناء: مـن الشرف، ممدود.

وقولها: في أعقاب أخضر مدبر، تعني الليل، تريد بأخضـر: أسود. وجعلته مدبراً لورود الصبح.

ولم يقدع الخصم الألدّ ويملأ ال * جفان سديفاً يوم نكباء صرصر

النكباء: الريـح بيـن الريحيـن. والسـديف: شـقق السـنام، والصرصر: الريح الشديدة الصوت، الباردة.

ألا ربّ مكروبٍ أجبت ونائلٍ * فعلت، ومعروفٍ لديك ومنكر

فيا توب للمولى، ويا توب للنّدى * ويا توب للمستنبح المتنوّر

فقال لها رجل: ما كان توبة كما ذكرت. وقلت فتى الفتيان وما كان كذاك. فقالت: إن كنت كاذباً فأشل الله عشـرك، وأدام فقرك. كان والله شديد المرة، لين العطفة، يرضـيه أقل مما يسخطه.

وقال أيضاً:

الطويل نظرت وركنٌ من أبانين دونه * مفاوز حسمى أيّ نظرة ناظر

كأنّ فتى الفتيان توبة لم ينخ * قلائص يفحصن الحصى بالكراكر

ولم يبن أبراداً عتاقاً لفتيةٍ * كرامٍ ويرحل قبل فيء الهواجر

فتىً لا تخطّاه الرّفاق ولا يرى * لقدرٍ عيالاً دون جارٍ مجاور

فإن تكن القتلى بواءً فإنّكم * فتىً ما قتلتم آل عوف بن عامر

البواء: الأمثال. يقال: بـاء فلان بفلان إذا قتـل بـه. تقـول: فإن تكن القتلى يبوء بعضها ببعض، فإن توبة فوق ذلك.

وأما قوله جل وعز: إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك، إنما هو إن فعلت أن تحتمل الإثميـن المتسـاويين: الـذي رد عليـك قربانك فلم يقبل من أجله، وقتلك إيـاي، وكـان كـل واحـد منهما كفاء الآخر. هذا اشتقاق هذا المعنى. ومن ذلك قول مهلهل بن ربيعة حين قتل بجير بـن الحـارث بـن عبـاد: بـؤ بشسع كليب، فقيل للحارث بن عبـاد: إن ابنـك بجيـراً قـد قتل. قال: إنه لأعظم قتيل بركة إن أصلح الله به بين ابني وائل. قيل: إن مهلهلاً لما قتله قال: بؤ بشسع كليب. فعند ذلك دخل الحارث في حربهم ولم يكن دخلها.

رجع الشعر وإلاّ يكن فيها بواءٌ فإنّكم * ستلقون يوماً سرّه غير صادر

وكنت إذا مولاك خاف ظلامةً * دعاك ولم يعدل سواك بناصر

وقد كنت مرهوب الجنان وبيّناً * ومجدام سيرٍ دائباً غير فاتر

فنعم الفتى إن كان توبة فاجراً * وفوق الفتى إن كان ليس بفاجر

أتته المنايا دون درعٍ حصينةٍ * وأسمر خطّيٍّ وجرداء ضامر

فبالله تبني بيتها أمُّ عاصمٍ * على مثله أخرى اللّيالي الغوابر

وروت الرواة أنها زارت قبره، فجعلـت تقـول: يـا توبـة، يـا توبة! ثم أقبلت على من معها بعد أن سـلمت علـى القـبر.

فقالت: ما كذبني قبلها. فقيل: فيم ذاك، وما تبينا منه كذباً. قالت لأنه قال في بعض قوله:

الطويل ولو أنّ ليلى الأخيليّة سلّمت * عليّ ودوني تربةٌ وصفائح

لسلّمت تسليم البشاشة أو زقا * إليها صدىً من داخل القبر صائح

قال: وهذا الكلام غاية المدح، لا لأنها جهلت حال الموتى ولكنها دلت على أنه لم تعرف منه كذبة قط حتى يعتد عليه بها ميتاً.

وقال سليمان بن قتة، وهو مولىً لبني تيم، وانقطاعه إلى بني هاشم يذكر يوم الحسين بن علي بن أبي طالب رحمه الله:

الطويل مررت على أبيات آل محمّدٍ * فلم أرها كعهدها يوم حلّت

فلا يبعد الله الدّيار وأهلها * وإن أصبحت من أهلها قد تخلّت

وكانوا رجاءً ثم عادوا رزيّةً * فقد عظمت تلك الرّزايا وجلّت

وإنّ قتيل الطّفّ من آل هاشمٍ * أذلّ رقاب المسلمين فذلّتِ

وعند غنيٍّ قطرةٌ من دمائنا * سنجزيهم يوماً بها حيث حلّت

إذا افتقرت قيسٌ جبرنا فقيرها * وتقتلنا قيس إذا النّعل زلّت

قال أبو العباس: أنشـدنيها الرياشـي، وأنشـدني مـا بعـدها مما أمليه إلى انقطاعه.

وقال الفرزدق يذكر ابني مسمع، وكان قد قتلهمـا معاويـة بن يزيد ابن المهلب بعد قتل ابنـه، وكانـا مروانييـن، وكـان سائر بكر بن وائل مـع يزيـد بـن المهلـب، وكـان المنتـوف مولى بني قيس بن ثعلبة، على شرطة يزيد، فقتل لسـبب عنده مع يزيد فبكته بكر بن وائل وهو مولىً وأعرضت عـن ابني مسمع وهما صليبةً. فقال الفرزدق:

الطويل تبكّي على المنتوف بكر بن وائلٍ * وتنهى عن ابني مسمعٍ من بكاهما

غلامان شبّا في الحروب وأدركا * كرام المساعي قبل وصل لحاهما

ولو كان حيّاً مالكٌ وابن مالكٍ * إذن أوقدا نارين يعلو سناهما

وقال الفرزدق أيضاً يرثي ابنين له ماتا في مدة يسيرة:

الطويل بفي الشامتين التّرب إن كان مسّني * رزيّة شبلي مخدرٍ في الضّراغم

وما أحدٌ كان المنايا وراءه * وإن عاش أيّاماً طوالاً بسالم

أرى كلّ حيٍّ لا تزال طليعةً * عليه المنايا من ثنايا المخارم

يذكّرني ابنّي السّماكان موهناً * إذا ارتفعا فوق النّجوم العواتم

وقد رزيء الأقوام قبلي بنيهم * وإخوانهم فأقني حياء الكرائم

ومات أبي والمنذران كلاهما * وعمرو بن كلثومٍ شهاب الأراقم

وقد كان مات الأقرعان وحاجبٌ * وعمروٌ أبو عمروٍ وقيس بن عاصم

وقد مات بسطام بن قيس بن خالدٍ * ومات أبو غسّان شيخ اللهازم

وقد مات خيراهم فلم يهلكاهم * عشيّة بانا، رهط كعبٍ وحاتم

فما ابناك إلاّ من بني النّاس فاصبري * فلن يرجع الموتى حنين المآتم

ويقال: خنين.

وماتت امرأة له أيضاً وبها جمل، فقال:

الطويل وجفن سلاحٍ قد رزئت فلم أنح * عليه ولم أبعث عليه البواكيا

وفي جوفه من دارمٍ ذو حفيظةٍ * لو أنّ المنايا أرجأته لياليا

وقال بعض الشعراء يعزي رجلاً عن ابنه:

الكامل اصبر لكّلّ مصيبةٍ وتجلّد * واعلم بأنّ المرء غير مخلّد

وإذا ذكرت محمّداً ومصابه * فاذكر مصابك بالنّبّي محمّد

وقال الحكمي وأحسن جداً:

الطويل طوى الموت ما بيني وبين محمّدٍ * وليس لما تطوي المنيّة ناشر

لئن أوحشت مّمن أحبّ منازلٌ * لقد أنست مّمن أحبّ المقابر

وكنت عليه أحذر الموت وحده * فلم يبق لي شيءٌ عليه أحاذر

وهذا يشبه قول التيمي في يزيد بن مزيد:

الوافر لقد عزّى ربيعة أنّ يوماً * عليها مثل يومك لا يعود

وقال حارثة بن بدر الغداني يرثي زياداً:

البسيط صلّى الإله على قبرٍ وطهّره * عند الثّويّة يسفى فوقه المور

زفّت إليه قريشٌ نعش سيّدها * فالجود والحزم فيه اليوم مقبور

أبا المغيرة والدّنيا مفجّعةٌ * وإنّ من غرّت الدّنيا لمغرور

قد كان عندك للمعروف معرفةٌ * وكان عندك للنّكراء تنكير

وكنت تغشى وتعطي المال من سعةٍ * إن كان بابك أضحى وهو مهجور

فالنّاس بعدك قد خفّت حلومهم * كأنّما نفخت فيها الأعاصير

وقال خليد عينين يرثي المنذر بن الجارود العبدي وكانت بحرية ابنة المنذر تحت عبيد الله بن زياد، ومات المنذر بالسند في موضع يقال له قصدار:

السريع بحريّ، قومي فاندبي منذراً * وابكي ابن بشرٍ سيّد الوافدين

وأبكي أبا الأشعث لمّا ثوى * بالهند لم يقفل مع القافلين

جاور قصدار وأكنافها * تسفي عليه الرّيح مور الدّرين

في جدثٍ عافٍ، بمهجورةٍ * ناءٍ عن الزّوّار والعائدين

فأصبح المجد بها ثاوياً * بين صفاً صمٍّ وصخرٍ رزين

لله قصدارٌ وأكنافها * أيّ فتى دنيا أجنّت ودين

قد علمت نفسي فما أمترى * حقّاً سوى الظّنّ وقول اليقين

ما الحيّ والميّت فيما ترى * من حدث الدّهر وريب المنون

إلاّ كغادٍ راح أصحابه * أو رائحٍ في أثر المغتدين

مات بها الجود وأودى النّدى * وانقطع الخير عن السّائلين

وقال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه:

البسيط نعى النّعاة أمير المؤمنين لنا * يا خير من حجّ بيت الله واعتمرا

حمّلت أمراً عظيماً فاصطبرت له * وقمت فيهم بأمر الله يا عمرا

فالشّمس طالعةٌ ليست بكاسفةٍ * تبكي عليك نجوم اللّيل والقمرا

وقال بكير بـن معـدان اليربـوعي يرثـي يحيـى بـن مبشـر، وكان قتل بمسكن مع مصعب بن الزبير:

السريع صلّى على يحيى وأشياعه * ربٌّ غفورٌ وشفيعٌ مطاع

لمّا عصى المصعب أصحابه * أدّى إليه الكيل صاعاً بصاع

أمّ عبيد الله محزونةٌ * ما نومها بعدك إلا الرّواع

يا فارساً، ما أنت من فارسٍ * موطّأٍ البيت رحيب الذّراع

قوّال معروفٍ وفعّاله * عقّار مثنى أمّهات الرّباع

لا تخرج الأضياف من بيته * إلاّ وهم منه رواءٌ شباع

من يك لا ساء فقد ساءني * ترك أبينيك إلى غير راع

وحدثنا بعض جلساء القحذمي، وذكر امرأة من الأعراب، فقال: كان لها أربعة بنين، وكان يمر بها إخوة أربعة غادون

لشأنهم، وكانت تأنس بهم لمشاكلتهم بنيها في العدد والأسنان، ثم أصيب بنوها جميعاً إما بطاعون أو ما يشبهه فاجتنبها الإخوة الأربعة إبقاءً عليها من الحزن إذا رأتهم، ثم عزموا عزمةً على المرور بها مرحاً وبغياً. فلما رأتهم ذرفت عيناها وتمثلت: الكامل لن يلبث القرناء أن يتفرّقوا * ليلٌ يكرّ عليهم ونهار

فاعتل أحدهم فمات، فغبر الثلاثة لا يقربونها، ثم فعلوا فلما رأتهم تمثلت:

السريع كلّ بني أمٍّ وإن أكثرت * يوماً يصيرون إلى واحد

فلم يلبث واحد منهم أن مات. وغبر الاثنان لا يقربانها، ثم احتازا بها على نحو ما فعلوا من المرح والدالة، فلما رأتهما قالت:

الوافر وكلّ أخٍ مفارقه أخوه * لعمر أبيك إلاّ الفرقدان

فمات أحدهما فاجتنبها الباقي دهراً. ثم مر بها فتمثلت:

السريع والواحد الفرد كمن قد مضى * ليس بمتروكٍ ولا خالد

فقال: أقيليني جعلني الله فداك، فإني والله غير عائد.

قال أبو العباس: وهذان بيتان قديمان لا يعرف قائلهما. ويروى أن أبا بكر الصديق رحمه الله كان ينشدهما، فبعض الناس يقول: هما له:

مجزوء الكامل تنفكّ تسمع ما حيي * ت بهالكٍ حتّى تكونه

والمرء قد يرجو الرّجا * ء مغيّباً والموت دونه

وقال وضاح اليمن:

المنسرح يا موت ما إن تزال معترضاً * لآملٍ دون منتهى الأمل

لو كان من فرّ منك منفلتاً * إذن لأوشكت رحلة الجمل

وقال معن بن أوس المزني:

الطويل ألم تعلمي عمراً وسفيان بعده * وضمرة أمسى فاتني ومسافع

أولئك لا أنتنّ كانوا فوارسي * بهم كنت أستخشي العدا وأدافع

فأصبحت أرقي الشّامتين رقاهم * ليربو طفلٌ أو ليجبر ظالع

وصانعت في أشياء لو أنّهم معي * لباعدت حتّى تستقيد التّوابع

قال: وحدثني الرياشي في إسناد قال: أنشد عروة بن الزبير قوله بهم كنت أستخشي العدا وأدافع، فقال عروة: فهلاً قال: فبالله، أستخشي العدا وأدافع ولا ينكسر عليه شعره قال الرياشي: وأنشد عبد الله بن عمر قول حسان بن ثابت:

المنسرح يأبى لي السّيف واللّسان وقو * مٌ لم يضاموا كلبدة الأسد

فقال: هلا قال: يأبى لي الله. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال محمد بن حرب الهلالي: أتى حيان بن سلمى العامري قبر عامر بن الطفيل ولم يكن شهده فقال: أنعم صباحاً أبا علي، والله لقد كنت سريعاً إلى المولى بوعدك، بطيئاً عنه بإيعادك، ولقد كنت أهدى من من النجم، وأجرأ من السيل. ثم التفت إليهم فقال: كان ينبغي أن يصيروا قبر أبي علي ميلاً في ميل.

وقال محمد بن علي المنسوب إلى أمه الحنفية: أيها الناس، إنكم في هذه الدار أغراض تنتضل فيكم المنايا، لن يستقبل أحد منكم يوماً جديداً من عمره إلا بآخر من أجله،

فأيـة أكلـة ليـس معهـا غصـص، أم أيـة شـربة ليـس معهـا شرق؟ فاستصلحوا ما تقدمون عليه بما تظعنون عنه، فإن اليوم غنيمة، وغداً لا يدرى لمن هو. أهل الدنيا أهـل سـفر، يحلون عقد رحالهم في غيرها. قد خلـت مـن قبلنـا أصـول نحن فروعها. فما بقاء الفرع بعد أصله؟ أيـن الـذين كـانوا أطول منا أعماراً وأبعـد منـا آمـالاً؟ أتـاك يـا بـن آدم مـا لا ترده، وذهب عنك ما لا يعود إليك. فلا تعدن عيشاً منصرفاً عيشاً مالك منه إلا لذة تزدلف بـك إلـى حمامـك، وتقربـك من أجلـك، فكأنـك قـد صـرت الحـبيب المفقـود والسـواد المخترم. فعليك بـذات نفسـك، ودع مـا سـواها، واسـتغن بالله يغنك.

ومما يستحسن من قول متمم بن نويرة الدال على صـحة عقله وتمكن الحزن من قلبه، وقلة نسيانه أخاه، أنه كان لا يمر بقبر، ولا يذكر المـوت بحضـرته إلا قـال: يـا مالـك ثـم فاضت عبرته، ففي ذلك يقول:

الطويل وقالوا أتبكي كلّ قبرٍ رأيته * لقبرٍ ثوى بين اللّوى والدّكادك

فقلت لهم إنّ الأسى يبعث البكا * ذروني فهذا كلّه قبر مالك

ومن هـذه المختصـرات قـول هشـام بـن عقبـة، أخـي ذي الرمة، وكان له إخوة جماعة فمات أكبرهم، وكان يقال له: أوفى ثم مات ذو الرمة، وكان يقال له: غيلان فقال هشام:

الطويل تسلّيت عن أوفى بغيلان بعده * عزاءً وجفن العين بالماء مترع

ولم تنسني أوفى المصيبات بعده * ولكنّ نكء القرح بالقرح أوجع

فاختصر هذا اختصاراً يوفر على كل واحد منهما نصيبه من الحزن.

ويروى من غير وجه أن حسان بن ثابت دخل علـى النابغـة الذبياني فتلقته الخنساء خارجةً من عنده، فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

الكامل أولاد جفنة حول قبر أبيهم * قبر ابن مارية الكريم المفضل

يغشون حتّى ما تهرّ كلابهم * لا يسألون عن السّواد المقبل

فقال: إنك لشاعر وإن أخت بني سليم لبكاءة.

قال أبو العباس: فمما قدمناه من شعرها واستحسناه مـن تخلصها قولها:

المتقارب أعينيّ جودا ولا تجمدا * ألا تبكيان لصخر النّدى?

ألا تبكيان الجريء الجميل * ألا تبكيان الفتى السّيّدا?

فجعلته ساد حدثاً ووكدت ذلك وزادت فيـه وأوضـحته بـأن قالت:

طويل العماد عظيم الرّما * د ساد عشيرته أمردا

إذا القوم مدّوا بأيديهم * إلى المجد مدّ إليه يدا

فنال الّذي فوق أيديهم * من المجد ثمّ نما مصعدا

يكلّفه القوم ما عالهم * وإن كان أصغرهم مولدا

ترى المجد يهوي إلى بيته * يرى أفضل الزّاد أن يحمدا

فقرنت له المجد بالحمد.

ويقال: بل صح أنه كان من دعاء سعد بن عبادة وهـو سـيد الخزرج: اللهم ارزقني مجداً وحمداً فإنه لا مجـد إلا بمـال، ولا حمد إلا بفعال.

وكان سبب ميتة أخيها صخر أنه شهد حرباً فأبلى فيها وتقدم، فحمل عليه رجل من القوم فطعنه في خاصرته، فتحامل في الجراحة فجوي منها ولم يفصد فخرج منها كمثل اليد، وأضنته حولاً أو حولين لا ينبعث، فسمع من يسأل امرأته عن علته، وأين بلغت منه، فقالت امرأته قولاً يدل على البرم به، والملل لصحبته: لا حي يرجي، ولا ميت فيحتسب.

والتفت إلى أمه فإذا دموعها تجري فقال:

الطويل أرى أمّ صخر ما تجفّ دموعها * وملّت سليمى مضجعي ومكاني

وما كنت أخشى أن أكون جنازةً * عليك، ومن يغترّ بالحدثان

فأيّ أمريءٍ ساوى بأمٍّ حليلةً * فلا عاش إلاّ في شقاً وهوان

لعمري لقد نبّهت من كان نائماً * وأسمعت من كانت له أذنان

أهمّ بأمر الحزم لو أستطيعه * وقد حيل بين العير والنّزوان

فلما رأى ذلك برم بتلك الخراجة من جنبه، فأشاروا بقطعها ففعل، فلما قطعها يئس من نفسه، ففي ذلك يقول:

الطويل أجارتنا إنّ المنون قريب * من النّاس كلّ المخطئين تصيب

كأنّي وقد أدنوا إليّ شفارهم * من البزل أحوى الصّفحتين نكيب

أجارتنا لا تسأليني فإنني * مقيمٌ لعمري ما أقام عسيب

قال أبو عبيدة: وعسيب: جبل معروف، فقبره هناك معروف المكان.

قوله من البزل: يعني: كأني بعير قرم من الإبل قد كوي لداء به، فيقول: أحللت ذاك المحل لقطع ذلك اللحم وكيه، وجعله أحوى الصفحتين، وهما الجنبان، لتتابع الهناء عليه ضناً به والنكيب والأنكب واحد، وهو الحامل، وذلك مما يوصف به الفحل أنه يحمل نشاطاً وتكبراً.

وكانت الخنساء تقول الأبيات اليسيرة، فلما أصيبت بأخيها صخر جدت وأجادت، وجمعت نفسها وشهرت. فمما يستحسن من شعرها قولها في قصيدة أولها:

البسيط يا عين جودي بدمعٍ منك تغزار * وأبكي لصخرٍ بدمعٍ منك مدرار

وقولها إنّي أرقت فبتّ اللّيل ساهرةً * كأنّما كحلت عيني بعوّار

والعوار والعائر سواء، وهو المستأخذ، أشد الرمد وأغلبه، كما قال القائل: البسيط بأعينٍ لم يصبها عائر الرّمد

وكما قال الراعي: البسيط غضّاً كما نظر المستأخذ الرّمد

أرعى النّجوم وما كلّفت رعيتها * وتارةً أتغشّى فضل أطمار

إنّي سمعت فلم أبهج به خبراً * مخبّراً جاء ينثو جمع أخبار

قالوا:

ابن أمّك أمسى في الضّريح وقد * شدّوا عليه بأعوادٍ وأحجار

اذهب فلا يبعدنك الله من رجلٍ * ترّاك ضيمٍ وطلاّبٍ بأوتار

قد كنت تحمل قلباً غير مؤتشبٍ * مركّباً في نصابٍ غير خوّار

الخوار: الضعيف.

وحدثني رجل من بني هاشم عن سعيد بـن سـلم البـاهلي. قال: كنت مع أميـر المـؤمنين هـارون الرشـيد فـي سـفر، فسأل عما حمل معه من الثلج، فاستقل ما ذكر له فاغتاظ واحتد، فتركته حتى سكن غربه ثم قلت: يا أمير المؤمنين، إني أقول كلاماً والله ما أريد به ملقاً ولا تنبيهاً على نفسي لأني فطنت إلى ما لم يفطن إليه من سواي، وما أقـوله إلا بالنصيحة المحضة. فقال: هات. فقلت: يا أمير المـؤمنين، إنك قسمت الدهر شطرين، شطراً للحج، وشطراً للغـزو؛ والمسافر يرد على ضروب من المياه، وسـفرك أكـثر مـن حضرك، فلو أن أمير المؤمنين عود نفسه الخشـونة شـيئاً فمتى احتاج إليهـا لـم تنكرهـا النفـس لتلـك العـادة. قـال: فأطرق ثم قال: يا سعيد، بنصح قلت: ولكنا نلبس العافيــة ما لبستنا، فإن اضطررنا رجعنا إلى أصل غير خوار.

رجع الشعر مثل السّنان كضوء البدر صورته * جلد المريرة حرٌّ وابن أحرار

فسوف أبكيك ما ناحت مطوّقةٌ * وما أضاءت نجوم اللّيل للسّاري

ولن أسالم قوماً كنت حربهم * حتّى تعود بياضاً حلكة القار

أبلغ خفافاً وعوفاً غير تقصرةٍ * عميد قومٍ نداءً غير أسرار

والحرب قد سعرت حرباً مذكّرةً * شهباء تفري بأنيابٍ وأظفار

شدّوا المآزر حتّى تستقيد لكم * وشمّروا إنّها أيّام تشمار

وابكوا فتى الحيّ لاقته منيّته * وكلّ نفسٍ إلى وقتٍ ومقدار

كأنّهم يوم راموه بجمعهم * راموا الشّكيمة من ذي لبدةٍ ضار

والشـكيمة: شـدة النفـس وصـحة العزيمـة. والشـكيمة. الحديدة المعترضة في اللجام.

حتّى تفرّجت الآلاف عن رجلٍ * مجدّلٍ خرّ كرهاً غير مختار

تجيش منه فويق الثّدي مزبدةٌ * بعاندٍ من نجيع الجوف ثوّار

لو منكم كان فينا لم ينل أبداً * حتّى تلاقوا أموراً ذات آثار

أعني الّذين إليهم كان منزله * هل تعرفون ذمام الضّيف والجار?

تعاقب خفاف بن ندبة وعوفاً لأنهمـا هربـاً عنـه وهمـا مـن المعدودين من الفرسان. وكان خفاف من فرسان العـرب وأدرك الإسلام فأسلم.

لا صلح حتّى تكرّوا الخيل عابسةً * تعدو وترمي بمهراتٍ وأمهار

فتغسلوا عنكم عاراً تجلّلكم * غسل الجواري حيضاً عند أطهار

قال: هذا مثل وقالت أيضاً ترثي صخراً:

المتقارب ألا ما لعينك أم مالها * لقد أخضل الدّمع سربالها

فأقسمت آسى على هالكٍ * وأسأل نائحةً ما لها

أبعد ابن عمرو بن آل الشري * د حلّت به الأرض أثقالها

معنى حلـت بـه الأرض أثقالهـا: مـن الحليـة: أي زينـت بـه أثقالها، تعني الموتى. قال الله عز وجل: وأخرجـت الأرض أثقالها قالوا: يعني الموتى.

لعمر أبيه لنعم الفتى * تحشّ به الحرب أجذالها

أي توقـد بـه الحـرب أجـذالها. والجـذل: أصـل الشـجرة. فضربته مثلاً لشدة الاتقاد، وأنه صاحب ذلك.

حديد السّنان ذليق اللّسان * يجاري المقاريض أمثالها

وخيلٍ تكدّس مشي الوعو * ل نازلت بالسيف أبطالها

بمعتركٍ بينهم ضيّقٍ * مجرّ المنيّة أذيالها

تقابلها فإذا أدبرت * بللت من الطّعن أكفالها

الأكفال: واحدها كفل وهو الردف من الرجل والمرأة.

تهين النّفوس وهون النّفوس * غداة الكريهة أوفى لها

يروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قـال: رب منية سببها طلب الحياة، وحياة سببها التعرض للموت.

ورجراجةٍ فوقها بيضها * عليها المضاعف زفنا لها

تعني بقولها: زفنا لها أي جئنا نمشي إليها هوناً.

ككرفئة الغيث ذات الصّبير * ترمي السّحاب ويرمى لها

الكرفئة واحدة الكرافيء وهو تكاثف الغيم واسوداده.

قال: وحدثنا المازني بإسناد آخره رؤبـة بـن العجـاج قـال: خرجت مع أبي، نريد الوليد بن عبد الملك، فأهدي لنا جنب من لحم عليه كرافيء الشـحم ووطـب مـن لبـن، فطبخنـا هذا بهذا، فما زالت ذفرياي تنتحان منه حتى رجعنـا. وإنمـا شبهه لكـثرة الشـحم وركـوب بعضـه علـى بعـض بكرفئـة الغيم.

وداهيةٍ جرّها جارمٌ * تبيل الخواصر أحبالها

كفيت ابن عمروٍ لم تستعن * ولو كان غيرك أدنى لها

وعيرانةٍ كأتان الثّمي * ل غادرت بالخلّ أوصالها

قولها: وعيرانة تعني: ناقةً تشبه بالحمار الوحشـي. وأتـان الثميل: صخرة تكون في الحوض معروفة. والثميـل: بقيـة الماء. فتقول هـي صـلبة كصـلابة هـذه الصـخرة. والخـل: الطريق في الرمل. فتقول: غادرتها هناك لشدة السير.

إلى ملكٍ لا إلى سوقةٍ * وذلك ما كان إكلالها

ومحصنةٍ من بنات الملو * ك قعقعت بالرّمح خلخالها

وقافيةٍ مثل حدّ السّنا * ن تبقى ويهلك من قالها

نطقت ابن عمروٍ فسهّلتها * ولم ينطق النّاس أمثالها

فإن تك مرّة أودت به * فقد كان يكثر تقتالها

فزال الكواكب من فقده * وجلّلت الشّمس أجلالها

هممت بنفسي كلّ الهموم * فأولى لنفسي أولى لها

لأحمل نفسي على آلةٍ * فإمّا عليها وإمّا لها

ومما يؤثر ويقتفى من قولها: البسيط

أقذىً بعينك أم بالعين عوّار * أم أوحشت أن خلت من أهلها الدّار

وينشد بعضهم: قذىً بعينك، وهو أقوم للبيت، وزيادة الألف في قولها: أقذىً? أبلغ. ولا ضرورة فيه ولكنه مخزوم.

تبكي لصخرٍ هي العبرى وقد ثكلت * ودونه من جديد التّرب أستار

لا بدّ من ميتةٍ في صرفها غيرٌ * والدّهر في صرفه حولٌ وأطوار

يا صخر ورّاد ماءٍ قد تناذره * أهل المياه فما في ورده عار

وهذا بيت يسأل عنه كيف تناذره أهل الميـاه ولا عـار فيـه. فالمعنى أنها تعني الموت.

مشي السّبنتى إلى هيجاء معضلةٍ * له سلاحان: أنيابٌ وأظفار

يقال لكل جريء الصدر: سبندى وسبنتى بالتاء والدال، والأغلب عليه النمر.

عبل الذّراعين قد تخشى بوادره * عند الوقيعة للأقران هصّار

فما عجولٌ على بوٍّ تطيف به * لها حنينان: إعلانٌ وإسرار

ترتع ما غفلت حتّى إذا ادّكرت * فإنّما هي إقبالٌ وإدبار

يوماً بأوجد منّي حين فارقني * صخرٌ وللدّهر إحلاءٌ وإمرار

وإنّ صخراً لوالينا وسيّدنا * وإنّ صخراً إذا نشتو لنحّار

وإنّ صخراً لتأتمّ الهداة به * كأنّه علمٌ في رأسه نار

العلم ها هنا: الجبل، وكذلك قال المفسرون في قول الله جل وعز: وله الجواري المنشآت في البحر كالأعلام. ومنه قول جرير: الرجز إذا قطعن علماً بدا علم

طلق اليدين بفعل الخير ذو فخرٍ * ضخم الدّسيعة في اللّأواء صبّار

مثل الرّدينيّ لم تنفد شبيبته * كأنّ تحت طيّ اليرد أسوار

ليبكه مقترٌ أفنى حلوبته * دهرٌ وحالفه بؤسٌ وإقتار

ورفقةٌ حار هاديهم بمهلكةٍ * كأنّ ظلمتها في الطّخية القار

لم تره جارةٌ يمشي بساحتها * لريبةٍ حين يخلي بيته الجار

فقولها: كأنه علم في رأسه نار أحد ما قدمت به.

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أما رضيت أن تجعليه علماً حتى جعلت في رأسه ناراً. ذاك رسول صلى الله عليه وسلم، يريد: البيان والدلالة.

وقال عمر في قول الخطيئة:

الطويل متى تأته تعشو إلى ضوء ناره * تجد خير نارٍ عندها خير موقد

كذب الخطيئة. تلك نـار موسـى صـلى اللـه عليـه وسـلم. وهذا من نوادر الشعر.

وقالت أيضاً:

الوافر كأنّ العين خالطها قذاها * بعوّارٍ فما تقضي كراها

على صخرٍ وأيّ فتىً كصخرٍ * إذا ما النّاب لم ترأم طلاها

قولها إذا ما الناب لم ترأم طلاها: الطلا: الصغير مــن أولاد الوحش والنعم، ويقال ذلك في الآدميين، وإنما تريـد زمـن الصر والبرد.

حلفت بربّ صهبٍ معملاتٍ * إلى البيت المحرّم منتهاها

لئن جزعت بنو عمروٍ عليه * لقد رزئت بنو عمروٍ فتاها

فتى الفتيان ما يعلى مداه * ولا يكدي إذا بلغت كداها

يقال: أكدى، إذا أقل، وأصل ذلك في البئر تحفر، فـإذا بلـغ منها إلى حجر أو كدن استصعب علـى الحـافر. وقيـل: قـد بلغت كديتها وجمعها كدى فلا يخرج من التراب إلا اليسـير، فلذلك قيل للذي يعطي قليلاً: أكدى. ق ال اللـه جـل وعـز: وأعطى قليلاً وأكدى. فقالت: إذا بلغ الجهد من الناس لــم يكن عطاؤه قليلاً ولا نزراً.

له كفٌّ يشيد بها وكفٌّ * تحلّب ما يجفّ ثرى نداها

فمن للضّيف إن هبّت شمالٌ * مزعزعةٌ يجاوبها صباها

وألجأ بردها الأشوال حدباً * إلى الحجرات بارزةً كلاها

يقول: لا شحم عليها.

هنالك لو نزلت بآل صخرٍ * قرى الأضياف شحماً من ذراها

هذا على مخاطبتين. قالت: هنالك لو نزلت للـذي تخـاطبه ثم خبرته فقالت: قرى الأضياف فتأويل هذا على ضــربين، أحدهما علـى حـذف المفعـول كأنهـا قـالت: لـو نزلـت بـه لرأيته يقري الأضياف، ويكون على أنها جعلته وغيره علــى مخاطبتين، تتحول من إحداهما إلى الأخرى كقول الله عــز وجل: حتى إذا كنتم فـي الفلـك وجريـن بهـم بريـح طيبـة، وكقول عنترة: الكامل

شطّت مزار العاشقين فأصبحت * عسراً عليّ طلابك ابنة مخرم

ومثل هذا كثير جداً.

أمطعمكم وحاملكم تركتم * لدى غبراء منهدمٍ رجاها

ترى الشّمط الجحاجح من سليمٍ * تبلّ ذرى مدامعها لحاها

ليبك الخير صخراً من معدٍّ * ذوو أحلامها وذوو نهاها

وخيلٍ قد لفقت بجمع خيلٍ * فدارت بين كبشيها رحاها

محافظةً ومحميةً إذا ما * نبا بالقوم من جزعٍ لظاها

وقالت:

الوافر ألا يا عين فانهملي بغزر * وفيضي عبرةً من غير نزر

ولا تعزي عزاءً بعد صخر * فقد غلب العزاء وعيل صبري

لمرزئةٍ كأنّ الجوف منها * بعيد النّوم يسعر حرّ جمر

على صخرٍ وأيّ فتىً كصخر * لعانٍ عائلٍ علقٍ بوتر

وللأضياف إن طرقوا هدوّاً * وللكلّ المبرّ وكلّ سفر

إذا نزلت بهم سنةٌ جمادٌ * أتى بالدّرّ لم يكسع بغبر

كان من شـأنهم، إذا أجـدبت السـنة أو خـافوا الجـدب، أن تنضـح الضـروع بالمـاء البـارد ليبقـى اللبـن فيهـا ادخـاراً واستعداداً وبخلاً من بعضـهم. فلـذلك يقـول الحـارث ابـن حلزة:

السريع لا تكسع الشّول بأغبارها * إنّك لا تدري من النّاتج

الغبر: بقية اللبن، وغابر كل شيء: باقيه. ويقول: لا تبخـل فتحبس لبنك، فإنك لا تدري لمن يكون ذلك اللبـن، ألـك أم لوارثك أم لمغير عليك.

واصبب لأضيافك ألبانها * فإنّ شرّ اللّبن الوالج

وكل مردود مكسوع.

هنالك كان غيث حياً وعزّاً * لمن أرسى إليه غير وعر

وأحيا من مخبّأةٍ كعابٍ * وأشجع من أبي شبلٍ هزبر

هريت الشّدق رئبالٍ إذا ما * غدا لم تنه غدوته بزجر

تدين الخادرات له إذا ما * سمعن زئيره في كلّ فجر

غياثٌ إن تأوّبه غريبٌ * لعسرٍ في الحوادث أو ليسر

إذا ما الوفد حلّ إلى ذراه * تلقّاهم بوجهٍ غير بسر

تفرّج بالنّدى الأبواب عنه * ولا يكتنّ دونهم بستر

دهتني الحادثات به فأضحت * عليّ همومه تغدو وتسري

وقالت أيضاً:

البسيط يا عين مالك لا تذرين تسكابا * إذ راب دهرٌ وكان الدّهر ريّابا

فابكي أخاك لأيتامٍ وأرملةٍ * وابكي أخاك إذا جاورت أجنابا

وابكي أخاك لخيلٍ كالقطا قطفٍ * فقدن لمّا ثوى سبياً وإنهابا

يعدو به سابحٌ نهدٌ مراكله * مجلببٌ من سواد اللّيل جلبابا

حتّى يصبّح قوماً في ديارهم * فيسلبوا دون صفّ الموت أسلابا

هو الفتى الكامل الحامي حقيقته * مأوى الغريب إذا ما جاء منتابا

يهدي الرّعيل إذا جار السّبيل بهم * نهد التّليل لزرق السّمر ركّابا

المجد خلّته والجود علّته * والصّدق حوزته إن قرنه هابا

ركّاب مفظعةٍ، حمّال مضلعةٍ * إن خاف معضلةً سنّى لها بابا

شهّاد أنديةٍ، هبّاط أوديةٍ * حمّال ألويةٍ للوتر طلاّبا

سمّ العداة وفكّاك العناة إذا * كان الوغى لم يكن للموت هيّابا

قال أبو العباس: والجود علته أي أن الناس إذا سئلوا اعتلوا في الجود بالعلل، فجعلته هو علته الجود، كما قال الله جل وعز: النار وعدها الله الذين كفروا معناه: الوعد النار.

وقالت أيضاً ترثي أخاها معاوية بن عمرو:

الوافر هريقي من دموعك واستفيقي * وصبراً إن أطقت ولن تطيقي

وقولي إنّ خير بني سليمٍ * وفارسهم بصحراء العقيق

ألا هل ترجعنّ لنا اللّيالي * وأيّامٌ لنا بلوى الشّقيق

وإذ فينا معاوية بن عمروٍ * على أدماء كالجمل الفنيق

فبكّيه فقد ولّى حميداً * أصيل الرّأي محمود الصّديق

فلا والله لا تسلاك نفسي * لفاحشةٍ أتيت ولا عقوق

ولكنّي رأيت الصّبر خيراً * من النّعلين والرّأس الحليق

وكـانوا فـي الجاهليـة إذا بـالغوا فـي الجـزع حلـق النسـاء رؤوسهن، ولطمن خدودهن بالنعال.

وقال عبد مناف بن ربيع الهذلي يذكر أختيه:

البسيط إذا تأوّب نوحٌ قامتا معه * ضرباً أليماً بسبت يلعج الجلدا

ألا يا لهف نفسي بعد عيشٍ * تولّى بعده عيشٌ أنيق

وإذ يتحاكم الحكّام فينا * إلى أبياتنا وذوو الحقوق

وإذ فينا فوارس كلّ هيجٍ * إذا فزعوا وفتيان الخروق

الخروق جمع خرق، وهو المتسـع مـن الأرض، وذلـك قـول رؤبة ابن العجاج: الرجز وقاتم الأعماق خاوي المخترق

أي المتسع. وقال بعض المفسرين في قول الله جل وعز: إنك لن تخرق الأرض قال: تبلغ قطريهـا. والقـول الفاشـي إنما هو تنقبها بأجمعها إلى حيث بلغت.

إذا ما الحرب صلصل ناجذاها * وفاجأها الكماة لدى المضيق

وكان من خبر مقتل معاوية بـن عمـرو، وكـان أخـا خنسـاء لأبيها وأمها، وكان صخراً أخاها لأبيها وكـانت بصـخر أمـس لفضله على معاوية، ولم يكن معاوية متخلفاً بل كان لاحقاً في السؤدد بأخيه، أو دوبيه شيئاً. قال أبو عبيدة معمـر بـن المثنى: حدثني أبو بلال وربما قال: أبو بلال سهم بـن أبـي بن العباس بن مـرداس قـال: غـزا معاويـة بـن عمـرو بـن الشريد، أخو خنساء، مرة وفزارة، ومعـه خفـاف بـن ندبـة فاعتوره هاشم ودريد المريان، ابنـا حرملـة، فاسـتطرد لـه أحدهما ثم وقف، وشد عليه الآخر فقتله. فلما تنادوا: قتـل معاوية! قال خفاف: قتلني الله إن رمت حتى أثأر به فشد على مالك بن حمار، سيد بني شمخ بن فزارة فقتله وقال:

الطويل فإن تك خيلي قد أصيب صميمها * فعمداً على عيني تيمّمت مالكا
وقفت له علوى وقد خام صحبتي * لأبني مجداً أو لأثأر هالكا

علوى: اسم فرسه.

أقول له والرّمح يأطر متنه * تأمّل خفافاً إنّني أنا ذالكا

فلما بلغ صخراً قتل أخيه، أتى مرة في الشهر الحرام فوقف على ابني حرملة، فإذا أحدهما به طعنة في عضده، فقال: أيكما قتل معاوية؟ فسكتا، فقال الصحيح للجريح: مالك لا تجيبه؟ فقال: وقفت له فطعنني هذه الطعنة، وشد عليه أخي فقتله، فأينا قتلت فقد أدركت بثأرك، أما إنا لم نسلب أخاك. قال: فما فعلت فرسه السماء؟ قال: ها هي تيك، ردوها عليه، فردوها. فلما أتى صخر قومه قالوا: اهجهم. قال: ما بيننا أجل من القذع، لو لم أكف عن هجائهم إلا رغبةً بنفسي عن الخنا لكففت. وقال:

الطويل وعاذلةٍ هبّت بليلٍ تلومني * ألا لا تلوميني كفى اللّوم ما بيا

تقول:

ألا تهجو فوارس هاشمٍ * ومالي إذ أهجوهم ثمّ ماليا
أبى الشتم أنّي قد أصابوا كريمتي * وأن ليس إهداء الخنا من شماليا
إذا ذكر الإخوان رقرقت عبرةً * وحيّيت رمساً عند ليّة ثاويا
إذا ما امرؤٌ أهدى لميتٍ تحيّةً * فحيّاك ربّ النّاس عنّي معاويا

وهوّن وجدي أنّني لم أقل له * كذبت، ولم أبخل عليه بماليا

ثم زاد عليها بيتاً بعدما أوقع بهم فقال:

وذي إخوةٍ قطّعت أرحام بينهم * كما تركوني واحداً لا أخا ليا

ثم غزاهم في العام المقبل فلما دنا وعلا السماء قال: إني أخاف إذا طلعت أن يعرفوا طلعة السماء، فحمم غرتها، فلما أشرف على أداني القوم قالت امرأة لابنها: هذه، والله، السماء. فنظر إليها فقال: السماء غراء، وهذه بهيم، فلم يشعروا إلا والخيل دوائس، وقتل صخر دريداً وأصابوا في مرة، فقال:

الكامل ولقد قتلتكم ثناء وموحداً * وتركت مرّة مثل أمس المدبر

ولقد دفعت إلى دريدٍ طعنةً * نجلاء تزغل مثل غطّ المنخر

قوله: تزغل أي تفيض بسجال الدم. قال ابن أحمر يعني القطاة إذا مجت الماء في حوصلة فرخها:

السريع فأزغلت في جيده زغلةً * لم تخطيء الجيد ولم تشفتر

والإيزاغ مثل الإزغال.

وأما هاشم بن حرملة فإنه خرج غازياً، فلما كان في بلاد جشم بن بكر ابن هوازن، نزل فأخذ صفنته ويقال صفنه وخلا لحاجته بين الشجر ورأى غفلته قيس ابن الأسوار الجشمي فتبعه وقال: هذا قاتل معاوية، لا وألت إن وأل. فلما قعد لحاجته تستر له بين الشجر حتى إذا كان خلفه أرسل عليه معبلةً ففلق قحقحه، وهو العصعص الذي عليه عجب الذنب، فقالت الخنساء:

الوافر فدىً للفارس الجشميّ نفسي * وأفديه بمن لي من حميم

فداك الحيّ حيّ بني سليمٍ * بظاعنهم وبالأنس المقيم

كما من هاشمٍ أقررت عيني * وكانت لا تنام ولا تنيم

وكان هاشم من أشد العرب، وله يقال: مشطور الرجز
أحيا أباه هاشم بن حرمله * يوم الملوك حوله مغربله

يقتل ذا الذّنب ومن لا ذنب له

فقالت الخنساء ترثيه وأخاها صخراً:

الوافر بكت عيني وعاودت السّهودا * وبتّ اللّيل جانحةً عميدا

لذكرى معشرٍ ولّوا وخلّوا * علينا من خلافتهم فقودا

فكم من فارسٍ لك أمّ عمروٍ * يحوط سنانه الأنس الحريدا

الحريد:

البعيد كصخرٍ أو معاوية بن عمروٍ * إذا كانت وجوه القوم سودا

يردّ الخيل داميةً كلاها * جديرٌ يوم هيجا أن يصيدا

يكبّون العشار لمن أتاهم * إذا لم تصمت الأمّ الوليدا

فتابع بينهم وردٌ فأضحوا * مع الهلاّك قد لحقوا ثمودا

وقالت أيضاً ترثي صخراً:

الطويل ألهفي على صخرٍ لكلّ عظيمةٍ * إذا الخيل من طول القياد اقشعرّت

إذا الخيل شكّت في السّريح وطابقت * طباق الكلاب في الهراش وصرّت

يقال: شك الفرس والبعير وغير ذلك من الظهر إذا ظلعت ظلعاً خفيفاً كما قال ذو الرمة:

البسيط..... * كأنّه مستبان الشّك أو جنب

وإنما هذا من الخيلاء في هذا الموضع. وطابقت أي وقعت أرجلها مكان أيديها وصرت آذانها.

وخيلٍ تنادى لا هوادة بينها * مررت بها دون السّوام ومرّت

كأنّ مدلاًّ من أسود تبالةٍ * يكون لها حيث أستدارت وكرّت

شددت عصاب الحرب إذ هي مانعٌ * فألقت برجليها مريّاً ودرّت

وكان أبو حسّان صخرٌ يصدّها * ويرغثها بالرّمح حتّى أقرّت

وكانت إذا ما حالبٌ يستدرّها * تقته بإيزاغٍ دماً واقمطرّت

اقمطرت: معناه اشتدت وقالت أيضاً ترثيه:

الطويل أمن حدث الأيّام عينك تهمل * تبكّي على صخرٍ وفي الدّهر مذهل

ألا من لعينٍ لا تجفّ دموعها * إذا قيل تفنى تستهلّ فتحفل

على ماجدٍ ضخم الدّسيعة سيّدٍ * له سورةٌ في قومه ما تحوّل

قال: السورة ها هنا: الدرجة من الملك والقدرة العالية، من ذلك قول النابغة:

الطويل ألم تر أنّ الله أعطاك سورةً * ترى كلّ ملكٍ دونها يتذبذب

ويقول الرجل: سرت، فمعناه: ارتفعت وعلوت. قال العجاج:

الرجز يا ربّ ذي سرادقٍ محجور * سرت إليه من أعالي السّور

وقال الأخطل يصف خمراً خرجت حين فتح مبزلها:

البسيط لمّا أتوها بمصباحٍ ومبزلهم * سارت إليه سؤور الأبجَل الضّاري

فما بلغت كفّ امريءٍ متناولٍ * من المجد إلاّ حيث ما نلت أطول

وما بلغ المهدون في القول مدحةً * وإن كثرت إلاّ الّذي فيك أفضل

وما الغيث في جعد الثّرى دمث الرّبى * تبعّق فيه الوابل المتهلّل

بأجزل سيباً من نداك ونعمةً * تعمّ بها بل سيب كفّك أجزل

وجارك محفوظٌ منيعٌ بنجوةٍ * من الذلّ لا يؤذى ولا يتذلّل

من القوم مغشيّ الرّواق كأنّه * إذا خاف صبحاً خادرٌ متبسّل

شرنبث أطراف البنان ضبارمٌ * له في عرين الغاب عرسٌ وأشبل

هزبرٌ هريت الشّدق رئبال غابةٍ * مخوف اللّقاء كاليء العين أنجل

أخو الجود معروفٌ له الجود والنّدى * حليفان ما قامت تعارٌ ويذبل

باب وصايا

قال أبو العباس: ونذكر وصايا يؤثر بعضها عـن أهـل الـدين وبعضها عن أهل الآداب والطبائع المحمودة. وقد تجتر إلى أنفسها غير ذلك من سائر الوصايا. ثـم نعـود إن شـاء اللـه تعالى إلـى التعـازي بـالمنثور والموصـوف. وبـالله الحـول والقوة، ونشوبه بشيء من الاعتبار:

وصية أبي بكر الصديق

رحمه الله

قال فطر بـن خليفـة عـن عبـد الرحمـن بـن سـابط قـال: أوصى أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب رحمـه اللـه حيـن استخلفه فقال: إني مسـتخلفك، وأوصـيك بتقـوى اللـه يـا عمر، إن لله عملاً بالليل لا يقبلـه بالنهـار، وعملاً بالنهـار لا يقبله بالليل. واعلم أنه لا تقبل نافلة حـتى تـؤدى الفريضـة وأنه إنما ثقلـت مـوازين مـن ثقلـت مـوازينه يـوم القيامـة باتباعهم الحـق. ويحـق لميـزان لا يوضـع فيـه إلا الحـق أن يكون ثقيلاً. وإنما خفـت مـوازين مـن خفـت مـوازينه يـوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا. ويحق لميزان لا يوضـع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً.

إن الله جل ذكره ذكر أهل الجنة بحسن أعمـالهم، وتجـاوز عن سيئاتهم، فإذا ذكرتهم فقل إنـي لأخـاف ألا أكـون مـن هؤلاء. وذكر أهل النار بسوء أعمـالهم، فـإذا ذكرتهـم فقـل إني لأرجو ألا أكون من هـؤلاء. وذكـر آيـة الرحمـة مـع آيـة العذاب ليكون العبد راغباً راهباً لا يتمنـى علـى علـى اللـه غير الحق، ولا يلقي بيده إلى التهلكة. فإن حفظت وصيتي فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت ولست بمعجزه.

وصية عمر بن الخطاب

رحمه الله

قال فطر بن خليفة وغيره: دعا عمـر بـن الخطـاب رضـي الله عنه عند موته عبد الله بن عمر فقال: أي بني: إذا قام الخليفـة بعـدي فـائته فقـل إن عمـر يقـرأ عليـك السـلام ويوصيك بتقـوى اللـه لا شـريك لـه، ويوصـيك بالمهـاجرين الأولين خيراً: أن تعرف لهـم سـابقتهم. ويوصـيك بالأنصـار خيـراً: أن تقبـل مـن محسـنهم وتتجـاوز عـن مسـيئهم. ويوصـيك بأهـل الأمصـار خيـراً، فـإنهم غيـظ العـدو وجبـاة الفيء، لا تحمل فيئهم إلا عن فضل منهم. ويوصـيك بأهـل البادية خيراً، فإنهم أصل العـرب ومـادة الإسـلام: أن تأخـذ من حواشي أموالهم فترد علـى فقرائهـم. ويوصـيك بأهـل الذمة خيراً: أن تقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا فوق طاقتهم.

وصية علي بن أبي طالب

رحمه الله

قال لوط بن يحيى: حدثني عبد الرحمن بن جندب عن أبيه قال: دخلت على علي بن أبي طالب أسأل عنه حين ضربه ابن ملجم لعنه اللـه. فقمـت ولـم أجلـس لمكـان ابنـة لـه دخلت عليه وهي مستترة، فدعا الحسن والحسين رحمهما الله فقال: إني أوصيكما بتقـوى اللـه، ولا تبغيـا الـدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء منها زوي عنكمـا. قـولا الحـق، وارحما اليتيم، وأعينا الضالع، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً، ولا تأخذ كما في الله لومة لائم.

ثم نظر إلى ابن الحنفية فقال لـه: فهمـت مـا أوصـيت بـه أخويك؟ قال: نعم. قال: أوصـيك بمثلـه، وأوصـيك بتـوقير أخويك، وتزيين أمرهمـا، ولا تقطـع أمـراً دونهمـا ثـم قـال: وأوصيكما به فإنه شقيقكما، وابن أبيكمـا، وقـد علمتمـا أن أباه كان يحبه فأحباه.

وصية معاوية بن أبي سفيان

رحمه الله

قال عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب: لما ثقل معاوية، بعث إلى يزيد وهو في ضياعه، فأتـاه غلام لـه يقـال لـه عجلان، فأخبره بثقل أبيه، فأقبل وقد قال في ذلك شعراً:

البسيط جاء البريد بقرطاسٍ يخبّ به * فأوجس القلب من قرطاسه جزعا

قلنا:

لك الويل ماذا في صحيفتكم * قال: الخليفة أمسى مثبتاً وجعا

فمادت الأرض أو كادت تميد بنا * كأنّ أغبر من أركانها انصدعا

ثمّت ملنا إلى عيسٍ مزمّمةٍ * نغشى الفجاج بها لا نأتلي سرعا

لسنا نبالي إذا بلّغن أرحلنا * ما مات منهنّ بالبيداء أو ظلعا

حتّى دفعنا لرأس النّاس كلّهم * هدياً، وخيرهم فعلاً ومصطنعا

من لم تزل نفسه توفي على شرفٍ * توشك مقادير تلك النّفس أن تقعا

لمّا انتهينا وباب الدّار منصفقٌ * لصوت رملة ريع القلب فانقلعا

قال: فلما دخل على معاوية خلا به وأخـرج عنـه أهـل بيتـه وقال: يا بني قد جاء أمر الله، وهـذا أوان هلاكـي، مـا أنـت صانع بهـذه الأمـة بعـدي؟ فمـن أجلـك آثـرت الـدنيا علـى الآخرة، وحملت الوزر على ظهري لتعلـو بنـي أبيـك. قـال

يزيد: آخذهم بكتاب الله وسنة رسوله وأقتلهم عليه. قال: أولا تسير بسيرة أبي بكر الذي قاتل أهل الردة ومضى والأمة عنه راضون?. قال: لا، إلا بكتاب الله وسنة نبيه، آخذهم به وأقتلهم عليه. قال: أولا تسير بسيرة عمر الذي مصر الأمصار وجند الأجناد، وفرض الأعطية، وجبى الفيء وقاتل العدو، ومضى والأمة عنه راضون?. قال: لا، إلا بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام، آخذهم به وأقتلهم عليه. قال: أولا تسير بسيرة عمك عثمان بن عفان الذي أكل في حياته، وورث في مماته، واحتمل الوزر على ظهره?. ق ال: لا، إلا بكتاب الله وسنة نبيه، آخذهم به واقتلهم عليه. قال: يا يزيد، انقطع منك الرجاء وأظنك ستخالف هؤلاء جميعاً فتقتل خيار قومك وتغزو حرم ربك بأشابات الناس فتطعمهم لحومهم بغير الحق فتدركك ميتة فجاءة، فلا دنيا أصبت، ولا آخرة أدركت. يا يزيد أما إذا لم تصب الرشد فإني قد وطأت لك الأمور، وذللت لك أهل العز، وأخضعت لك رقاب العرب، وكفيتك الرحلة والترحال، وجمعت لك ما لم يجمعه واحد، وإني لست أخاف أن ينازعك في هذا الأمر إلا ثلاثة نفر: الحسين ابن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير. فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة وتخلى من الدنيا وشغل نفسه بالقرآن. وما أظنه يقاتل عليها إلا أن تأتيه عفواً. وأما الذي يجثم جثوم الأسد ويروغ روغان الثعلب، فإن أمكنته الفرصة وثب فابن الزبير، فإن هو فعل فاستمكنت منه فقطعه إرباً إرباً إلا أن يلتمس منك صلحاً، فإن فعل فاقبل منه واحقن دماء قومه تقبل قلوبهم إليك. وأما الحسين بن علي فإن له رحماً وحقاً وولادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أظنه أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه عليك، فإن قدرت عليه فاصفح عنه.

فإني لو كنت صاحبه صفحت وعفوت عنه قم عني. وصلى عليه عمرو بن العاص.

وصية أبي عبيدة بن الجراح

تحدث لوط بن يحيى أبو مخنف قال: لما طعن أبو عبيدة بن الجراح بالأردن وبها قبره دعا من حضره من المسلمين فقال: إني أوصيكم بوصية إن قبلتموها لم تزالوا بخير: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وصوموا شهر رمضان، وتصدقوا وحجوا واعتمروا، وتواصلوا، وانصحوا لأمرائكم ولا تغشوهم، ولا تلهكم الدنيا، فإن امرءاً لو عمر ألف حول ما كان له بد من أن يصير إلى مثل مصرعي هذا الذي ترون. إن الله كتب الموت على بني آدم، فهم ميتون، وأكيسهم أطوعهم لربه، وأعملهم ليوم ميعاده. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. يا معاذ بن جبل، صل بالناس.

ومات رحمه الله، فقام معاذ بن جبل إلى الناس فقال: يا أيها الناس، توبوا إلى الله من ذنوبكم توبة نصوحا، فإن عبداً لا يلقى الله تائباً من ذنبه إلا كان حقاً على الله أن يغفر له. من كان عليه دين فليقضه، فإن العبد مرتهن بدينه، ومن أصبح منكم مهاجراً أخاه فليلقه فليصالحه، ولا ينبغي أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث، والذنب في ذلك عظيم. إنكم، أيها المسلمون، قد فجعتم برجل ما أزعم أني رأيت عبداً أبر صدراً، ولا أبعد من الغائلة وأشد حباً للعافية، ولا أنصح للعامة منه. فترحموا عليه رحمه الله، ثم احضروا للصلاة عليه.

قال: ولما احتضر معاذ بن جبل قال لوط بن يحيى: حدثنا الصعب ابن زهير عن شهر بن حوشب قال: أتى آت معاذ بن جبل عند موته فقال: يا معاذ، أوصني بما ينفعني قبل

أن تفارقني، فلعلي أحتاج إلى سؤال الناس بعدك، فلا أجد فيهم مثلك. قال معاذ: بلى، صلحاء الناس بحمد الله كثير، ولن يضيع الله أهل هذا الدين. خذ عني ما آمـرك بـه: كـن من الصائمين بالنهار، والمستغفرين بالأسـحار، والـذاكرين الله على كل حال، ولا تشرب الخمر، ولا تعقق والديك، ولا تأكل مال اليتيم، ولا تفـر مـن الزحـف، ولا تأكـل الربـا، ولا تدع الصلاة المكتوبة، وصـل رحمـك للـه، وكـن بـالمؤمنين رؤوفاً رحيماً. وأنا لك بالجنة زعيم. ثـم مـات رحمـه اللـه. فصلى عليه عمرو بن العاص.

وصية عبد الملك بن مروان

رحمه الله

وأوصى عبد الملك بن مروان حيـن حضـرته الوفـاة فقـال لبنيه: أوصيكم بتقوى الله، فإنها عصمة باقية وجنـة واقيـة. والتقوى خير زاد، وأفضل في المعاد، وأحصن كهف، وأزين حلية. ليعطف الكبير منكم على الصـغير وليعـرف الصـغير منكم حق الكبير مع سلامة الصدور والأخذ بجميـل الأمـور. فإنكم إذا فعلتم ذلك كنتم للعـز خلقـاء، وهـابتكم الأعـداء. إياكم والتباغي والتحاسد فإن بهما هلك الملوك الماضـون، وذوو العز المتكـبرون. انظـروا يـا بنـي، مسـلمة بـن عبـد الملك فاصدروا عن رأيه، فـإنه نـابكم الـذي تفـترون عنـه، ومجنكم الذي تستجنون به. وأكرمـوا الحجـاج، فـإنه الـذي وطأ لكم المنابر، وكفاكم قحم تلك القنـاطر. كونـوا أولاداً أبراراً، وفي الحرب أحراراً، وللمعروف مناراً، واحلولوا في مرارة، ولينوا في شدة. ثم رفع رأسه إلى الوليد فقـال: لا ألفينك يا وليد، إذا وضعتني في حفرتي تعصـر عينيـك كمـا تفعل الأمة، بل شمر واتزر، والبس جلد نمـر، وادع النـاس

إلى البيعة، فمن قال برأسه هكذا فقل بالسيف هكذا. أوصيك بأخيك عبد الله بن عبد الملك وبعمر بن عبد العزيز خيراً. لا تعزلهما ولا تستبدل بهما. وأوصيك بابن عمنا هذا خيراً يعني علي بن عبد الله بن العباس. فأما الحجاج فلست تستغني عنه.

ثم أرسل إلى خالد وعبد الله، ابني يزيد بن معاوية. فلما جلسا قال: ما تقولان: أأقيلكما بيعة الوليد؟ قالا: معاذ الله يا أمير المؤمنين. قال: لو قلتما غير ذلك لقتلتكما على حالي هذه. قوما. فقاما فخرجا. ثم دعا بقداح بعدة ولده فأمر بها فجمعت ثم دفعها إلى الوليد فقال: اكسرها. فلم يقدر على ذلك. ثم دفعت إلى آخر، ثم آخر، حتى استقراهم جميعاً، فأعياهم كسرها، فأمر بها ففرقت، ثم دفع إلى كل واحد منهم قدحاً وأمره بكسره ففعل، فقال: هكذا أنتم بعدي، إن اجتمعتم لم يكسر أحد، وإن تفرقتم كسرتم. وقال: احفظوا عني هذه الأبيات:

الكامل انفوا الضّغائن عنكم وعليكم * عند المغيب وفي الحضور الشّهّد

بصلاح ذات البين طول بقائكم * إن مدّ في عمري وإن لم يمدد

فلمثل ريب الدّهر ألّف بينكم * بتواصلٍ وتراحمٍ وتودّد

حتّى تلين قلوبكم وجلودكم * لمسوّدٍ منكم وغير مسوّد

إنّ القداح إذا أجتمعن فرامها * بالكسر ذو حنقٍ وكسرٍ أيّد

عزّت فلم تكسر وإن هي بدّدت * فالوهن والتّكسير للمتبدّد

فلما توفي سجاه الوليد، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: لم أر مثلها مصيبةً ولا مثلها نعمة. فقد الخليفة، فإنا لله وإنا

إليــه راجعــون، علــى عظــم المصــيبة. والحمــد للــه رب العالمين، على عظيم النعمـة. ثـم دعـا النـاس إلـى بيعـة، فبايع الناس ولم يتخلف أحد. فسمع أحـد ولـد عبـد الملـك يبكي ويقول: مات، والله، أمير المؤمنين. فقـال: ويلـك لا تقل هكذا، ولكن قل كما قال أخو بني أسيد أوس بن حجر:

الطويل إذا مقرمٌ منّا ذرا حدّ نابه * تخمّط فينا ناب آخر مقرم

وأوصى أبو قيس بن صرمة الأنصاري ولده عند موته فقال: الخفيف يا بنيّ، الأرحام لا تقطعوها * وصلوها قصيرةً من طوال

واتّقوا الله في ضعاف اليتامى * ربّما يستحلّ غير الحلال

اعلموا أنّ لليتيم وليّاً * عالماً يهتدي بغير السّؤال

يا بنيّ، الأيّام لا تأمنوها * واحذروا مكرها وكرّ اللّيالي

واعلموا أنّ مرها لنفاد ال * خلق ما كان من جديدٍ وبال

واجمعوا أمركم على البرّ والتق * وى وترك الخنا وأخذ الحلال

وأنبأنا أبو عبد الرحمن قال: أنبأنا أبو يعقـوب الثقفـي عـن عبد الملك بن عمير اللخمي قال: جاء أبو جهم بـن حذيفـة العدوي، وهو يومئذ ابن مئـة سـنة، إلـى مجلـس لقريـش، فأوسعوا له عن صدر المجلس وقائل يقول: بل كان عروة بن الزبير مكان أبي جهـم فقـال. يـا بنـي أخـي، أنتـم خيـر لكـبيركم مـن مهـرة لكـبيرهم. قـالوا: ومـا شـأن مهـرة وكبيرهم؟ قال: كان الرجل منهم إذا كبر وضعف أتـاه ابنـه أو وليه فعقله بعقال ثم قـال: قـم. فـ إن اسـتتم قائمـاً وإلا حمله إلى محبس لهم يجرى على أحدهم فيـه رزقـه حـتى يموت. قال: فجاء شاب منهم إلى أبيـه ففعـل ذلـك، فلـم

يستتم قائماً، فحمله فقال: أي بني إلى أين؟ قال: إلى سنة آبائك، فقال: أي بني لا تفعل، فوالله لقد كنت أوعدك فلا أحقك، وأماشيك فما أبذك وأسقيك الدأداة قال: وكانت العرب تقول: إذا سقي الغلام اللبن وهو قائم كان أسرع لشبابه فقال الفتى: لا جرم، والله، لا يذهب بك، فاتخذتها مهرة سنة.

وأخبر عبد الرحمن بن إسرائيل عن أشياخه قال: لما حضرت الوفاة سعيد ابن العاصي قال: يا بني، أيكم يكفل عني ديني؟ قال عمرو بن سعيد: علي دينك يا أبه. كم هو؟ قال: ثمانون ألف دينار. قال: وفيم استدنتها؟ قال: في كريم سددت خلله، أو لئيم اشتريت عرضي منه، ثم قال سعيد: هذه خصلة وبقيت خصلتان. قال: ما هما يا أبه؟ قال: يا بني لا تزوجن بناتي إلا من الأكفاء ولو بفلق خبز الشعير. قال: أفعل. قال: يا بني، ذهبت خصلتان وبقيت خصلة. قال: وما هي يا أبه؟ قال: يا بني، إن فقد إخواني وجهي فلا يفقدوا معروفي. قال: أفعل يا أبه. قال: يا بني ما زلت أعرف الكرم في حماليق عينيك وأنت يحرك بك في مهدك حتى بلغت ما أرى. يا بني، ما شاتمت رجلاً مذ كنت رجلاً، ولا زاحمت ركبتاي ركبته ولا كلفت من يرتجيني أن يسألني فيبذل وجهه ويرشح جبينه رشح السقاء، إذن، والله، فما وصلته. يا بني، أخزى الله المعروف إذا لم يكن ابتداءً عن غير مسألة. فأما إذا أتاك تكاد ترى دمه في وجهه مخاطراً، لا يدري أتعطيه أم تمنعه، فوالله لو خرجت له من جميع ما تملكه ما كافأته، ولا الذي بات يتململ على فراشه يعقب بين شفتيه أيجدني موضعاً لحاجته أم لا، لهو أعظم علي منةً مني عليه، إذا قضيتها له وفي هذا الحديث بغير هذا الإسناد، ولكن عن الزبير بن أبي بكر قال: كانت علته التي مات فيها في ضيعة له بقرب المدينة، فلما اشتدت علته قال لابنه عمرو: يا بني، قد ترى ما نزل بي،

فقال له عمرو: يا أبه، لو حملت إلى المدينة. فقال: يا بني، إن الحركة تتعبني، وإن أهلي لا يبخلون علي بحملي على رقابهم ساعةً. يا بني، إن ضيعتي هذه متريف وليست بمال غلة، فإذا أنا مت ففرغت من دفني، فوجه مطيتك نحو معاوية فانعني له، فإنه سيسألك عن ديني ويتضمنه، فأعلمه أني قد علمت ذلك وجزه خيراً. ثم قل له: يا أمير المؤمنين، إن له ضيعةً أمر ببيعها للقضاء دينه، فإنه سيشتريها منك، فاسأله أن يكتب لك بمالها إلى المدينة فاقم بها ديني وعداتي. فلما دفن كانت مطايا عمرو موقوفةً فعزي عنه، وركب يريد معاوية من ساعته حتى ورد عليه فنعاه له فتفجع وقال: ما خلف من الدين فهو علي. فقال: يا أمير المؤمنين، قد علم ذاك فوصلتك رحم، ولكنه أمرني ببيع ضيعة له وهي الفلانية. قال: قد اشتريتها بدينه، وكتب له بالمال إلى المدينة، فجاءه صعلوك من صعاليك قريش بصك على أبيه بعشرين ألف درهم، فيه شهادة مولىً له، فقال له: يا هذا، إني أعرف الخط وإني أنكر أن يكون لمثلك مثل هذا المال عليه، فدعا مولاه فقال له: أتعرف هذا؟ فشهد به؛ فقال له: ما سببه؟ فقال: إن أباك في وقت عزله وكان معاوية يوليه المدينة سنةً ويولي مروان ابن الحكم سنةً رآه وحده وقد ركب لبعض حاجاته، فسار معه حتى بلغها ورجع. فلما انتهى قال له: يا فتى، ألك حاجة؟ فقال: لا، ولكني رأيتك مفرداً فأحببت أن أصل جناحك، فالتمس مالاً يهبه له فلم يحضره فقال لي: عجل علي بصحيفة، فكتب له بهذا ديناً عليه حالاً. فقال عمرو: إذن والله لا يأخذها إلا معجلةً منتقدةً.

قال ابن دأب: لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة قيل له: يا أمير المؤمنين، اكتب إلى يزيد بن عبد الملك فأوصه

بالأمة خيراً فقال: ويـم أوصـيه? إنـي لأعلـم أنـه مـن بنـي مروان. ثـم أمـر بالكتـاب إليـه: أمـا بعـد. فـاتق، يـا يزيـد، الصرعة بعد الغفلة فلا تقال العثرة، ولا تقدر على الرجعة. تترك ما تترك لمن لا يحمدك، وتقـدم علـى مـن لا يعـذرك والسلام.

ويـروى أن هشـام بـن عبـد الملـك لمـا احتضـر نظـر إلـى حشمه ولحمته يبكون، ففتح عينيه فاطلع في وجوههم ثــم قال: جاد عليكم هشام بالدنيا، وجدتم عليه بالبكـاء، وتـرك لكم ما خلف وتركتم عليه ما اكتسب! ما أسوأ حال هشـام إن لم يغفر الله له! ولما احتضـر معاويـة أقبـل علـى ابنـة قرظة فقال: بكيني، فقالت:

الهزج ألا أبكيه ألا أبكيه * ألا كلّ الفتى فيه

ثم قال لابنـتيه: قلبـاني. فجعلتـا تقلبـانه لجنـب بعـد جنـب فقال: إنكما لتقلبانه حولاً قلباً إن وفي كبة النار. ثم أنشد:

الكامل لا يبعدنّ ربيعة بن مكدّمٍ * وسقى الغوادي قبره بذنوبٍ

ثم قال ليزيد: إذا أنا قضيت فأحسـن غسـلي، واجعـل فـي آخره مسكاً وكافوراً، وأحسن الصلاة علي ثـم ادفنـي فـي لحدي ودعني وربي. فلما بلغ ابن عباس موته قال:

الكامل جبلٌ تصدّع ثمّ مال بجمعه * في البحر لا رتقت عليه الأبحر

وصية الربيع بن خثيم

وروى إسرائيل عن يونس بن أبـي إسـحاق السـبيعي عـن سعيد بن مسروق الثوري عن منذر بن يعلى الثـوري قـال: أوصى الربيع بن خثيم: هذا ما أوصى الربيع بن خثيم: شهد أن لا إلــه إلا اللــه وكفــى بــالله شــهيداً، وجازيــاً لعبــاده

الصالحين ومثيباً. إنـي رضـيت بـالله ربـاً، وبالإسـلام دينـاً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً، وبالقرآن إمامـاً. وإنـي أوصي نفسي ومـن أطـاعني أن يعبـد اللـه فـي العابـدين، ويحمده في الحامدين، وينصح لجماعة المسلمين.

وصية جندب بن عبد الله البجلي

وروى شعبة بن الحجاج عن يـونس بـن جـبير قـال: شـيعنا جندب ابـن عبـد اللـه، فقلنـا لـه: أوصـنا. فقـال: أوصـيكم بتقوى الله وبالقرآن فإنه نور الليل المظلم، وهدي النهـار، فاعلموا واعملوا به علـى مـا كـان مـن جهـد وفاقـة. فـإن عظم بلاء فقدم مالك دون نفسك، فـإن جـاوز البلاء فقـدم مالك ونفسك دون دينك. واعلـم أن المحـروب مـن حـرب دينه، والمسلوب من سـلب دينـه، واعلـم أنـه لا غنـى بعـد النـار، ولا فقـر بعـد الجنـة، وأن النـار لا يفـك أسـيرها، ولا يستغني فقيرها.

ولما حضرت الوفاة عمر بن هبيرة جزع وجعل يقـول: للـه در البغلات المسرجات الواقفات بأبواب السـلطان. واللـه لوددت أني كنت راعي إبل مئة لرجل سيء الملكة.

ولما احتضر إبراهيم بن يزيـد النخعـي جـزع جزعـاً شـديداً وجعل يقول: نفسي أعز الأنفـس علـي. فقيـل لـه: يـا أبـا عمران، أتجزع هذا الجـزع مـن المـوت؟ فقـال: وأي غـرر أعظم مما أنا فيه، إنما أتوقع رسولاً من ربي إما بجنة وإما بنار.

ويروى أن فتىً من الأعراب حضرته الوفاة، فنظر إلى أبيه وأمه يبكيان حواليه بكاءً ذريعاً، فقـال: مـا يبكيكمـا؟ فقـالا له: إنا لنعلم أن للموت ما تلـد الوالـدة، ولكـن لزهـو كـان فيك. فقال: آللـه، مـا يبكيكمـا إلا ذاك! فحلفـا علـى ذلـك

فقال: فوالله الذي لا إله إلا هو ما يسرني أن إليكما من أمري ما إلى ربي.
ويروى أن رجلاً من أبناء فارس احتضر فجزع فقيل له: ما بك؟ فقال: ما ظنكم بمن يقطع سفراً بعيداً بلا زاد، ويقدم على حكم عادل بلا حجة، ويسكن قبراً موحشاً بلا مؤنس؟.

وصية المهلب بن أبي صفرة الأزدي

ولما احتضر المهلب بن أبي صفرة أوصى بنيه فقال: أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم، فإن تقوى الله تعقب الجنة، وإن صلة الرحم تنسىء في الأجل، وتثري المال، وتجمع الشمل وتكثر العدد، وتعمر الديار، وتعز الجانب. وأنهاكم عن معصية الله، فإنها تعقب النار، وإن قطيعة الرحم تورث القلة والذلة، وتفرق الجمع، وتذر الديار بلقعاً وتذهب المال، وتطمع العدو، وتبدي العورة. يا بني، قومكم قومكم! إنه ليس لكم عليهم فضل بل هم أفضل منكم إذ فضلوكم وسودوكم ووطؤوا أعقابكم، وبلغوا حاجاتكم لما أردتم، وأعانوكم، فلهم بذلك حق عليكم، وبلاء عندكم لا تؤدون شكره ولا تقومون بحقه. فإن طلبوا فأطلبوهم، وإن سألوا فأعطوهم، وإن لم يسألوا فابتدئوهم، وإن شتموا فاحتملوهم، وإن غشوا أبوابكم فلتفتح لهم ولا تغلق دونهم. يا بني، إني أحب الرجل منكم أن يكون لفعله الفضل على لسانه، وأكره للرجل منكم أن يكون للسانه الفضل على فعله. يا بني، اتقوا الجواب وزلة اللسان، فإني وجدت الرجل تعثر قدمه فيقوم من زلته وينتعش منها، ويزل لسانه فيوبقه، وتكون فيه هلكته. يا بني، إذا غدا عليكم رجل أو راح فكفى بذلكم مسألةً

وتذكرةً بنفسه. يا بني، ثيابكم على غيركم أحسن منها عليكم، ودوابكم تحت غيركم أحسن منها تحتكم. يا بني، أحبوا المعروف، واكرهوا المنكر واجتنبوه، وآثروا الجود على البخل، واصطنعوا العرب وأكرموهم، فإن العربي تعده العدة فيموت دونك ويشكر لك، فكيف بالصنيعة إذا وصلت إليه، في احتماله لها، وشكره والوفاء لصاحبها. يا بني، سودوا كباركم واعرفوا فضل ذوي أسنانكم تعظموا به، وارحموا صغيركم وقربوه وألطفوه واجبروا يتيمكم وعودوا عليه بما قدرتم، وخذوا على يدي سفهائكم، وتعاهدوا فقراءكم وجيرانكم بما قدرتم عليه، واصبروا للحقوق ونوائب الدهر. وعليكم في الحرب بالأناة، والتؤدة في اللقاء. وعليكم بالتماس الخديعة، في الحرب، لعدوكم، وإياكم والنزق والعجلة، فإن المكيدة والأناة والخديعة في الحرب أنفع من الشجاعة. واعلموا أن القتال والمكيدة مع الصبر، فإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن ظفر امرؤ وقد أخذ بالحزم قال القائل: قد أتى الأمر من وجهه، وإن لم يظفر قال: ما ضيع ولا فرط ولكن القضاء غالب. والزموا الحزم على أي الحالتين وقع الأمر، والزموا الطاعة والجماعة، وإياكم والخلاف. تواصلوا وتآزروا وتعاطفوا، فإن ذلك يثبت المودة. وخذوا فيما أوصيكم به بالجد والقوة والقيام به تظفروا بدنياكم ما كنتم فيها، وبآخرتكم إذا صرتم إليها ولا قوة إلا بالله. وليكن أول ما تبدؤون به إذا أصبحتم تعليم القرآن والسنن والفرائض، وتأدبوا بآداب الصالحين من قبلكم من سلفكم، ولا تقاعدوا أهل الدعارة والريبة، ولا يطمع في ذلك منكم طامع. وإياكم والخفة في مجالسكم وكثرة الكلام، فإنه لا يسلم منه صاحبه، وأدوا حق الله عليكم، فإني قد أبلغت إليكم في وصيتي، واتخذت لله الحجة عليكم..

وتوفي بمرو الروذ وولي خراسان أربع سنين. فقال نهار بن توسعة:

الطويل ألا ذهب الغزو المقرّب للغنى * ومات النّدى والحزم بعد المهلّب

أقاما بمرو الرّوذ رهن ترابه * وقد غيّبا عن كلّ شرقٍ ومغرب

قال: ثم ولي بعد المهلب قتيبة بن مسلم فدخل عليه نهار بن توسعة وهو يعطي الناس، فلما رآه عرفه وقال: أنت القائل في المهلب ما قلت؟ قال: بل أنا الذي أقول:

الطويل وما كان مذ كنّا ولا كان قبلنا * ولا هو فينا كائن كابن مسلم

أعمّ لأهل الشّرك قتلاً بسيفه * وأقسم فينا مغنماً بعد مغنم

قال: إن شئت فأقلل، وإن شئت فأكثر، لا تصيب مني خيراً. يا غلام، حلق على اسمه فلزم بيته حتى ولي يزيد بن المهلب خراسان، فأتاه فدخل عليه وهو يقول:

الطويل فإن يك ذنبي يا قتيبة أنّني * بكيت أمرءاً قد كان في الجود أوحدا

أبا كلّ مظلومٍ ومن لا أبا له * وغيث مغيباتٍ أطلن التّلدّدا

فشأنك إنّ الله إن سؤت محسنٌ * إليّ فقد أبقى يزيد ومخلدا

فقال له: احتكم، فقال: مئة ألف.

ويقال: إن مخلد بن يزيد هو الذي أعطاه، لأن أباه كان قدمه خليفةً على خراسان. فكان يقول بعد موت مخلد: رحم الله مخلداً، ما ترك لي بعده من قول.

وكان يزيد بن المهلب أوصى مخلداً ابنه، لما سار من خراسان إلى جرجان فاستخلفه على خراسان، أن قال له: يا بني، انظر هذا الحي من اليمن فكن فيهم كما قال أبو دؤاد الإيادي:

الطويل إذا كنت مرتاد الرّجال لنفعهم * فرش واصطنع عند الّذين بهم ترمي

وكن لهذا الحي من بكر بن وائل كما قال امرؤ القيس:

السريع يا راكباً قولا لإخواننا * من كان من كندة أو وائل

إنّا وإيّاكم وما بيننا * كموضع الزّور من الكاهل

قال: ونمى إلي عن مسلمة بن علقمة قال: كتب مروان بن محمد إلى ولد المسور يعزيهم عن أبيهم: قد بلغ أمير المؤمنين الذي كان من نازل قضاء الله في المسور بن عمرو، وما اختار الله له من المصير إليه، فعند الله يحتسب أمير المؤمنين مصابه ونعم المتوفي توفاه الله من بينكم. وفي جود الله الخلف الكافي. وقد أعاضكم الله من رزيئتكم رأياً من أمير المؤمنين جميلاً، فيه حسن الخلف عليكم. فلتحسن ظنونكم بربكم وخليفتكم فإن الله لم يقبض ولياً له إلا أحسن خلافته في ولده وأهل لحمته.

وتحدث يعقوب بن داود قال: عزي السائب بن الأقرع عن ابن له، فقال السائب: هكذا الدنيا تصبح لك سارةً، وتمسي عليك متنكرة. ثم تمثل:

الطويل ألا قد أرى أن لا خلود وأنّه * سينعق في داري غرابٌ ويحجل

ويقسم ميراثي رجالٌ أعزّةٌ * وتذهل عنّي الوالدات وتشغل

وتحدث النضر بن إسحاق قال: ماتت امـراة بكـر بـن عبـد الله المزني فاشتد حزنه عليها، فنهاه الحسن فقال: يا أبـا سـعيد، إنهـا كـانت مواتيـة، وكـانت.. وكـانت.. فقـال لـه الحسن: لا تيأس، فعند الله خير منها. فتتزوج أختها بعدها، فمر به الحسن بعد ذلك فقال: يا أبا سعيد، هـذه خيـر مـن أختها.

قال أبو الحسن المدائني عن الحسـن الجفـري قـال: لمـا مات سعيد، أخو الحسن، حـزن عليـه الحسـن وقـال: إنـه لأعز أهلي علي، ولأن يكون لي أحب إلي من أن أكون لـه. فعاتبه بعض إخوانه فقال الحسن: يـا عبـد اللـه، قـد حـزن يعقوب على ابنه يوسف فلم يعنفه الله عز وجل بذلك.

وقال عن كليب بن خلف: قال عبـد الكريـم المـازني لعبـد الله بن عبد الله بن الأهتم: كيـف كـان جزعـك علـى أهـل بيتك؟ فقال: ما ترك حب الغداء والعشاء فـي قلـبي حزنـاً على أحد.

وقال يزيد بن عياض بن جعدبة: كان عبد الله بن الزبير إذا أصابته مصيبة قال: قد قتل أبي وإمامي عثمان بـن عفـان فصبرت.

وقال أبو عبد الرحمن العجلاني: أخبرنا إسماعيل بن يسار قال: مات ابن لأرطاة بن سهية المري، من غطفان، فأقام على قبره حولاً يأتيه كل غداة فيقول: يا عمرو، إن أقمـت حتى أمسي هل أنت رائح معي؟ ويأتيه عند المساء فيقول مثل ذلك، ثم ينصرف. فلما كان في رأس الحول تمثل:

الطويل إلى الحول ثمّ اسم السّلام عليكما * ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

ثم انصرف عنه وهو يقول:

الطويل وقفت على قبر ابن ليلى فلم يكن * وقوفي عليه غير مبكىً ومجزع

هل أنت أبن ليلى إن نظرتك رائحٌ * مع القوم أو غادٍ غداة غدٍ معي?

فلو كان لبّي شاهداً ما أصابني * شهيقٌ على قبرٍ بأحجار أجرع

فما كنت إلاّ والهاً بعد زفرةٍ * على شجوها بعد الحنين المرجّع

متى لا تجده تنصرف لطياتها * من الأرض أو ترجع لإلفٍ فترتع

على الدّهر فاعتب إنّه غير معتبٍ * وفي غير من قد وارت الأرض فاطمع

وقال أبو محمد الكعبي: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين استشهد أخوه زيد بن الخطاب باليمامة وحضره رجل من بني عدي بن كعب، فرجع إلى المدينة، فلما رآه عمر دمعت عينه ثم قال: أخلّفت زيداً ثاوياً وأتيتني

وقال المثنى بن عبد الله بن عوف: كان عمر بن الخطاب رحمه الله إذا أصابته مصيبة قال: قد فقدت زيداً فصبرت. وكان يقول: ما هبت الصبا إلا وجدت نسيم زيد.

وقال أبو الحسن: أخبرني من أثق به عن حكيم من الحكماء قال: مات أخ له فجزع عليه، فقال له قائل من أصحابه: اصنع بنفسك ما يصنعه بك الدهر.

وأخبر عن أبي إبراهيم قال: قال عباد بن مخاشن: استشهد لي ابنان فجزعت عليهما. فقال له رجل: ثم ماذا? قال: كان جرحاً فبرأ.

وتحدث قال: لما مات معاوية دخل على يزيد أشراف أهل الشام، فلم يجتمع لأحد منهم تعزية مع تهنئة إلا عطاء بن أبي صيفي فإنه قال: يا أمير المؤمنين، أصبحت قد رزئت خليفة الله، وأعطيت خلافة الله قضى معاوية نحبه، فغفر الله له ذنبه، وأعطيت بعده الرئاسة، ومنحت السياسة؛ فاحتسب عند الله عظيم الرزية، واشكره على جميل العطية وقال الأصمعي: لما ماتت البانوقة، ابنة المهدي، اشتد جزعه عليها فحجب الناس، فتلطف شبيب بن شيبة فدخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين، والله لله خير لها منك، ولثواب الله خير لك منها. وإن أحق ما صبر عليه ما لم يقدر على دفعه. فكان هذا أول ما تسلى به، وأذن للناس.

وقال جويرية بن أسماء: اشتكى ابن لعبد الله بن عمر بن الخطاب، فجزع عليه. فلما مات لم يظهر منه مثل ما كان يظهر في مرضه. فقيل له في ذلك فقال: كان ذلك مني رحمةً له ورقة، فلما وقع القضاء رضيت وسلمت.

وقال أبو الحسن: أصبح رجل من بني نهشل وقد موتت له عدة أباعر وشاء، فقال: لئن كانت المنية باتت تطيف بي ثم أصبحت، وقد زالت عني إلى شاتي وبعيري، ثم جزعت إني لجزوع ثم قال:

مجزوء الكامل المرء يسعى سادراً * حتّى يقال له تعاله

وتحدث أبو الحسن المدائني، أو غيره، عن أبان بن تغلب النحوي قال: شهدت امرأةً من الأعراب وبين يديها ابن لها رجل وهو يجود بنفسه وعندها جماعة من قومها. فلما قضى وثبت إليه فغمضته وعصبته وترحمت عليه ثم تنحت إلى مجلسها فقالت: يا أبان، ما أحق من ألبس النعمة وأطيلت به النظرة ألا يعجز عن التوثق لنفسه من قبل حل عقدته والحلول بعقوته والحيالة بينه وبين نفسه. قال:

فقال رجل من الأعراب ممن حضرها: إنا لم نزل نسمع أنما الجزع للنساء، فوأبيك لقد كرم صبرك، وما أشبهت للنساء؟! فقالت: ما ميز إنسان بين صبر وجزع إلا وجد بينهما منهجين بعيدي التفاوت في حالتيهما. أما الصبر فحسن العلانية، محمود العاقبة. وأما الجزع فغير معوض عوضاً مع مأثمه ولو كانا رجلين في صورة كان الصبر أولاهما بالغلبة على الحسن في الخلقة والكرم في الطبيعة.

وقال أبان: حدثنا ابن السماك قال: جلسنا ننتظر جنازةً لتخرج إذ مر بنا أعرابي فوقف علينا فسلم ثم قال: إن أعظم المصيبة مصابكم برسول الله صلى الله عليه وسلم، عظم الله أجركم، ورحم ميتكم قال ابن السماك: فما يخيل إلي أني سمعت كلمات أوجز منهن: إنه صدر كلامه برسول الله صلى الله عليه وسلم، وعزانا، وترحم على ميتنا في كلمة واحدة.

وقال أبان: سمعت بعض الأعراب يتلهف على حميم له ثم تنفس الصعداء وقال: أيهات! عتب الناس على الدهر فلم يعتب مستعتباً، ولم يرث لمتلهف عليه، ثم قال: كل امريء منا يجري في السوابق من حتم الله عليه.

وتحدث الحرمازي رحمة الله عليه قال: كان مروان بن عبد الملك، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، من أحب ولد عبد الملك إليه، فتوفي في حياة عبد الملك، وكان أهل العلم بعبد الملك بن مروان يرون أنه لو بقي لثلث به في العهد. فكتب إلى عبد الملك بعض عمومته من بني الحكم وهو غائب يعزيه عنه ويسأله كيف كان صبره. فكتب إليه بعد الملك:

البسيط كتبت تسأل عن صبري لتعلمه * على الرّزيّة بالمأمول مروان

فقد صبرت بعون الله محتسباً * لموعد الله من فوزٍ ورضوان
ولو حزنت ولم أصبر لفرقته * ما كان في فقده منهاة أحزاني

وقال الحرمازي: كان سبب موت مروان بن عبد الملك أنه وقع بينه وبين أخيه سليمان كلام فعجل عليه سليمان فقال له: يا بن ملخن أمه، ففتح فاه ليجيبه وإلى جانبه عمر بن عبد العزيز فأمسك على فيه ورد كلمته وقال له: يا أبا عبد الملك، أخوك إمامك وله السن عليك. فقال: يا أبا حفص قتلتني. قال: وما صنعت بك؟ قال: رددت في جوفي أحر من الجمر. ومال لجنبه فمات. وفيه يقول جرير يخاطب أخاه لأمه، يزيد بن عبد الملك:

الطويل أبا خالدٍ فارقت مروان عن رضىً * وكان يزين الأرض أن تنزلا معا
فسيروا فلا مروان للحيّ إن شكوا * ولا الرّكب إن أمسوا مخفّين جوّعا

قال: وبلغني أن عبد الملك أمرغاسله إذا فرغ من جهازه أن يؤذنه، ففعل، فكشف عن وجهه ثم قال: الحمد لله الذي يقتل أولادنا ونحبه.

قال أبو الحسن: لما حضرت أيوب بن سليمان بن عبد الملك الوفاة وكان ولي عهد أبيه دخل عليه وهو يجود بنفسه، ومعه عمر بن عبد العزيز وسعيد ابن عقبة ورجاء بن حيوة قال: فجعل ينظر في وجهه وهو يفوق بنفسه فخنقته العبرة فردها ثم نظر إلينا فقال: إنه، والله، ما يملك العبد أن يسبق إلى قلبه الوجد عند المصيبة والناس عند ذلك أخياف، فمنهم من يغلب صبره جزعه، فذلك

الجلد الحازم المحتسب، ومنهم من يغلب جزعه صبره، فذلك المغلوب الضعيف العقدة، وليست منكم حشمة، وإني أجد في قلبي لوعةً إن لم أبردها بعبرة خشيت أن تنصدع كبدي كمداً وأسفاً. فقال له عمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، الصبر أولى بك فلا تحبطن أجرك. قال سعيد بن عقبة: فنظر إلي وإلى رجاء بن حيوة نظر مستغيث يرجو أن نساعده على ما أراد من البكاء. فأما أنا فكرهت أن آمره أو أنهاه، وأما رجاء فقال: يا أمير المؤمنين، افعل، فإني لا أرى بأساً ما لم تأت الأمر المفرط. فقد بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هلك إبراهيم اشتد وجده عليه فدمعت عيناه فقال: تدمع العين ويوجع القلب ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا بك لمحزونون يا إبراهيم. قال: وأرسل عينيه فبكى حتى ظننا أن نياط قلبه قد انصدع، فقال عمر: يا رجاء، هذا ما صنعت بأمير المؤمنين! فقال: دعه، يا أبا حفص، يقض من بكائه وطراً، فإنه لو لم يخرج من صدره ما ترى لخفت أن يأتي عليه، ثم رقأت عبرته فدعا بماء فغسل وجهه فأقبل علينا وقد قضى الفتى، فأمر بجهازه وخرج يمشي أمام جنازته، فلما دفن وحثي عليه التراب وقف قليلاً ينظر إلى قبره ثم قال:

الطويل وقفت على قبرٍ مقيم بقفرةٍ * متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مفارق

ثم قال: السلام عليك يا أيوب السريع كنت لنا أنساً فأوحشتنا * فالعيش من بعدك مرّ المذاق

ثم قال: أدن، يا غلام، دابتي، فركب ثم عطف برأس دابته إلى القبر ثم قال:

البسيط فإن صبرت فلم ألفظك من شبعٍ * وإن جزعت فعلقٌ منفسٌ ذهبا

فقال عمر: يا أمير المؤمنين، بل الصبر، فإنه أقرب إلى الله وسيلة وليس الجزع يحيي من مات، وبالله العصمة والتوفيق.

وقال الحسن بن عمارة عن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد عن أبيه عن عائشة قالت: لما مات عبد الله بن أبي بكر وجد عليه أبو بكر وجداً شديداً ثم دخل علي فقال: يا عائشة، والله لكأنما أخذ بأذن شاة من دارنا فأخرجت، فقلت: الحمد لله الذي عزم لك على رشدك، وربط على قلبك. قالت: ثم جاء بعد ذلك فقال: أي بنية، أتخافين أن تكونوا دفنتم عبد الله وهو حي?. فقلت: استعذ بالله يا أبه. فقال: أستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، أي بنية، إنه ليس أحد إلا وله من الشيطان لمة. فرثته عاتكة امرأته، وهي ابنة زيد بن عمرو بن نفيل فقالت:

الطويل فآليت لا تنفكّ عيني سخينةً * عليك وجلدي آخر الدّهر أغبرا

وهذا يتصل بخبر ليس من هذا الباب.

ولما مات عبد الرحمن بن أبي بكر لم تحضره عائشة، فأتت قبره فقالت: يا أخي، لو كنت شهدت وفاتك لم أزر قبرك ثم تمثلت:

الطويل وكنّا كندماني جذيمة حقبةً * من الدّهر حتّى قيل لن نتصدّعا

فلمّا تفرّقنا كأني ومالكاً * لطول اجتماعٍ لم نبت ليلةً معا

وحدثنا ابن عائشة، وحدثنيه غيره وحديثه أتم أن عائشة حضرت أبا بكر رحمة الله عليه وهو يقضي فقالت: هذا والله قوله:

الطويل أماويّ ما يغني الثّراء عن الفتى * إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصّدر

فقال: أي بنية، لا تقولي كذا وقولي: وجاءت سكرة الموت بالحق وهكذا كان يقرؤها أبو بكر رحمه الله.

قال الهلالي: كان أبو بكر الصديق، رحمة الله عليه، إذا قيل له: مات فلان قال: لا إله إلا الله. وكان عثمان، رحمه الله، إذا قيل له: مات فلان قال: لا إله إلا الله وقال الهلالي: قيل لمعاوية: مات زياد، فقال: وارجلاه، ثم قال:

الطويل أفردت سهماً في الكنانة واحداً * سيرمى به أو يكسر السّهم كاسر

وقال: لما هلك ابن معاذ بن جبل، كتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد. فإن أنفسنا وأهلينا وأموالنا ودائع الله جل ذكره وعواريه المستودعة يمتع بها من يشاء إلى أجل معدود، ويقبضها لوقت معلوم، فأمرنا بالشكر إذ أعطانا، وبالصبر إذ ابتلانا، فكان ابنك من مواهب الله الهنية، ومن عواريه المستودعة يمتع بها من يشاء إ لى أجل معدود، ويقبضها لوقت معلوم. وقد متعك الله به، في غبطة وسرور، وقبضه منك بأجر كبير، فالصلاة والرحمة والهدى، يا معاذ إن صبرت واحتسبت. فلا يذهبن جزعك أجرك فتندم على ما فاتك. فإنك لم قدمت على ثواب مصيبتك، قد أرضيت ربك وتنجزت موعوده علمت أن المصيبة قد قصرت عنك. واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً ولا يدفع حزناً. فأحسن العزاء، وتنجز الموعود، وليذهب أسفك ما هو نازل بك فكأن قد.

ولما مات مسمع جاء شبيب بن شيبة حتى أخذ بالباب الذي فيه ولده وأهله وبنو عمه فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثم قال:

الكامل بكّوا حذيفة لن ترثّوا مثله * حتّى تبيد قبائلٌ لم تخلق

قال الأصمعي: مر رجل على بعض مقابر العرب فإذا هو بشيخ قاعد على شفير قبر، وبين يديه فتية كأنهم الرماح يدفنون رجلاً، والشيخ يقول:

الرجز أحثوا على الدّيسم من برد الثّرى * قدماً أبى ربّك إلاّ ما ترى

قال: فسألت الشيخ: من الميت؟ فقال: ابني. فقلت: فمن هؤلاء؟ قال: بنوه.

وقال أبو جعفر الدمشقي: حدثنا أبو بكر السلمي عن المعافى بن عمران عن شهاب بن خراش عن عبد الرحمن بن عثمان قال: دخلنا على معاذ بن جبل وهو قاعد عند رأس ابن له يجود بنفسه، فما ملكنا أنفسنا أن ذرفت أعيننا وانتحب بعضنا فزجره معاذ وقال: مه، فوالله لعلم الله برضاي بهذا أحب إلي من كل غزوة غزوتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإني سمعته يقول: من كان له ابن وكان عليه عزيزاً وبه ضنيناً، فصبر على مصيبته واحتسبه أبدل الله الميت داراً خيراً من داره، وقراراً خيراً من قراره، وأبد المصاب الصلاة والرحمة والمغفرة والرضوان. فما برحنا حتى قضى الغلام حين أخذ المنادي في النداء لصلاة الظهر، فرحنا نريد الصلاة فما جئنا إلا وقد غسله وحنطه وكفنه ودخل بسريره غير منتظر لشهادة الإخوان ولا لجمع الجيران.

قال: فلما بلغنا ذلك تلاحقناه فقلنا: يغفر الله لك يا أبا عبد الرحمن، هلا انتظرتنا حتى نفرغ من صلاتنا ونشهد ابن

أخينا. فقال: أمرنا ألا ننتظر بموتانا ساعةً، ماتوا من ليل أو نهار. والإذن فيهم من نعي الجاهلية. قال: فنزل في القبر ونزل معه آخر فقلت: الثالث يا أبا عبد الرحمن، فقال: إنما يقول الثالث الذين لا يعلمون. فلما سوى عليه التراب أراد الخروج فناولته يدي لأنتشطه من القبر فأبى وقال: ما أدع ذلك لفضل قوة، ولكن أكره أن يرى الجاهل أن ذلك مني جزع أو استرخاء عند المصيبة. ثم أتى مجلسه فدعا بدهن فادهن بكحل فاكتحل وببردة فلبسها، وأكثر في يومه ذلك من التبسم، ينوي به ما ينوي، ثم قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. في الله خلف من كل هالك، وعزاء من كل مصيبة، ودرك لكل ما فات. وقال: سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول: من أصيب بمصيبة فدعا عليها ويلاً غضب الله عليه، ومن لطم عليها وجهاً احتجب الله عنه، ومن خرق عليها ثوباً خرق دينه ومزقه وبدده.

قال: فلما كان طاعون عمواس طعن معاذ في يده، فدخلنا عليه فرأيناه مغمىً عليه، باسطاً يده كأنه يصافح قوماً ويرحب بهم. فلما أفاق قلنا له: يا أبا عبد الرحمن، دخلنا عليك وكأنك تصافح قوماً وترحب بهم. فقال: أجل، شكرني ربي بصبري على ابني فأرسل إلي ملائكة من الكروبيين يشيعوني إلى قبري.

باب مراث من أشعار المحدثين

قال أبو العباس: وقصدنا في وقتنا هذا لذكر مراث من أشعار المحدثين لننزل بها من خشونة أشعار القدماء إلى لطف المولدين لمشاكلة الدهر وملاحة القول لنمضي من ذلك شيئاً ثم نعود إلى أمرنا الأول إن شاء الله تعالى من أشعار قديمة ومواعظ حكيمة. وبالله الحول والقوة.

قال مسلم بن الوليد يرثي الفضل بن سهل ذا الرئاستين:

الطويل وهلت فلم أمتع عليك بعبرةٍ * وأكبرت أن ألقى بيومك ناعيا

فلمّا رأيت أنّه لاعج الأسى * وأن ليس إلاّ الدّمع للحزن شافيا

بعثت لك الأنواح فارتجّ بينها * نوائح يندبن العلى والمساعيا

أللبأس أم للجود أم لمقاومٍ * من الملك يزحمن الجبال الرّواسيا

فلم أر إلاّ قبل يومك ضاحكاً * ولم أر إلاّ بعد يومك باكيا

وقال إبراهيم بن المهدي يرثي ابناً له أصيب به بالبصرة وهو واليها. وكان فيما يؤثر عنه يستحق أن يرثي وأن يوصف، وشعره هذا يستحق أن يبكي القلوب، ويستنزل الدموع لحسن لفظه، وصحة معناه، وشرف قائله، وأنه إذا سمع علم أنه عن نية صادقة. قال:

الطويل نأى آخر الأيّام عنك حبيب * فللعين سحٌّ دائمٌ وغروب

دعته نوىً لا يرتجى أوبةٌ لها * فقلبك مسلوبٌ وأنت كئيب

يؤوب إلى أوطانه كلّ غائبٍ * وأحمد في الغيّاب ليس يؤوب

تبدّل داراً غير داري وجيرةً * سواي وأحداث الزّمان تنوب

أقام بها مستوطناً غير أنّه * على طول أيّام المقام غريب

تولّى وأبقى بيننا طيب ذكره * كباقي ضياء الشّمس حين تغيب

خلا أنّ ذا يفنى ويبلى وذكره * بقلبي على طول الزّمان قشيب
كأن لم يكن كالدّرّ يلمع نوره * بأصدافه لمّا تشنه ثقوب
كأن لم يكن كالغصن في ميعة الضّحى * سقاه النّدى فاهتزّ وهو رطيب
كأن لم يكن زين الفناء ومعقل النّس * اء إذا يومٌ يكون عصيب
وريحان قلبي كان حين أشمّه * ومؤنس قصري كان حين أغيب
قليلاً من الأيّام لم يرو ناظري * بها منه حتّى أعلقته شعوب
كظلّ سحابٍ لم يقم غير ساعةٍ * إلى أن أطاحته فطاح جنوب
أو الشّمس لمّا عن غمامٍ تحسّرت * مساءً وقد ولّت وحانَ غروب
كأنّي به إذ كنت في النّوم حالمٌ * نفى لذّة الأحلام عنه هبوب
فلست خطوب الدّهر أحفل بعده * ولو كان ما منه الوليد يشيب
ولا لي شيءٌ عنه ما عشت لذّةٌ * ولو نلت ما هبّت عليه هبوب
وكان نصيب العين من كلّ لذّةٍ * فأضحى وما للعين منه نصيب
وكان وقد آزى الرجال بعقله * فإن قال قولاً قال وهو مصيب
بما تتهاداه الرّكاب لحسنه * ويفحم منه الكهل وهو أريب

وكانت يدي ملأى به ثمّ أصبحت * بعدل إلهي وهي منه سليب
وكنت به في النّائبات إذا عرت * وظهري ممتدّ القناة صليب
بحال الّذي يجتاحه السّيل بغتةً * فيفتقد الأدنين وهو حريب
جمعت أطبّاء العراق فلم يصب * دواءك منهم في البلاد طبيب
ولم يملك الآسون دفعاً لمهجةٍ * عليها لأشراك المنون رقيب
سأبكيك ما أبقت دموعي والبكا * بعينيّ ماءً يا بنيّ يجيب
وما لاح نجمٌ أو تغنّت حمامةٌ * أو اخضرّ في فرع الأراك قضيب
وأضمر إن أنفدت دمعي لوعةً * عليك لها تحت الضّلوع وجيب
حياتي ما كانت حياتي فإن أمت * ثويت وفي قلبي عليك ندوب
يعزّ عليّ أن تنالك ذرّةٌ * يمسّك منها في الممرّ دبيب
وما زال إشفاقي عليك عشيّةً * حواك بها بعد النّعيم قليب
وما زال إشفاقي عليك عشيةً * وسادك فيها جندلٌ وجبوب
فما لي إلاّ الموت بعدك راحةٌ * وليس لنا في العيش بعدك طيب

قصمت جناحي بعدما هدّ منكبي * أخوك، ورأسي قد علاه مشيب

فأصبحت في الهلاّك إلاّ حشاشةً * تذاب بنار الشّوق فهي تذوب

تولّيتما في حجّةٍ فتركتما * صدىً يتولّى تارةً ويثوب

ولا رزء إلاّ دون رزئك رزؤه * ولو فتّتت حزناً عليك قلوب

وإنّي وإن قدّمت قبلي لعالمٌ * بأني وإن أبطأت منك قريب

وإنّ صباحاً نلتقي في مسائه * صباحٌ إلى قلبي الغداة حبيب

وقال إسماعيل بن القاسم، أبو العتاهية يرثي أخاً له، يقال له علي بن ثابت وكان علي ناسكاً فاضلاً أديباً شاعراً:

الوافر ألا من لي بأنسك أي أخيّا * ومن لي أن أبثّك ما لديّا

طوتك خطوب دهرك بعد نشرٍ * كذاك خطوبه نشراً وطيّا

ولو نشرت قواك لي المنايا * شكوت إليك ما صنعت إليّا

بكيتك أي أخيّ بدرّ عيني * فلم يغن البكاء عليك شيّا

وكانت في حياتك لي عظاتٌ * وأنت اليوم أوعظ منك حيّا

قال: أخذ هذا المعنى مما يؤثر عن بعض ملوك العجم أنه احتضر فحضره من يحضر الملوك من الحكماء حتى قضى. فقال ذلك الحكيم: كان الملك أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس.

وقال أبو العتاهية أيضاً:

الخفيف يا عليّ بن ثابتٍ أين أنتا * أنت بين القبور حيث دفنتا

يا عليّ بن ثابتٍ بان منّي * صاحبٌ جلّ فقده يوم بنتا

قد لعمري حكيت لي غصص المو * ت وحرّكتني لها وسكنتا

أخـذ هـذا المعنـى مـن قـول بعـض الحكمـاء وحضـر ميتـاً، فـارتفع البكـاء عيـه حيـن قضـى، فقـال الحكيـم: حركنـا بسكونه.

وقال فيه أيضاً:

مجزوء الخفيف صاحبٌ كان لي هلك * والسّبيل الّذي سلك

يا عليّ بن ثابتٍ * غفر الله لي ولك

كلّ حيٍّ مملّكٍ * سوف يفنى وما ملك

قال أبو العباس: وأنشدني أبـو محمـد التـوزي لرجـل مـن قيس يرثي ابنه:

الطويل أجارتنا لا تجزعي وأنيبي * أتاني من الموت المطلّ نصيبي

بنيّ على عيني وقلبي مكانه * ثوى بين أحجارٍ وبطن جبوب

عجبت لإسراع المنيّة نحوه * وما كان لو ملّيته بعجيب

وما هدّ ركني أن سلبت جماله * على أنّني أرثي لكلّ سليب

صبرت على خير الفتوّ رزئته * ولولا اتّقاء الله طال نحيبي

وما جزعي من نازلٍ عمّ فجعه * ومن ورد آباري وقصد شعيبي

لعمري لقد دافعت موت محمّدٍ * لو أنّ المنايا ترعوي لطبيب

وكان كريحان العروس بقاؤه * ذوى بعد إشراق الغصون وطيب

فيا حزناً نغّصت قرب محمّدٍ * وأيّ فتى نغّصت يوم ركوبي

أغرّ طويل السّاعدين مشيّعٌ * كسيف المحامي هزّ غير كذوب
دعته المنايا فاستجاب لصوتها * فللّه من داعٍ دعا ومجيب
فأصبحت أبدي للعدوّ جلادةً * ويا لك من قلبٍ هناك كئيب
يذكّرني نوح الحمام فراقه * وإرنان أبكار النّساء وثيب
ولي كلّ يومٍ عبرةٌ لا أفيضها * لأحظى بصبرٍ أو بحطّ ذنوب
أظلّ لأحداث المنون مفزّعاً * كأنّ فؤادي في جناح طلوب
إذا شئت راعتني مقيماً وظاعناً * مصارع شبّانٍ لديّ وشيب
غدا سلفٌ منّا وهجّر رائحٌ * على أثر الغادين قود جنيب
وما نحن إلاّ كالخليط الّذي مضى * فرائس دهرٍ مخطيءٍ ومصيب
نؤمّل عيشاً في حياةٍ ذميمةٍ * أضرّت بأبدانٍ لنا وقلوب
وما خير عيشٍ لا يزال مفزّعاً * بفوت نعيمٍ أو بموت حبيب

قال أبو العباس: حدثنا المغيرة بن محمد المهلبي عن الزبير بن بكار الزبيري عن سليمان بن العباس السعدي قال: جاء عبد الله بن عمر العبلي إلى سويقة وهو طريد بني العباس وكان ذلك بزمان خروج ملك بني أمية وانتقاله إلى بني العباس، قاصداً لعبد الله وحسن، ابني حسن، فاستنشده عبد الله من شعره فأنشدهم فقالوا: نريد من شعرك ما رثيت به قومك، وما كان من أمركم وأمر القوم فأنشدهم قوله:

المتقارب تقول أمامة لمّا رأت * نشوزي عن المنزل المنفس
وقلّة نومي على مضجعي * لدى هجعة الأعين النّعّس:
أبي، ما عراك? فقلت: الهمو * م عرين أباك فلا تبلسي
عرين أباك فحبّسنه * من الطّرد في شرّ ما محبس
لفقد العشيرة إذ نالها * سهامٌ من الحدث الموئس
رمتها المنون بلا نصّلٍ * ولا طائشاتٍ ولا نكّس
بأسهمها الخالسات النّفوس * متى ما تصب مهجةً تخلس
فصرعاهم في نواحي البلا * د ملقىً بأرضٍ ولم يرسس
تقيّ أصيب وأثوابه * من العار والعيب لم تدنس
وآخر قد رسّ في حفرةٍ * وآخر طار فلم يحسس
فكم من كوابٍ بواكي العيو * ن حزناً ومن صبيةٍ بؤّس
إذا ما ذكرنهم لم تنم * صباح الوجوه ولم تجلس
يرجّعن مثل بكاء الحما * م في مأتمٍ قلق المجلس
فذاك الّذي غالني فاصمتي * ولا تسأليني وتستنحسي
وفي ذاك أشياء قد ضفنني * ولست لهنّ بمستحلس
أفاض المدامع قتلى كدىً * وقتلى بكثوة لم ترمس
وبالزّابيين نفوسٌ ثوت * وقتلى بنهر أبي فطرس
أولئك قومٌ أذاعت بهم * حوادث من زمنٍ متعس
فذلّت قناتي لمن رامها * وأنزلت الرّغم بالمعطس

قال: فلما أتى عليها استبكى محمد بن عبد الله بن حسن، فنظر عبد الله إلى أخيه حسن فقال: مالك تنظر إلي! أما والله، لو كان ابنك على غير ما ترى لكان خيراً لنا ولك. فأقبل محمد على عمه بإظهار الشفقة على بن العباس

ويقـول إنهـم ليسـوا كبنـي أميـة لقـرب بنـي العبـاس مـن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقام الحسن إلى منزله فبعـث إلـى العبلـي بخمسـين دينـاراً، وأمـر لـه عبـد اللـه، ومحمد وإبراهيم ابناه، كل واحـد بخمسـين دينـاراً. وكـانت هند بنت أبي عبيدة بن عبد الله بن زمعة مقتفيـة بـالعبلي. وهند المذكورة هـي امـرأة عبـد اللـه بـن حسـن، ومحمـد وإبراهيم ولداها. فقال العبلي:

الوافر أقام ثويّ بنت أبي عبيدٍ * بخير منازل الجيران جارا

أتاهم خائفاً وجلاً طريداً * فصادف خير دور النّاس دارا

إذا ذمّ الجوار نزيل قومٍ * شكرتهم ولم أذمم جوارا

فقالت هنـد لعبـد اللـه وابنيهـا محمـد وإبراهيـم: واللـه مـا مدحكم بأفضـل ممـا مـدحني بـه فلتعطنـه عنـي مثـل مـا أعطاه أحدكم. فأعطوه عنها خمسين ديناراً.

فقال الزبيـر: إنمـا ينسـب عبليـاً مـن كـان مـن ولـد أميـة الأصغر، وليس عبد الله هذا من ولده، إنما أمية عمه.

يقال: فلان يقتفي بفلان إذا كان يـؤثره، والقفيـة: الطعـام يؤثر به الرجل واحداً يقدمه. ويقال للرجـل يختـار ويقصـد بالبر: ألقيت قفيتي عليك.

وقال أحد الأعراب الفصحاء:

الطويل لعمري لقد نادى بأرفع صوته * نعيّ حييٍّ أنّ سيّدكم هوى

أجل صادقاً والقائل الفاعل الّذي * إذا قال قولاً أنبط الماء في الثّرى

فتىً قبلٌ لم تعنس ألسّنّ وجهه * سوى شهبٍ في الرّأس كالفجر في الدّجى

أشارت له الحرب العوان فجاءها * يقعقع بالأقراب أوّل من أتى
ولم يجنها لكن جناها وليّه * فأدى وآساه فكان كمن جنى
وقال أيضاً يرثيه:
الوافر ألا لهف الأرامل واليتامى * ولهف الباكيات على حييّ

لعمرك ما خشيت على حييّ * متالف بين حجر والسّليّ
ولكنّي خشيت على حييّ * جريرة رمحه في كلّ حيّ
وقال امرأة من كندة ترثي إخوتها:
الطويل أبوا أن يفرّوا والقنا في نحورهم * فماتوا وأطراف القنا تقطر الدّما
ولو أنّهم فرّوا لكانوا أعزّةً * ولكن رأوا صبراً على الموت أكرما
هوت أمّهم ماذا بهم يوم صرّعوا * بجيشان من أسباب مجدٍ تصرّما
وقال رجل من الخوارج يرثي عدداً منهم: الوافر ألا في الله لا في النّاس سالت * بداوودٍ وإخوته الجذوع
مضوا قتلاً وتشريداً وصلباً * تحوم عليهم طيرٌ وقوع
إذا ما اللّيل أظلم كابدوه * فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا * وأهل الأمن في الدّنيا هجوع
وقالت الكندية: البسيط لا تخبروا النّاس إلاّ أنّ سيّدكم * أسلمتموه ولو قاتلتم امتنعا
أعني فتىً لم تهبّ الرّيح رائحةً * يوماً من الدّهر إلاّ ضرّ أو نفعا

الواهب الألف لا يبغي لها ثمناً * إلاّ من الله والحمد الّذي صنعا

وقال أبو عبد الرحمن العتبي:

البسيط قد كنت أبكي على من فات من سلفي * وأهل ودّي جميعٌ غير أشتات

والآن إذ فرّقت بيني وبينهم * نوىً بكيت على أهل المودّات

وما بقاء امريءٍ كانت مدامعه * مقسومةً بين أحياءٍ وأموات

وكان أبو عبد الرحمن وسيطاً في قريش، من ولد عتبة بن أبي سفيان. وكان معدناً من معادن العلم بالأخبار جاهليتها وإسلاميتها وكان بالإسلامي أخبر. وتوالى له بنون موتاً. ورثاهم مراثي كثيرة نذكر بعضها مع ما في غيرهم من المراثي إن شاء الله.

فمن ذلك قوله:

الكامل أضحت بخدّي للدّموع رسوم * أسفاً عليك وفي الفؤاد كلوم

والصّبر يحمد في المصائب كلّها * إلاّ عليك فإنّه مذموم

يا واحداً من ستّةٍ أسكنتهم * حفراً تقسّم بينهم ورجوم

لولا معالم روسهنّ لما اهتدى * لحميمه بين القبور حميم

وقال أيضاً:

المنسرح كلّ لساني عن وصف ما أجد * وذقت ثكلاً ما ذاقه أحد

وأوطنت حرقةً حشاي فقد * ذاب عليها الفؤاد والكبد

إن أزمعت بالعزاء لجّ بها الشّ * وق فنيران حرّها تقد

ما عالج الحزن والحرارة في ال * أحشاء من لم يمت له ولد

فجعت بابنين ليس بينهما * إلاّ ليالٍ ليست لها عدد

فالنّفس تطوى على أحرّ من ال * جمر وأدنى أرجائها الكمد

وكلّ حزنٍ يبلى على قدم الدّ * هر وحزني يجدّه الأبد

ويروى عن الحسن البصري أنه قال: قدم علينا بشر بن مروان وهو أشرف الناس، وأجمل الناس، وأشب الناس، ابن خليفة وأخو خليفة، فلبث خمسة وأربعين يوماً ثم طعن في نيطه فمات. فخرج به إلى قبره والناس معه. وجاء سودان ثلاثة يحملون أسود، فدفن هذا وهذا. وخرجت إلى الصحراء ثم رجعت وقد انصرف عنهما، فلم أعرف قبر هذا من قبر هذا.

قال أبو العباس: حدثني هارون بن محمد بن عبد الملك المعروف بالزيات وحدثني بهذا الحديث الذي أذكره غيره أيضاً أن محمد بن عبد الملك كانت له جارية وكان بها ضنيناً، وكان له منها ابن يقال له عمر وهو باق الآن، فماتت وابنها هذا صغير. وسمعت أبا أيوب سليمان ابن وهب يتحدث بقطعة من خبر محمد بن عبد الملك في ضنه بابنه هذا. فرثاها ببيتين هما جاريان على ألسن الناس مشهوران:

الطويل يقول لي الخلاّن لو زرت قبرها * فقلت: وهل غير الفؤاد لها قبر?

على حال لم أحدث فأجهل عهدها * ولم أبلغ السّنّ الّتي معها الصّبر

ورثاها فقال شعراً يقرب من القلب، ويضطر إلى تصديقه، ويرتاح لعهد قائله، ويرحم لشكوى بثه وهو:

الطويل ألا من رأى الطّفل المفارق أمّه * بعيد الكرى عيناه تنسكبان؟

رأى كلّ أمٍّ وابنها غير أمّه * يبيتان تحت اللّيل ينتجيان
يرنّ بصوتٍ فضّ قلبي نشيجه * وسحّ دموعٍ ثرّة الهملان
وبات وحيداً في الفراش تحثّه * بلابل قلبٍ دائم الخفقان
ألا إنّ سجلاً واحداً إن هرقته * من الدّمع أو سجلين قد شفياني
فلا تلحياني إن بكيت فإنما * أداوي بهذا الدّمع ما تريان
وإنّ مكاناً في الثّرى خطّ لحده * لمن كان من قلبي بكلّ مكان
أحقّ مكانٍ بالزّيارة والهوى * فهل أنتما إن عجت منتظران؟
فهبني عزمت الصّبر عنها لأنّني * جليدٌ، فمن بالصّبر لابن ثمان؟
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبةً * ولا يأتسي بالنّاس في الحدثان
ألا من أمنّيه المنى وأعدّه * لعثرة أيّامٍ وصرف زمان؟
ألا من إذا ما جئت أكرم مجلسي * وإن غبت عنه حاطني وكفاني؟
فلم أر كالأيّام كيف تصيبني * ولا مثل هذا الدّهر كيف رماني
ولا مثل أيّامٍ فجعت بفقدها * ولا مثل يومٍ بعد ذاك دهاني
أعينيّ إلاّ تسعدا اليوم عبرتي * فبئس إذن ما في غدٍ تعداني

أعينيّ إن أنع السّرور وأهله * وعهد الصّبا عندي فقد نعياني

أعينيّ إن أبك البشاشة والصّبا * فقد آذنا منّي وقد بكياني

ألا إنّ بيتاً لم أزره لشدّ ما * تلبّس من قلبي به وعناني

ألا إنّ بيتاً لم أزره لعزّ ما * تضمّن منه في الثّرى الكفنان

وقال رجل من الأنصار يذكر امرأة كانت له، وكانت به برة، وله حافظةً إذا غاب، وسارةً إذا حضر، فأصيب بها:

الطويل ألا ما لهذا البيت ليس بذي أهل * تنكّرت ما قد كنت تألف من قبلي

أيا جارتا لا تبعدي خير جارةٍ * لبعلٍ وأحناه على ولدٍ طفل

فلو أنّني كنت العليل لأيقظت * بنيها وما نامت ولا فعلت فعلي

وقال رجل من بني شيبان يرثي معن بن زائدة: الطويل

أحين ثوى معنٌ ثوى الجود والنّدى * وأصبح عرنين المكارم أجدعا

فيا قبر معنٍ أنت آخر خطّةٍ * من الأرض خطّت للمكارم مضجعا

ويا قبر معنٍ كيف واريت جوده * وقد كان منه البرّ والبحر مترعا

بلى قد وسعت الجود والجود ميّتٌ * ولو كان حيّاً ضقت حتّى تصدّعا

فتىً عيش في معروفه بعد موته * كما عاد غيثٌ بعد جدواه مرتعا

وقال عبد الصمد بن المعذل يرثي سعيد بن سلم. وشـهرة أفعال سعيد وبعد صيته فـي عقلـه وأدبـه، وجـاهه وقـدره،

وكثرة معروفه وتمكنه من الخلفاء، تغنـي عـن ذكـر شـيء من أفعاله:

البسيط ما للسّماء عليه ليس تنفطر * وللكواكب لا تهوي فتنتثر?

وللبلاد ألا تسمو زلازلها * والرّاسيات ألا تردى فتنقعر?

إنّ النّدى وأبا عمروٍ يضمهما * قبرٌ ببغداد يستسقى به المطر

لله حزمٌ وجودٌ ضمّه جدثٌ * ومكرماتٌ طواها التّرب والمدر

يا طالباً وزراً من ريب حادثةٍ * أودى سعيدٌ فلا كهفٌ ولا وزر

أبكى عليك عيون الحيّ من يمنٍ * ومن ربيعة ما تبكي له مضر

كلّ القبائل قد ردّيت أرديةً * من فضل نعماك لا يجزي بها شكر

ما خصّ رزؤك لا قيساً ولا مضراً * إنّ الرّزيّة معمومٌ بها البشر

لو كان يبكي كتاب الله من أحدٍ * لطول إلفٍ بكتك الآي والسّور

أبو الأرامل والأيتام ليس له * إلاّ مراعاتهم همٌّ ولا وطر

للهاربين مصادٌ غير مطّلعٍ * وللعفاة جنابٌ ممرعٌ خضر

من كلّ أفقٍ إليه العيس معملةٌ * وكلّ حيٍّ على أبوابه زمر

المصاد: رأس الجبل يتحصن فيه الخائفون، كما قـال أوس بن حجر: الطويل

إذا أبرز الخوف الكعاب فإنّهم * مصادٌ لمن يأوي إليهم ومعقل
مشيّعٌ لا يفوت الذّحل صولته * وأكرم النّاس عفواً حين يقتدر
لا يزدهيه لغير الحقّ منطقه * ولا تناجيه إلاّ بالتّقى الفكر
ثبتٌ على زلل الأيّام مضطلعٌ * بالنّائبات لصعب الدّهر مقتسر
سامي الجفوني يروق الطّرف منظره * وأطهر النّاس غيباً حين يختبر
الحلم يصمته والعلم ينطقه * وفي تقى الله ما يأتي وما يذر
لم تسم همّته يوماً إلى شرفٍ * إلاّ حباه بما يسمو له الظّفر
يعطيك فوق المنى من فضل نائله * وليس يعطيك إلاّ وهو معتذر
يزيد معروفه كبراً ويرفعه * أنّ الجسيم لديه منه محتقر
وليس يسعى لغير الحمد يكسبه * وليس إلاّ من المعروف يدّخر
عفّ الضّمير رحيب الباع مضطلعٌ * لحرمة الله والإسلام منتصر
ما انفكّ في كلّ فجٍّ من ندى يده * للنّاس جودان: محويٌّ ومنتظر
لو هاب عن عزّةٍ أو نجدةٍ قدرٌ * من البريّة خلقاً هابك القدر
ليبك فقدك أطراف البلاد كما * لم يخل من نعمةٍ أسديتها قطر

وليبكك المرملون الشّعث ضمّهم * من كلّ أوبٍ إلى أبياتك السّفر
وذات هدمين تزجي دردقاً قزماً * مثل الرّئال حباها البؤس والكبر
ويبكك الدّين والدّنيا لرعيهما * والبرّ والبحر والإعسار واليسر
كفلت عترة أقوامٍ مهاجرةٍ * عثمان جدّهم أو جدّهم عمر
وقد نصرت وقد آويت محتسباً * أبناء قومٍ هم آووا وهم نصروا
يا ربّ أرملةٍ منهم ومكتهلٍ * أيتمته وهو مبيضٌّ له الشّعر
لله شمل جميعٍ كان ملتئماً * أضحى ليوم سعيدٍ وهو منتشر
أمسى لفقدك ظهر الأرض مختشعاً * بادي الكآبة واختالت بك الحفر
أحياك عمروٌ ولولاه وإخوته * عفا النّوال فلم يسمع له خبر
ألهمتهم طوعه فانقاد رشدهم * كلٌّ يراه بحيث السّمع والبصر
كأنّهم كنفاه وهو بينهم * بدر السّماء حوته الأنجم الزّهر
بنو قتيبة نور الأرض نورهم * إذا خبا قمرٌ منهم بدا قمر
إذا تشاكهت الأيّام واشتبهت * أبان أيّامك التّحجيل والغرر
إمّا ثويت فما أبقيت مكرمةً * إلاّ بكفّيك منها العين والأثر
إنّ اللّيالي والأيّام لو نطقت * أثنت بآلائك الآصال والبكر
كان النّدى في شهور الحول مقتسماً * بين البريّة فاغتال النّدى صفر

قال: وكان سعيد عامراً لطرق الخير، عـواداً علـى الأيتـام والأرامل، وعلى أبنـاء المهـاجرين والأنصـار. وكـان حسـن العزاء، وكان يقدم من بنيه عمراً وسلماً فأتاه موت ابن له يقال له العباس في يوم مات سلم بحضرته، وكـانت ميتـة العباس بكرمان، قتله بها الخوارج، فذكر الحسن بن رجـاء أنهم دخلوا عليه مع رجاء بن أبي الضـحاك ليعـزوه عنهمـا، فرأوا عنده من العزاء ما لو شهده مـن لـم يعـرف القصـة لظن أنه المعزي.

وحدثني ابن لموسى بـن سـعيد بـن سـلم أن سـعيداً كـان عنده قوم على الطعـام فـي عقـب مـوت سـلم، فحـدثهم حديثاً ثم قال لهم، واللقمة في يده: حدثني بهذا ابني سلم رحمه الله. ثم وضع اللقمة في فيه.

وقال عبد الصمد فيه:

الخفيف ربّ طفلٍ نعشته بعد يتم * وفقيرٍ أغنيته بعد عدم

كلّما عضّت الحوادث نادى * رضي الله عن سعيد بن سلم

وقال عبد الصمد يرثي عمرو بن سعيد بن سلم: الطويل

هريقا دماً إن أنفدت عبرةٌ تجري * أبى الصّبر أنّ الرّزء جلّ عن الصّبر

ولا تجمدا عينيّ قد حسّن البكا * وفرط الأسى فقد المغيّب في القبر

ليغركما بالبتّ أن لست واقفاً * من الصّبر يوماً بعد عمروٍ على عذر

سلامٌ وسقيا من يد الله ثرّةٌ * على جسدٍ بالٍ بلمّاعةٍ قفر

جرت فوقه الأرواح أمناً لجريه * وقد كنّ حسرى حين يجري كما تجري

تولّى النّدى والبأس والحلم والتّقى * فلم يبق منها بعد عمرٍ وسوى الذّكر
فإن تطوه الأيّام لا تطو بعده * صنائع منه لا تبيد على النّشر
متى تلقه لا تلق إلاّ ممنّعاً * حماه، مصون العرض مبتذل الوفر
وأيّ محلٍّ لا لكفّيه نعمةٌ * على أهله من أرض برٍّ ولا بحر
وما اختلفت حالان إلاّ رأيته * ركوب الّتي تسبي هيوب الّتي تزري
ومن تكن الأوراق والتّبر ذخره * فما كان غير الحمد يرغب في ذخر
كلا حالتيه الجود أنّى تصرّفت * به دول الأيّام في العسر واليسر
وما عدمت يوماً لكفّيه أنعمٌ * تضاف له منها عوانٌ إلى بكر
وما انتسبت إلاّ إليه صنيعةٌ * وما نطقت إلاّ به ألسن الفخر
يرى غبناً يوماً يمرّ وليلةً * عليه ولم يكسب طريقاً من الشّكر
تغضّ له الأبصار عند اجتلائه * وليس به إلاّ الجلالة من كبر
ترى جهره جهر التّقيّ وسرّه * إذا ما اختبرت السّرّ أتقى من الجهر
ولم يصح من يومٍ ولم يمس ليلةً * بغير اكتساب الحمد مشتغل الفكر
وكانت تعمّ النّاس نعماء كفّه * فعمّوا عليه بالمصيبة والأجر

تناعاه أقطار البلاد تفجّعاً * لمصرعه تبكيه قطراً إلى قطر
تباشر بطن الأرض أنساً بقربه * وأضحت عليه وهي خاشعة الظّهر
ولم تك تسقى الأرض إلاّ بسيبه * إذا ما جفا أقطارها سبل القطر
إذا نشأت يوماً لكفّيه مزنةٌ * أديل الغنى في كلّ فجٍّ من القفر
هوى جبل الله الّذي كان معقلاً * وعزّاً لدين الله، ذلاً على الكفر
عجبت لأيدي الحتف كيف تغلغلت * إليك وبين النّسر بيتك والنّسر
وما كنت بالمغضي لدهرٍ على القذى * ولا ليّنٍ للحادثات على القسر
ولو دفع العزّ الحمام عن امريءٍ * لما نال عمراً للحمام شبا ظفر
ألم تك أسباب الرّدى طوع كفّه * تبين لصرفي ما يريش وما يبري
إذا صاح داعي الرّوع سار أمامه * لواءان معقودان بالفتح والنّصر
يقسّم آجال العدى عزم بأسه * بهنديّة بيضٍ وخطّيّةٍ سمر
وما ذبّ إلاّ عن حمى الدّين سيفه * ولا قاد خيل الله إلاّ إلى ثغر
وقد كان يقري الحتف أعداء سلمه * فأضحى قرى ما كان أعداءه يقري
تولّى أبو عمروٍ فقلنا لنا عمروٌ * كفانا طلوع البدر غيبوبة البدر

وكان أبو عمروٍ معاداً حياته * بعمروٍ، فلمّا مات مات أبو عمروٍ
وكنّا عليه نحذر الدّهر وحده * فلم يبق ما يخشى عليه من الدّهر
وهوّن وجدي أنّ من عاش بعده * يلاقي الّذي لاقى وإن مدّ في العمر
وهوّن وجدي أنّني لا أرى أمرءاً * من النّاس إلاّ وهو مغضٍ على وتر
رمتنا اللّيالي فيك يا عمرو بعد ما * حمدنا بك الدّنيا، بقاصمة الظّهر
سأجزيك شكري ما حييت فإن أمت * أبقّ ثناءً فيك يبقى إلى الحشر
وأوثر حزني فيك دون تجلّدي * وإسبال دمعٍ لا بكيءٍ ولا نزر

قال أبو العباس: وكان مروان بن أبي الجنوب بن سـليمان بن يحيى بن أبي حفصة مداحاً للخلفـاء مـن لـدن المهـدي إلـى أن قـام محمـد ولـي عهـد، ولـم يبلـغ خلافتـه. وكـان مطبوعاً خطيباً في شعره، صحيح المعاني، قليل الإغماض صلب الكلام، وأعطاه المهدي فأكثر. وفي ذلك يقول:

البسيط صدّقت يا خير مأمولٍ ومنتجعٍ * ظنّي بأضعاف ما قد كنت أحتسب
أعطيت تسعين ألفاً غير متبعها * منّاً ولست بمنّانٍ لما تهب

فلما مات المهدي جزع عليه جزعاً شـديداً، ورثـاه بأشـعار اخترنا منها قوله:

الكامل لو خلّدت بعد الإمام محمّدٍ * نفسي لما فرحت بطول بقائها

كم قائلٍ لمّا أتاه نعيّه: ليت اللّيالي آذنت بفنائها

إنّ البلاد غداة أصبح ثاوياً * كادت تعود جبالها كصفائها

ترك المسامع فقده مستكّةً * وشجا النّفوس وحال دون عزائها

فاليوم شاغبت النّفوس حرارةٌ * كالنّار موصدةً على أحشائها

واليوم أظلمت البلاد وربّما * كشفت بغرّته دجى ظلمائها

واليوم أصبحت الأرامل ولّهاً * تدعو وما ظلمت بطول شقائها

كانت تعوذ من الشّتاء إذا شتت * بفنائه وتعيش في أذرائها

وتبيت آمنةً لدى حجراته * كحمام مكّة قطّناً وظبائها

أفنى البكاء على الإمام محمّدٍ * ماء العيون فأستعدت بدمائها

لمّا استنار ببطن مكّة هلكه * حنّ التّراب إليه من بطحائها

فرحت بطون الأرض إذ كسيت به * نوراً جلا ظلماتها بجلائها

وبكت أمير المؤمنين ظهورها * إذ غاب زين عشيّها وضحائها

كانت خلافته خلافة رحمةٍ * حتّى مضت أيّامه لمضائها

ما مرّ من يومٍ عليه وليلةٍ * إلاّ تدفّق كفّه بعطائها

روّى الظّماء بواديا وغواديا * عفواً بأرشية النّدى ودلائها

عمّ الصّحاح بعدله وبعرفه * وشفى المراض بسيفه من دائها

وصلت جناحي من فواضل سيبه * سبعون ألفاً راشني بحبائها

فلأتبعنّ له المديح مراثياً * يبقى على المهديّ حسن ثنائها

أثني لأجزيه أيادي عرفه * عندي ولست ببالغ لجزائها

أقلي الحياة إذا رأيت قصوره * غبراً خواشع بعد طول بهائها

وجياده قد عرّيت وقبابه * مختلّةً عرصاتها لخلائها

فقدت مشرّفها الجياد فأصبحت * تبكيه عند صباحها ومسائها

ففحولهنّ عن الحجور ذواهلٌ * وحجورهنّ تصدّ عن أفلائها

سقيت على الظّمإ القراح لفقدها * من كان يعرضها على أسمائها

ولقد تراها والحليب صبوحها * وغبوقها في قيظها وشتائها

قلعت لترك ركوبها غلمانها * ولقد ترى ثبتاً على أقرائها

القلع: الذي لا يستقر على سرج.

يا من علا شمس النهار لفقده * رهج القتام فحال دون ضيائها

إنّ القبور قديمها وحديثها * لصداك فاضلةٌ على أصدائها

ما حفرةٌ أسنى وأكرم ساكناً * من حفرةٍ حدروك في أرجائها

إلاّ الّتي أمسى النبيّ محمّدٌ * فيها فإنّ لتلك فضل سنائها

يا ليت نفسي قبل نفسك غالها * ريب المنون فحال دون ثوائها

وبقيت ما بقي النّهار لأمّةٍ * ما إن تملّ عليك طول بكائها

فجعت بسيرتك الرّعيّة بعدما * أنسيتها الماضين من خلفائها

ألبستها كنفي رؤوفٍ حافظٍ * حرم الحقوق، موكّلٍ بأدائها

يمشي اليتامى في ذراه كأنّما * يأوي المبيت بها إلى آبائها

لولا أبنك الكافي الخطوب لأدبرت * عنّا بقيّة عيشنا برخائها

قال أبو العباس: كتب الحسن بن وهب إلى الأمير محمد ابن عبد الله بن طاهر يعزيه عن مصيبة: بسم الله الرحمن الرحيم، أطال الله بقاء الأمير مسروراً غير محزون، ومعطىً غير، مسلوب، ووفقه في أحواله كلها لما يستديم به النعمة، ويستحق عنده المثوبة. أفظعني أعز الله الأمير ما رأيت بالأمير جعلني الله فداءه من هذه الرزية التي كادت تكون أشبه بالنعم منها بالرزايا، لما وفر الله، إن شاء الله، للأمير أيده الله من ثوابها، وبقى له في نفسه حاطه الله من بعدها. فإن حياة الأمير مد الله في عمره حياة لأهله وذوي تأميله، بعد الذي جعل الله للدين والخلافة من الأنس والعز بسلامته، وللأمة من جيل مكانه وموضعه، ووفر الله للأمير، ولا نقصه وتولاه بحسن المدافعة عنه والحياطة، ولا أراه سوءاً في نفس ولا حميم، بقدرته وهذه جعلت فداء الأمير أبيات ينظر فيها أيده الله عند نشاطه إن شاء الله: مجزوء الكامل قل

للمجير على الدّهور * ومقيل ذي الجدّ العثور

ولمن يصغّر كبره * مستعظم الخطب الكبير

حتّى يرى بعد الجلا * لة منه في حال الصّغير

إنّ الأمير أجلّ قد * راً في ملمّات الأمور

من أن تفيض دموعه * لفراق إلفٍ أو عشير

لا، بل يكون مسلّماً * لحكومة الملك القدير
ويبثّه منه الرّضى * عنه بإخلاص الضّمير
والصّبر في البلوى فيع * طى وافياً أجر الصّبور
والشّكر في النّعمى يغ * نم ما يضاعف للشّكور
فالله ينسئ عمره * في منتهى رتب الحبور
وإذا بكت غزر العيو * ن فلا بكت عين الأمير
لا بل تبيت قريرةً * أبداً على برد السّرور
ماذا بعبدك مذ رآ * ك من الكآبة والفتور
عبدٌ يراك وليّ نع * مته إلى يوم النّشور
ويراك جابر ما وهى * من عظمه ذاك الكسير
ويجنّ ودّاً، خبره * عند العليم به الخبير

قال: وكان الحسن بن وهب يقدم حبيب بن أوس أبا تمام الطائي تقديماً يتجاوز فيه، ولا يرى له في الشعر نداً قديماً فضلاً عن حديث. فأتاه خبر موته بالموصل فرثاه بشعر سلك فيه مثل طريقه، وترك مذهبه في السهولة والبيان وألفاظ الكتاب فقال:

الوافر سقى بالموصل القبر الغريبا * سحائب ينتحبن له نحيبا
إذا ظلّلنه أطلقن فيه * شعيب المزن تتبعها شعيبا

الشعيب: المزادة التي يحملها البعير.

ولطّمت البروق لها خدوداً * وشقّقت الرّعود لها جيوبا
فإنّ تراب ذاك القبر يحوي * حبيباً كان يدعى لي حبيبا
لبيباً شاعراً فطناً أديبا * أصيل الرّأي في الجلّى أريبا
إذا شاهدته روّاك ممّا * يسرّك رقّةً منه وطيبا

أبا تمّامٍ الطّائيّ إنّا * لقينا بعدك العجب العجيبا
فقدنا منك علقاً لا نرانا * نصيب له مدى الدّنيا ضريبا
وكنت أخاً لنا يدني إلينا * ضمير الودّ والنّسب القريبا
وكانت مذحجٌ تطوى علينا * جميعاً ثمّ تنشرنا شعوبا
فلمّا بنت نكّرت اللّيالي * قريب الدّار والأقصى الغريبا
وأبدى الدّهر أقبح صفحتيه * ووجهاً كالحاً جهماً قطوبا
فأحر بأن يطيب الموت فيه * وأحر، بعيشةٍ ألاّ تطيبا

وقال أبو عبد الرحمن العتبي يرثي بنيه:

المتقارب أما يزجر الدّهر عنّا المنونا * يبقّي البنات ويفني البنينا
وأنحت عليّ بلا رحمةٍ * فلم تبق فوق غصوني غصونا
وكنت أبا ستّةٍ كالبدور * وقد فقؤوا أعين الحاسدينا
فمرّوا على حادثات المنون * كمرّ الدّراهم بالنّاقدينا
فألقين ذاك إلى صارخٍ * وألقين ذاك إلى ملحدينا

فما زال ذلك دأب الزّما * ن حتّى أماتهم أجمعينا
وحتّى بكى لي حسّادهم * وقد أتعبوا بالدّموع العيونا
وحسبك من حادثٍ بامريءٍ * ترى حاسديه له راحمينا
رأيت بنيّ على ظهرها * فصاروا إلى بطنها ينقلونا
فمن كان يسليه مرّ السّنين * فحزني تجدّده لي السّنونا

وقال فيهم:

الكامل يا ستّةً أودعتهم حفر البلى * لخدودهم تحت الجبوب وساد

منعوا جفوني أن يصافح بعضها * بعضاً فهنّ وإن قربن بعاد

لمّا بقيت عماد بيتٍ مفرداً * قد أسلمت أطنابه الأوتاد

لم تبق عينٌ أسعدت ذا عبرةٍ * إلاّ بكت حتّى بكى الحسّاد

ماذا أرجّي بعد خمسٍ بعدها * ستّون أكملها لي الميلاد?

وسطت عليّ من الزّمان يدٌ بها * فلّ الجميع وغيّب الأولاد

وقال يرثي أخته:

الطويل لقد خانني صبري بأمّ محمّدٍ * فلم يبق لي إلاّ التّأسّف من جهدي

?سوى أنّ صدري تحته مستكنّةٌ=من الحزن ما تبقي على الرّجل الجلد وإنّي مذ اليوم الّذي لم أطق به * عن ابنة أمّي مدفعاً لعلى وعد

وقال يرثي محمد بن عباد بن حبيب بن المهلب:

الطويل محمّد إن آنست منّي جانبا * بقربٍ لقد أوحشت بالبعد جانبا

وقد عظمت فيك المصائب إنّها * تصغّر عندي في سواك المصائبا

سلوت به عمّن تقدّم قبله * وآليت أصفي بعده الودّ صاحبا

ستبكيك أخلاق المروءة إنّها * مغيّبةٌ ما دمت عنهنّ غائبا

وقال يرثي ابنه سليمان، وكان نفيساً من ولده:

الطويل سليمان والله الّذي أنا عبده * لقلبي عليلٌ ما بقيت حزين

تقاضاك دهرٌ فاقتضاك بدينه * وللدّهر في نفسي عليّ ديون

فقرّت عيونٌ كنت شمل جفونها * وجادت بحزنٍ بالدّماء عيون
فليس على دهرٍ مجيرٌ إذا عدا * بكرهٍ، ولا خلقٌ عليه معين
دفنت بكفّي بعض نفسي فأصبحت * لها دافنٌ من نفسها ودفين
فللّه ما أعطى ولله ما حوى * وأحر بأمرٍ كائنٍ سيكون
فيا فجعة الدّنيا بمن شبت بعده * فسيّان مضنونٌ به وضنين
وقال يرثي صديقاً له يقال له عيسى بن القاسم: الطويل
بكت عين من لم يبك عيسى بن قاسمٍ * بأربعةٍ حتّى تجفّ نواظره
فتىً غاب عنه أقربوه فلم يكن * له من يحامي دونه ويؤازره
مررت على ربعٍ له بعد موته * فباطنه يشكو الخراب وظاهره
تكاد مغانيه تقول لفقده * لسائلها عن أهله: مات عامره
سلامٌ على الإخوان والعيش بعده * ومن كنت أصفيه الهوى وأعاشره
ومن كان يسلي الهمّ عنّي حديثه * إليّ إذا ضاقت بأمري مصادره
فإن أسل عن شيءٍ فما عنه سلوةٌ * ومهما أضيّعه فإنّي ذاكره
وقال في ابن له يكنى أبا عمرو مات في آخر ولده قصـيدةً يطيلها، اخترت منها هذه الأبيات:
الطويل لقد شمت الأعداء بي وتغيّرت * عيونٌ أراها بعد موت أبي عمرو

تجرّا عليّ الدّهر لمّا فقدته * ولو كان حيّا لاجترأت على الدّهر

أسكّان بطن الأرض لو يقبل الفدى * فديتم وأعطينا بكم ساكني الظّهر

فيا ليت من فيها عليها وليت من * عليها ثوى فيها مقيماً إلى الحشر

فماتوا كأن لم يعرف الموت غيرهم * فثكلٌ على ثكلٍ وقبرٌ إلى قبر

وقال دعبل بن علي الخزاعي يرثـي أبـا القاسـم نصـر بـن حمزة:

البسيط كانت خزاعة ملء الأرض ما اتّسعت * فقصّ مرّ اللّيالي من حواشيها

هذا أبو القاسم الثّاوي ببلقعةٍ * تسفي الرّياح عليه من سوافيها

هبّت وقد علمت أن لا هبوب به * وقد تكون حسيراً إذ يجاريها

أضحى قرىً للمنايا إذ نزلن به * وكان في سالف الأيّام يقريها

وقال أشجع بن عمرو السلمي يرثي محمد بن منصور:

السريع أنعى فتى الجود إلى الجود * ما مثل من أنعى بموجود

أنعى فتىً أصبح معروفه * منتسباً في البيض والسّود

أنعى إلى الفتيان أعلاهم * كعباً وأولاهم بتمجيد

أنعى ابن منصورٍ إلى سيّدٍ * وأيّدٍ ليس برعديد

وأشعثٍ يسعى على صبيةٍ * مثل فراخ الطّير مجهود
وطارقٍ أعيا عليه القرى * ومسلمٍ في القدّ مصفود
أنعى فتىً مصّ الثّرى بعده * بقيّة الماء من العود
وانثلم المجد به ثلمةً * جانبها ليس بمسدود
أنعى فتىً كان ومعروفه * يملأ ما بين ذرى البيد
فأصبحا بعد تساميهما * قد جمعا في بطن ملحود
اليوم تخشى عثرات النّدى * وعدوة البخل على الجود
يا راكب العيس الّتي تختطي * ما بين أعناق القراديد
إنّ بباب البردان الفتى الضّ * امن حاجات المجاهيد
من قنّع المسكين لمّا مضى * من رغد العيش بتصريد
من لم يكن سائله ممسكاً * منه بأذناب المواعيد
لا خير في الدّنيا وقد أغلقت * أبوابها دون الفتى المودي
ليرتج البخّل عليها فقد * مضى فتاها بالمقاليد
أورده حوضاً عظيم الثّأى * في المجد يومٌ غير محمود
كلّ فتىً يسعى إلى مدّةٍ * من أجلٍ قد خطّ معدود
سينطبق الشّعر بأيّامه * على لسانٍ غير معقود
كفاك أنّ المجد قد أصبحت * أعلامه في بطن أخدود
جودي بدمعٍ أو دمٍ جودي * يا عين لا عذت بمجلود
فكلّ مفقودٍ إلى جنبه * وإن تغالى غير مفقود
يا وافدي قومهما إنّ من * طلبتما تحت الجلاميد
طلبتما الجود وقد ضمّه * محمّدٌ في جوف ملحود
فاتكما بالموت معروفه * وليس ما فات بمردود
يا عضداً للموت مفتوتةً * وساعداً ليس بمعضود

أوهن زنديه وأكباهما * قرع المنايا في الصّناديد
وهدّ ذا الرّكن الذي كان بال * أمس عماداً غير مهدود

?باب مواعظ وتعاز وأشعار

قال أبو العباس قد أملينا من أشعار المحدثين جملةً يخاف على مثلها الملل. وإنما كتابنا هذا وإن كان يقصد به معنى واحد فإنما يخرجه شيء من ذلك المعنى إلى آخر منه. فكأنه باب يخالف باباً. وهذا باب مواعظ وتعاز وأشعار داخلة في ذلك، موصولة به.

وقد كنا أملينا أخباراً عن عروة بن الزبير في قطع رجله، ومصاب ابنه بضرب دابة إياه. وهذا الذي نذكره مما يتصل بجملة أخباره: قال إسماعيل بن يسار يرثي محمد بن عروة:

الخفيف تلك عرسي رامت سفاهاً فراقي * وجفتني فما تريد عناقي
زعمت أنّما هلاكي مع الما * ل وأنّي محالفي إملاقي
وتناست رزيّةً بدمشقٍ * أشخصت مهجتي فويق التّراقي
يوم ندعى إلى ابن عروة نعشاً * فوق أيدي الرّجال والأعناق
مستحثّاً به سياقٌ إلى القب * ر وما إن يحثّهم من سياق
بمقامٍ ربخٍ فلما أجنّوا * شخصه وارتقوا وليس ثمّ براق

مكان ربخ: إذا كان لا يستقر عليه.

ثمّ ولّيت موجعاً قد شجاني * قرب عهدٍ به وبعد تلاق
ولقد كنت للحتوف عليه * مشفقاً لو أعاذه إشفاقي
فإذا الموت لا يردّ بحرصٍ * لحريصٍ ولا لرقية راق

?وغنينا كابني نويرة يوماً=في رخاءٍ ولذّةٍ واتّفاق ثمّ صرنا لفرقةٍ ذات بعدٍ * كلّ حيٍّ مصيره لفراق

وقال أيضاً يرثيه:

الكامل صلّى الإله على أمريءٍ فارقته * بالشّام في حدّ الضّريح الملحد

بوّأته بيديّ دار مقامةٍ * نائي المحلّة عن مزار العوّ?د

ولئن تركتك يا محمّد ثاوياً * لبما تروح مع الكرام وتغتدي

وغبرت أعوله وقد أسلمته * لسفى الأماعز والمزار الأبعد

وأرى الوفود لدى المنازل من منىً * شهدوا وإنّك غائبٌ لم تشهد

أعني ابن عروة إنّه قد هدّني * فقد ابن عروة هدّةً لم تقصد

والمرء رهن منيّةٍ يدعى لها * لا بدّ أسرع من رداء المرتدي

وإذا ذهبت إلى العزاء أريده * غلب العزاء وحيل دون تجلّدي

غلب التّعزّي أنّني لفراقه * لبس العدوّ عليّ جلد الأربد

وقال البعيث ومات ابن له فقـال يرثيـه بشـعر حفـظ منـه بيت استحساناً:

الطويل فصادف منّي غصّةً لا يسيغها * شرابٌ ولم يذهب مرارتها العسل

وأخبرنا عن مخلد بن حمزة عن عبد الملك بن عميـر قـال: دخل عبد الله ابن الزبير علـى أمـه، أسـماء ابنـة أبـي بكـر الصديق رضي الله عنهما فقال: يا أمه، قد خذلني النـاس، فلم يبق معي إلا من ليس عنده من المنـع أكـثر مـن صـبر

ساعة، والقوم يعطونني ما أردت. فما رأيك؟ قالت: يا بني، أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق، وإليه تدعو، فامض على حقك، ولا تمكن غلمان بني أمية من نفسك. فقال: وفقك الله، هذا رأيي، وإني لحسن الظن بربي، فإن هلكت فلا يشتد جزعك علي، فإن ابنك لم يتعمد إتيان دنية، ولا عملاً بفاحشة، ولم يسع بغدر، ولم يجر في حكم، ولم يكن شيء آثر عنده من رضى ربه. اللهم إني لا أقول هذا تزكيةً لنفسي. أنت أعلم بي. ولكن أقوله لتسلو عني.

ويروى أنه خرج فحمل على أهل الشام وهو يتمثل:

الطويل فلست بمبتاع الحياة بسبّةٍ * ولا مرتقٍ من خشية الموت سلّما

وقال رحمه الله تعالى:

الرجز يا أمّ إن متّ فلا تبكيني * الدّرع والبيضة لا تنجيني

من قدر الله إذا يأتيني * قد علم الأعبد أنّ دوني

ضرباً كإيزاغ المخاض الجون * إيهاً شمالي عاوني يميني

فإن كرهت صحبتي فبيني * فإنّما يضنّ بالضّنين

وتحدث عن سفيان بن عيينة قال: رأى سعيد بن جبير ابنه يطوف بالبيت فقال: هذا أعز الخلق علي، وما شيء أسر إلي من أن يكون في ميزاني.

وأخبرنا عن عامر بن حفص قال: جزع القلاخ بن حزن على أخيه جحناء فقال:

الطويل أعاذل من يرزأ كجحناء لا يزل * حزيناً، ويزهد بعده في العواقب

ثمال أناسٍ كان يجمع بينهم * ويدفع عنهم كلّ أبلخ شاغب

الأبلخ: المتكبر. وقال ضمرة بن ضمرة:

المتقارب ماويّ لست برعديدةٍ * أبلخ جاد على المعدم

وقال عن الحسن بن دينار: جزع رجل على ابن له، فشكا ذلك إلى الحسن بن أبي الحسن فقال له الحسن: هل كان ابنك هذا يغيب عنك؟ قال: نعم كانت غبته عني أكثر من حضوره قال: فأنزله غائباً، فإنه لم يغب عنك غيبةً، الأجر لك فيها، أعظم من هذه الغيبة.

ومن غير هذا الإسناد أنه قال: فأنزله غائباً عنك، فإنه إن لم يقدم عليك قدمت عليه. قال: يا أبا سعيد، قد هونت من وجدي على ابني.

وأخبرني عن أبي إسماعيل الهمداني عن مجالد عن الشعبي قال: مات ابن لشريح فلم يشعر أحد بموته، ولم يصرخ عليه أحد، فغدا قوم إلى شريح يسألونه عن ابنه فقالوا: كيف أصبح مريضك يا أبا أمية؟ قال: قد سكن علزه، ورجاه أهله، وما كان منذ اشتكى أسكن منه الساعة.

والعلز: شدة القلق.

وقال: أحد بني كليب:

البسيط وإن رأيت سهيلاً ظلت مكتئباً * كأنّني راقبٌ للنّجم أو علز

وأخبر عن أبي عمرو بن يزيد قال: احتضر رجل فوضع رأسه في حجر أخيه، فدمعت عين أخيه فقطرت قطرة من دموعه على خد المريض، فأفاق من غشيته، فنظر إلى أخيه يبكي فقال: الطويل

أخيّين كنّا فرّق الدّهر بيننا * إلى الأمد الأقصى ومن يأمن الدّهرا؟

وتحدث عن عمر بن غياث عن محمد بن حرب قال: كتب إبراهيم بن أبي يحيى إلى بعض الخلفاء يعزيه: أما بعد. فإن أولى من عرف حق الله عليه فيما أخذ منه، من عظم حق الله جل وعز عنده فيما أبقى له. واعلم أن الماضي قبلك الباقي لك، وأن الباقي بعدك هو المأجور فيك، وأن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عندهم فيما يعافون منه.

وقال عمر بن غياث: عزى رجل قوماً فيهم نصراني فقال: مثلي لا يعزيك، ولكن انظر إلى ما زهد فيه الجاهل فارغب فيه.

قال الأصمعي: حدثني معتمر بن سليمان أن أخاً له مات، قال: فكنت أرغب إلى الله عز وجل أن أراه في نومي، فذكرت ذلك لشعيب بن الحبحاب فقال: إن الحزن ينضو عن آدم كما ينضو صبغ الثوب، ولو بقي على ابن آدم قتله.

وقال الأصمعي: سمعت بعض المحدثين يقول: نعي مجزأة بن ثور السدوسي إلى أخيه شقيق بن ثور فكأنه لم ير ذلك فيه، فقال له صاحب البريد: هل نعاه إليك أحد قبلي قال: نعم، قد خبرنا الله جل ذكره أنا كلنا سنموت.

وقال الأصمعي: ماتت امرأة عبد الله بن مطرف بن عبد الله بن الشخير، فتبخر ولبس حلةً، فقالوا له في ذلك، فقال: أكره أن أستكين للمصيبة.

وقال أبو الحسن المدائني عن سعيد بن عبد العزيز: إن مسلمة بن عبد الملك كان له صديق يقال له شراحيل، فمات، فجزع عليه وخرج فصلى عليه ودخل قبره فلما خرج أتاه المعزون، وفيهم عبد الله بن عبد الأعلى، فعزاه، فبكى مسلمة وقال:

الطويل وهوّن وجدي علي شراحيل أنّني * إذا شئت لاقيت أمرءاً مات صاحبه

وقال القاسم بن الوليد: حدثني أبي، الوليـد بـن خلـف، أن الحجاج بن يوسف أوفد مالك بـن أسـماء بـن خارجـة إلـى عبد الملك بن مروان فدخل عليه فسمع صوارخ في داره، فقال: ما هذه الصوارخ يا أميـر المـؤمنين؟ فقـال لـه عبـد الملك: مات أبان بن عبد الملك في هذه الليلـة، فقـال لـه مالك: آجرك الله يا أمير المؤمنين، فـوالله مـا علـى ظهـر الأرض أهل بيت أعظم مرزئة واحـد علـى النـاس ولا اللـه أكفى لهم بالواحد الباقي من أنفسـهم منكـم أهـل الـبيت. فأعجب عبد الملك كلامه، فاستعاده، وفضله على أصحابه.

وكان الحجاج لا يستعمل مالكاً لإدمانه الشراب واستهتاره فكتب عبد الملك إلى الحجاج: إنك أوفدت إلي رجـل أهـل العراق فوله واستعمله وأكرمه.

قال أبو الحسن المدائني عن عامر بـن الأسـود وغيـره أن الحجاج رأى في منامه كأن عينيه ذهبتا. فلما طلق هند ابنة أسماء، وهند ابنة المهلب ظن أنها تأويل رؤياه. فلما مـات ابنه محمد وأتاه موت محمد أخيه قال هذا تأويل رؤياي من قبل.

وأخبر المدائني عن أبي محمد بن عمرو الثقفي قـال: لمـا مات محمـد بـن الحجـاج جـزع عليـه فقـال: إذا غسـلتموه فآذنوني به. فأعلموه به فدخل البيت فنظر إليه فقال:

الكامل الآن لمّا كنت أكمل من مشى * وأفترّ نابك عن شباة القارح

وتكاملت فيك المروءة كلّها * وأعنت ذلك بالفعال الصّالح

فقيـل لـه: اتـق اللـه واسـترجع، فقـال: إنـا للـه وإنـا إليـه راجعون وقرأ: الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنـا للـه وإنـا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون.

وأتاه موت محمّد بن يوسف وكان بينهما جمعةٌ، فقال:

الطويل حسبي حياة الله من كلّ ميّتٍ * وحسبي بقاء الله من كلّ هالك

إذا ما لقيت الله ربّي مسلماً * فإنّ نجاة النّفس فيما هنالك

وجلس الحجاج للمعزين ووضع بين يديه مرآة، وولى الناس ظهره وقعد في مجلسه، فكان ينظر إلى ما يصنعون، فدخل الفرزدق فلما نظر إلى فعل الحجاج تبسم، فلما رأى الحجاج ذلك منه قال: أتضحك وقد هلك المحمدان فأنشأ يقولك الطويل لئن جزع الحجّاج ما من مصيبةٍ * تكون لمحزونٍ أجلّ وأوجعا

من المصطفى والمصطفى من خيارهم * جناحيه لمّا فارقاه فودّعا

أخٌ كان أغنى أيمن الأرض كلّها * وأغنى أبنه أمر العراقين أجمعا

جناحا عقابٍ فارقاه كلاهما * ولو قطّعا من غيره لتضعضعا

سميّا نبيّ الله سمّاهما به * أبٌ لم يكن عند النّوائب أخضعا

وكتب إليه الوليد يعزيه عن محمد بن يوسف ويحثه على الصبر فكتب إليه: كتب إلي أمير المؤمنين يعزيني عن محمد بن يوسف ويذكر رضاه عنه، ويأمرني بالصبر، وكيف لا أصبر وقد أبقى الله لي أمير المؤمنين؟.

وتحدث المدائني عن يونس بن حبيب قال: كان الحجاج إذا سمع نوحاً في دار هدمها. فلما مات ابنه وأخوه كان يعجبه أن يسمع النوح، وكان يتمثل بشعر الفرزدق:

الطويل هل ابنك إلاّ من بني الناس فاصبري * فلن يرجع الموتى حنين المآتم

قال أبو العباس: حدثني التوزي قال: سمعت أبا زيد ينشد خنين المآتم. وكان يتمثل أيضاً بشعر ليزيد بن الحكم الثقفي:

الطويل إن تحتسب تؤجر وإن تبكه تكن * كباكيةٍ لم يحي ميتاً بكاؤها

ومن شرّ حظّي مسلمٍ من حميمه * بكاءٌ وأحزانٌ قليلٌ جداؤها

وتحدث المدائني عن عوانة قال: أرسل الحجاج إلى علي بن ثابت بن قيس الأنصاري فقال: أنشدني مرثيتك ابنك فأنشده: المنسرح يا كذّب الله من نعى حسناً * ليس لتكذيب نعيه ثمن

أجول في الدّار لا أراك وفي الدّ * ار أناسٌ جوارهم غبن

كنت خليلي وكنت خالصتي * لكلّ حيٍّ من أهله سكن

بدّلتهم منك، ليت أنّهم * أمسوا وبيني وبينهم عدن

فقال الحجاج: ارث ابني محمداً، فرثاه. فقال الحجاج: مرثيتك ابنك أجود. قال: إن قلبي وجد على ابني ما لم يجد على ابنك. قال: كيف كان حبك له؟ قال: لم أمل من النظر إليه، ولم يغب عني إلا اشتقت إليه قال: كذاك كنت أجد بابني محمد. وقال الفرزدق:

البسيط إنّي لباكٍ على ابني يوسفٍ عمري * ومثل هلكهما للدّين يبكيني

ماسدّ حيٌّ ولا ميتٌ مسدّهما * إلاّ الخلائف من بعد النّبيئين

وقال أيضاً:

الكامل إنّ الرّزيّة لا رزيّة مثلها * فقدان مثل محمّدٍ ومحمّد

ملكان قد خلت المنابر منهما * أخذ المنون عليهما بالمرصد

وأخبر المدائني عن سلمة بن عثمان وغيره أن الحجاج جزع على ابنه محمد، فقيل لرجل من بني عقيل كان الحجاج قتل ابنه: إن الحجاج شديد الجزع على ابنه محمد وقد أتته وفاة أخيه محمد بن يوسف، فتمثل العقيلي:

الطويل ذوقوا كما ذقنا غداة محرّقٍ * من الغيظ في أكبادنا والتّحوّب

وتحدث المدائني عن إسحاق بن أيوب عن مطير، مولى يزيد قال: كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج يعزيه عن أخيه محمد بن يوسف فكتب إليه الحجاج: ما التقيت أنا ومحمد بن يوسف مذ كذا وكذا عاماً، وما غاب عني غيبة أنا، لطول اللقاء فيها أرجى من غيبته هذه في دار لا نفترق فيها.

وقال ابن كناسة: مات محمد بن الحجاج ونعي محمد بن يوسف في جمعة فخطب الحجاج الناس فقال: إن محمد بن الحجاج ومحمد بن يوسف ماتا في جمعة فكأن الباقي منا ومنكم قد فني، وكأن الحي منا ومنكم قد بلي، وتدال الأرض منا ومنكم فتأكل من لحومنا كما أكلنا من ثمارها، وتشرب من دمائنا كما شربنا من أنهارها، ولنجدنها كما قال الله تبارك وتعالى ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون.

وقال عوانة بن الحكم: لما مات محمد بن الحجاج وأتاه نعي أخيه بعث إلى مالك ابن أسماء وهو في السجن فقال: أنشدني مرثيتك أخاك فأنشده:

الخفيف أقطع اللّيل زفرةً ونحيبا * ولما قد لقيت أمسي كئيبا

أذكر اليأس من بقائك في الدّن * يا وعهداً منّا ومنك قريبا

يوم أدعوك للخطوب ولو * يسمع داعيك من دعا لأجيبا

قال: وأنا، والله، لو أسمعتهما النداء لأجابا.

وقال إبراهيم بن سعد: سمع علي بن الحسين واعيةً من بيته وهو في مجلسه وعنده جماعة، فنهض إلى منزله فسكتهم ثم خرج إلى مجلسه فقالوا له: أمن حدث كانت الواعية؟ فقال: نعم، ابن لي، فعزوه وتعجبوا من صبره. فقال: إنا أهل بيت نطيع الله جل ذكر فيما نحب ونكره، ونحمده، فإذا نزل مكروه حمدنا واحتسبنا.

قال أبو القاسم بن قيس العامري: لما دفن علي بن أبي طالب رحمة الله عليه فاطمة صلوات الله عليها، تمثل عند قبرها: الطويل

وإنّ افتقادي واحداً بعد واحدٍ * دليلٌ على ألاّ يدوم خليل

وتمام هذا الشعر:

ذكرت أبا أروى فبتّ كأنّني * بردّ الأمور الماضيات وكيل

لكلّ اجتماعٍ من خليلين فرقةٌ * وكلّ الذي دون الفراق قليل

وإنّ افتقادي واحداً بعد واحدٍ * دليلٌ على ألاّ يدوم خليل

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه للأشعث بن قيس وعزاه عن ابن له: يا أشعث، إن تجزع على ابنك فقد استحقت ذلك منك الرحم، وإن تصبر ففي الله الخلف. يا أشعث، إنك إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت موزور.

وكان علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه يقـول إذا عـزى: إن تجزعوا فالرحم أهل ذلك منكم، وإن تصبروا ففي ثواب الله خلف من المصيبة. عظم الله أجركم.

وعزى رجل رجلاً عن ابنه فقال: ذهب أبـوك وهـو أصـلك، وذهب ابنك وهو فرعك، فما حال الباقي بعد أصله وفرعه؟ وعزى رجل رجلاً فقال: ما كان لك في الآخـرة أجـراً خيـر لك مما كان في الدنيا سروراً.

وقال موسى الهادي لإبراهيـم بـن سـلم وعـزاه عـن ابنـه: أيسرك وهو يلية وفتنة، ويحزنك وهو صلاة ورحمة?.

وقال سعيد بن عبد الله: قال الحسن لرجل عزاه عن ابنه: إنما يسـتوجب علـى اللـه وعـده مـن صـبر للـه بحقـه. فلا تجمـع، إلـى مـا أصـبت بـه، الفجيعـة بـالأجر فإنهـا أعظـم المصيبتين عليك وأنكأ المرزئتين لك.

وقال أبو الحسن المدائني: لما هلك يزيد بن الصعق ورثــه معية ابن يزيد قدره وجفنته فقالت ليلة بنت يزيد:

الطويل يزيد أبا قيسٍ وهل تسمعنّه * وعندك تعبيرٌ لو أنّك تسمع

لأصبح ما جمّعت من كلّ صالحٍ * معيّة يعطي النّاس منه ويمنع

فلا تأمننّ الدّهر شيئاً رأيته * ولا أن يسوق النّاس عبدٌ مجدّع

وقال سعيد بن قيس المحاربي:

الوافر أبادر قسمة الشّركاء مالي * إذا حسبوا وهم حولي قعود

وقالوا:

حقّنا الثّلثان منه * وقد صدقوا لعمري أو يزيدُ

تقول عجوزهم في ذاك سهمي * بلى وبسهمك العين الشديد

وكانت قبل تملكه جميعاً * تعنيّ باليدين كما تريد

وقالت المحياة بنت طلق الجشمية، من بني تيم اللات بـن ثعلبة فـي الإسـلام، وجـاء العصـبة يقتسـمون دارهـا الـتي كانت لزوجها، فسمعت أصواتهم فقالت:

السريع يا دعوةً ما دعوتي عامراً * بالله لو يسمعني لاستجاب

تالله لو يسمع دعواهم * لفلّهم عنّي بظفرٍ وناب

فرجعوا عنها وغبروا حيناً ثم عادوا، فقالت:

الطويل لقد بدّلت دار الأحبّة بعدهم * موالي منهم ملحقون وتابع

فلو أنّ داراً أعولت فقد أهلها * بكت دارنا والتحّ منها المسامع

فرجعوا فمكثوا ثم عادوا، فقالت: مجزوء الكامل الدّار تبكي أهلها * وبكاؤها شيءٌ عجيب

فيقال: إنهم تركوها لها.

قـال المـدائني: تـوفي ابـن لخالـد بـن صـفوان يكنـى أبـا الحصين فقال: رحم الله أبـا الحصـين. واللـه إن كـان، مـا علمته، لبراً بوالديه، وصولاً لرحمـه بعيـداً ممـا يقـرف بـه الشبان.

قال أبو العباس: وحـدثت بهـذا الخـبر علـى غيـر هـذا. إنـه توفي ابن له يقال له نعيم فقال: لا أنسى نعيماً أبداً. وفـي هذا الخبر: ولقد ذكرت عند مـوته قـول الشـاعر يعنـي أبـا خراش الهذلي:

الطويل فوالله لا أنسى قتيلاً رزئته * بجانب قوسى ما مشيت على الأرض

ثم علم أنه سينساه فقال:

بلى إنّها تعفو الكلوم وإنّما * نوكل بالأدنى وإن جلّ ما يمضي

وقال أبو الحسن في أخبار الطاعون: الذي بلغنا من خبر الطاعون أن الناس لا يجزعون فيه على موتاهم كجزعهم في غير الطاعون، وذلك لتأسي الناس بعضهم ببعض، ولما يدخلهم من الخوف، فكل إنسان يخاف على نفسه فيسلو عن الولد والأهل والقرابة.

وقال: وكانت الطواعين المشهورة العظام في الإسلام بالعراق خمسة: طاعون شيرويه بالمدائن في سنة ست من الهجرة.

والطاعون الجارف سنة تسع وسبعين في شوال. هلك في ثلاثة أيام في كل يوم سبعون ألفاً. مات لأنس بن مالك فيه ثلاثة وثمانون ابناً ويقال: وسبعون. ومات لعبد الرحمن بن أبي بكرة أربعون ابناً، وهرب عبيد الله بن عمير، مات له ثلاثون ابناً، وإنما هرب بهم من الطاعون. وقال البراء المازني: مات في الطاعون لصدقة بن عامر المازني سبعة بنين في يوم واحد، فدخل، فوجدهم قد سجوا جميعاً، فقال: اللهم، إني مسلم مسلم.

وقال محمد أبو عبد الله التميمي: هرب المرقع بن العلاء، أحد بني ربيعة ابن مالك بن زيد مناة، من الطاعون، وله اثنا عشر ابنا، فم اتوا جميعاً، فدفنهم في سفح سنام فرثاهم فقال:

الوافر دفنت الدّافعين الضّيم عنّي * برابيةٍ مجاورةٍ سناما

أقول إذا ذكرتهم جميعاً * بنفسي تلك أصداءً وهاما
فليت حمامهم إذ فارقونا * تلقّانا وكان لنا حماما
فلم أر مثلهم هلكوا جميعاً * ولم أر مثل هذا العام عاما

قال: أنشدني الرياشي ثلاثة أبيات منها ولم ينشدني الرابع.

وقال علي بن القاسم: حدثني رجل قال: رأيت في المنام أيام الطاعون كأنه أخرجت من داري اثنتا عشرة جنازة وأنا وعيالي اثنا عشر، فمات منا أحد عشر وبقيت وحدي، فقلت في نفسي: أنا تمام العدة، فخرجت من الدار ثم رجعت من غد إليها فإذا لص قد دخل للسرقة فطعن في الدار فمات، فأخرجنا جنازته.

قال أبو الحسن: بلغني أن رجلاً نبش في الطاعون قبراً فأخرج الميت من قبره وأخذ ثيابه فطعن من ساعته فمات فوجد والثياب معه.

وقال سليمان بن قحذم: خرجت في الطاعون الجارف إلى مكة، ودارنا مشحونة، فرجعت وقد خلت، فقال لي أبي: يا بني، ما بقي في الدار أحد ممن تركت غيري وغير أمي جدتك.

وقال معاذ التمار: بلغني أن دوراً كثيرة مات أهلها. فلما قدم الحجاج هدمها مخافة أن يكمن فيها الخوارج، واشترى الناس دوراً كثيرة فدفنوا فيها.

قال: بلغني أن داراً مات أهلها جميعاً، أغلقوا بابها وفيها صبي صغير رضيع لم يعلموا به، فلما خف الطاعون فتحوا الباب بعد أشهر فإذا صبي يحبو، فتعجبوا منه، فإذا كلبة تطفر إلى الدار فتربض ناحية ويحبو إليها الصبي فيشرب من أطبائها ثم تطفر الحائط إلى خارج. فلم يزل ذلك دأب الصبي حتى حبا حبواً.

قال: وأخبرت أن الدار كانت تصبح وفيها خمسون، وتصبح الغد وليس فيها واحد.

قال: وكان الرجل بعد الطاعون يلقى المرأة، فلو شاء أن يغصبها نفسها فعل قبل أن يمر أحد.

ثم خف الطاعون وخليفة مصعب بن الزبير على البصرة سنان بن سلمة الهذلي فخطب الناس فقال: اتقوا الله أيها الناس فإن عند الله أياماً مثل شوال. قال وكان طاعون القينات في شوال سنة سبع وثمانين، مات فيه الجواري.

ثم كان طاعون سنة إحدى وثلاثين ومئة في رجب فاشتد في شهر رمضان فكان يحصى في سكة المربد في كل يوم عشرة آلاف جنازة، أياماً، وخف في شوال.

وقال طارق: أخبرني رجل قال: تزوجت امرأة فدخلت بها ليلة الاثنين، وأصبحت غادياً من عندهم وهي عند أبيها وأمها وأختها وخادمهم، فعدت إليهم يوم الجمعة فلم يبق منهم أحد.

وهرب من الطاعون علي بن زيد بن جدعان إلى السيالة، وكان يجمع كل جمعة ويرجع. فكان إذا جمع صاحوا به: فر من الطاعون، فطعن فمات بالسيالة وهرب عمرو بن عبيد ورباط بن محمد بن رباط إلى الرباطية فقال إبراهيم بن علي بن عبد الرحمن الفقيمي:

الطويل لمّا استفزّ الموت كلّ مكذّبٍ * صبرت، ولم يصبر رباطٌ ولا عمرو

ورأى نافع رجلاً قد خرج من البصرة على حمار فرقاً من الطاعون، وكان نافع يعرفه فقال: انظروا يفر من الله على حمار.

وكـان ابـن شـبل بـن معبـد البجلـي بشـيراز فمـات أهلـه بالطاعون فبلغه، فجزع عليهم فقال:

الطويل سما لك في شيراز همٌّ فلم تنم * غريباً كما بعض الرّجال غريب

برتني صروف الدّهر من كلّ جانبٍ * كما ينبري دون اللّحاء عسيب

أقول لأصحابي وقد قذفت بنا * نوى غربةٍ عمّن نحبّ شطوب

متى العهد بالأهل الّذين تركتهم * لهم من فؤادي بالعراق نصيب

وهل ترك الطاعون لي من قرابةٍ * إليه إذا كان الإياب أؤوب?

وكنّا نرّجي أن نصير إليهم * فغالتهم من دون ذاك شعوب

مقادير لا يغفلن من كان يومه * لهنّ على كلّ الأنام رقيب

سقين بكأس الموت من قد أصبنه * وللحيّ من أنفاسهنّ ذنوب

فقد أصبحوا لا دارهم منك غربةٌ * بعيدٌ ولا هم في الحياة قريب

وهوّن عنّي بعض وجدي أنّني * رأيت المنايا تغتدي وتثوب

وأنّي رأيت النّاس أفنى كرامهم * حودث، كلّ العالمين تصيب

وما نحن إلاّ منهم غير أنّنا * إلى أجلٍ ندعى له فنجيب

وقال أبو عبد الرحمن العجلاني عن سعيد بن عبد الرحمـن بن حسان بن ثابت قال: هلك في طاعون عمواس مـن آل

الوليد بن المغيرة عشـرون فـتىً، ومـن آل صـخر مثلهـم. فقال رجل منهم:

السريع من ينزل الشّام ويعرس به * فالشّام إن لم يفننا كارب

يقول: إن لم يفننا فهو يقارب ذلـك. يقـال: كـرب الشـيء يكرب إذا قرب.

أفنى بني صخرٍ وفرسانهم * عشرين لم يطرر لهم شارب

ومن بني أعمامهم مثلهم * لمثل هذا العجب العاجب

طعناً وطاعوناً مناياهم * ذلك ما خطّ لنا الكاتب

واستشهد بالشام من بنـي المغيـرة سـبعة وسـبعون رجلاً في وقعة، فق ال خالـد بـن الوليـد بنفسـي أنتـم زعـم ابـن حنتمة يعني عمر بن الخطاب رحمه الله أن بني المغيرة لا يستشهدون.

وقال المدائني: كان بالكوفة طاعون سنة خمسين، فقـال المغيرة بن شعبة لأبي موسى: انطلق بنا. فخرج إلى دابق من الطاعون فقال أبو موسى: إلى الله أبق لا إلـى دابـق، فخرج المغيرة. فلمـا خـرج خـف الطـاعون فقيـل لـه: لـو رجعت إلى أهلك! قال: ما يريـدون منـي؟ فلـم يزالـوا بـه حتى أقبل إلى الكوفة، فقال: كأنكم بالطاعون قـد ختلنـي في خصاص بنـي عـوف، فطعـن فمـات. واسـتخلف علـى الكوفة جرير بن عبد الله البجلي وقال أبـو إسـماعيل عـن مجالـد عـن الشـعبي أن صـديقاً لشـريح خـرج هاربـاً مـن الطاعون، فأقـام بـالنجف فكتـب إليـه شـريح: إن المكـان الذي أنت به بعيـن مـن لا يفـوته طلـب، ولا يعجـزه هـرب، والمكان الذي خلفت لا يعجل امرءاً إلى حمامه قبل أجله، ولا يظلمه أيامه، وأنت وهم على بساط واحد، وإن النجفـة من ذي القدرة لقريب.

وقال أبو عاصم من ولد عباد بن زياد: كانت الطواعين بالشام كثيرةً وكانت الخلفاء وأبناء الخلفاء يتبدون ويهربون من الريف فينزلون البرية خوفاً من الطاعون. فلما أراد هشام بن عبد الملك أن ينزل الرصافة قيل له: يا أمير المؤمنين، لا تجزع فإن الخلفاء لا يطعنون، ولم نسمع بخليفة طعن ولم نره. قال: أتريدون أن تجربوا في? فتحول فنزل الرصافة وهي برية، وبنى فيها قصرين.

قال: وكان عبد العزيز بن الوليد ينزل أسيساً فقدم على أبيه بدمشق غلام للوليد فقال الوليد لابنه عبد العزيز: يا بني، ارجع إلى منزلك. قال: أبيت الليلة ثم أغدو. قال عزمت عليك إلا رجعت. فرجع ولم يدعه يبيت قال أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء: إن رجلاً من أهل البصرة أيام الطاعون الجارف لما رآه قد كثر أراد الهرب، فعمد إلى حمار له فجعل عليه متاعه، وغلام له يناوله جهازه، والغلام يرتجز:

مشطور الرجز لن يبق الله على حمار * ولا على ذي ميعةٍ مطّار

قد يصبح الله أمام السّاري

فقال له الرجل: صدقت. ثم حط رحله وأقام، فمات فيمن مات.

قال المدائني: قال الحسن البصري وذكر عنده الطاعون: ما أحسن ما أبلى الله فيه: ارتدع مذنب، وأنفق ممسك، ولم يغلط بأحد.

وقال أبو الحسن المدائني عن جناب بن موسى عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: لما احتضر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام فخيره بين البقاء في الدنيا وبين المصير إلى رحمة الله أو رفعه إليه وتعجيل ما وعده فقال صلى الله عليه وسلم: بل الرفيق الأعلى.

فكان يقول ذلك حتى قضى، صلوات الله عليه ورحمته وبركاته.

وأخبر المدئني عن شعبة عن سعيد بن إبراهيم عن عروة عن عائشة، رحمها الله، قالت: كنت أسمع أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يموت حتى يخير، فسمعته يقول صلى الله عليه وسلم في مرضه: الرفيق الأعلى، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فظننت أنه خير فاختار الآخرة.

وقال خلاد بن عبيدة عن علي بن زيد عن الحسن قال: قيل لأبي بكر في مرضه: لو أرسلت إلى الطبيب! فقال: قد رآني. قالوا: فما قال لك؟ قال: قال: إني فعال لما أريد. وفي رواية: إني أفعل ما أشاء.

وقال: أبو محمد الناجي عن الحسن: إن أبا بكر، رحمه الله، سمع عائشة رضي الله عنها وهو في سكرات الموت، وهي تقول:

الطويل لعمرك ما يغني الثّراء عن الفتى * إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصّدر

فقال: يا بنية: ألا قلت وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد وقال متمثلاً: مخلع البسيط وكلّ ذي إبلٍ مورثها * وكلّ ذي سلبٍ مسلوب

وكلّ ذي غيبةٍ يؤوب * وغائب الموت لا يؤوب

وآخر ما تكلم به: رب توفني مسلماً وألحقني بالصالحين وقال أبو بلال الأشعري عن محمد بن عاصم الأسلمي عن موسى بن عقبة المزني ق ال: كتب أبو بكر، رحمة الله عليه، وصيته بيده وهي: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر الصديق عند آخر عهده بالدنيا خارجاً

منهـا، وعنـد أول عهـده بـالآخرة داخلاً فيهـا حيـث، يـؤمن الكافر، ويتقي الفـاجر، ويصـدق الكـاذب. إنـي اسـتخلفت عليكم عمر بـن الخطـاب، رضـي اللـه عنـه، فاسـمعوا لـه وأطيعوا. فإن عدل فذلك ظنـي بـه ورأيـي فيـه. وإن جـار وبـدل فلا أعلـم الغيـب، والخيـر أردت، ولكـل امريـء مـا اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

وقال عمر بن غياث عن الهلالـي: كـان رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم إذا أفرطت عليه الحمى فـي وجعـه الـذي توفي فيه قالت فاطمة: يا بأبي وأمي. ثم تمثلت:

الطويل وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمةٌ للأرامل

قال: فأفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقـال: ذلـك قول عمك أبي طالب. ثم قال صلى الله عليه وسلم: ومـا محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل الآية.

قال أبو الحسن عن عاصم بن عمر عن عبيد الله بن عمرو عن زيد بن أسلم عن أبيه عن جـده أن كعـب الأحبـار قـال لعمر بن الخطاب رحمه الله: يا أمير المؤمنين، أنـت ميـت في ثلاث، أجد ذلك في بعـض الكتـب. قـال: أتجـد اسـمي ونسـبي؟ قـال: لا، ولكـن أجـد صـفتك وسـيرتك وزمانـك، فقال عمر:

الطويل توعّدني كعبٌ ثلاثاً يعدّها * ولا شكّ أنّ القول ما قال لي كعب

وما بي خوف الموت إنّي لميّتٌ * ولكنّ خوف الذّنب يتبعه الذّنب

وقال هشام بن عاصم عن الشعبي أن عمـر بـن الخطـاب رحمة الله عليه قال عند موته: ليتني أنجـو مـن هـذا الأمـر

كفافاً لا لي ولا علي. يا عبد الله، ضع خدي على الأرض، ويل لعمر ولأم عمر إن لم ينجه الله.

وقال الأصمعي لما طعن العلج ألقى ملحفةً كانت عليه وقال: يا لله للمسلمين! وقال الأصمعي أيضاً: لما طعن العلج عمر قال: وكان أمر الله قدراً مقدورا.

وقال سعيد بن مسلم عن أبيه أن عثمان بن عفان رحمه الله يوم دخل عليه فقتل، دعا بالمصحف فنشره، فكان أول حرف نظر إليه: فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم، وتمثل:

الطويل أرى الموت لا يبقي عزيزاً ولم يدع * لعادٍ ملاكاً في الأمور ومرتبا

يبيّت أهل الحصن والحصن مغلقٌ * ويأتي الجبال من شماريخها العلا

وقال أبو الحسن عن سعيد بن عبد العزيز السلمي عن أبيه أن الزبير رحمه الله قال حين طعنه ابن جرموز: ما له قاتله الله يذكر بالله وينساه! وذلك أن الزبير رحمه الله لما رآه هم به، فقال له ابن جرموز: أذكرك الله، فتركه ثم تغفله فطعنه. وتمثل الزبير:

الكامل ولقد علمت لو أنّ علمي نافعي * أنّ الحياة من الممات قريب

وقال طلحة بن عبيد الله رحمه الله يوم الجمل عند موته: مجزوء الكامل صرف الزّبير جواده * أنّى لتدركه وفاته

ثم قال حين نزل به الموت: تالله ما رأيت كاليوم مصرع أسد أضيع، وتمثل:

الطويل أرى الموت أعداد النّفوس ولا أرى * بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غد

وقال يعقوب بن داود الثقفي عن الحسين بن بزيغ: إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رحمه الله خرج في الليلة التي ضرب فيها في السحر وهو يقول:

الهزج اشدد حيازيمك للموت * فإنّ الموت لاقيكا

ولا تجزع من الموت * إذا حلّ بواديكا

وضربه ابن ملجم، فقال: ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رؤوف بالعباد. وقال علي حين ضرب: فزت ورب الكعبة. وكان آخر ما تكلم به أن قال: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

وقال أبو الحسن عن علي بن مجاهد عن عبد الأعلى بن ميمون بن مهران عن أبيه: إن معاوية قال في مرضه الذي مات فيه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كساني قميصاً فرفعته. وقلم أظفاره يوماً فأخذت قلامتها فجعلتها في قارورة فإذا مت فألبسوني ذلك القميص وقطعوا تلك القلامة واسحقوها وذروها في عيني وفمي ثم أغمي عليه، فقالت ابنته أو امرأة من أهله متمثلة:

الطويل إن مات مات الجود وانقطع النّدى * من النّاس إلاّ من قليلٍ مصرّد

وردّت أكفّ السّائلين وأمسكوا * من الدّين والدّنيا بخلفٍ مجدّد

ثم أفاق فقال لمن حضره من أهله: اتقوا الله فإن الله يقي من اتقاه، ولا واقية لمن لا يتقي الله.

وقال عوانة: لما حضرت معاوية الوفاة قال: يوم من ابن الأدبر طويل! ثم تمثل:

البسيط لقد جمعت لكم من جمع ذي حسبٍ * وقد كفيتكم التّرحال والنّصبا

ثم قال: إنكم لتقلبون حولاً قلباً، إن نجا من كبة النـار فهـو الرجل.

وفي غير هذا الإسناد أنـه قـال حيـن احتضـر لابنـة قرظـة: اندبيني فقالت:

الهزج ألا أبكيه ألا أبكيه * ألا كلّ الفتى فيه

وقال لابنتيه: قلباني، ففعلتا. فقـال: إنكمـا لتقلبـانه حـولاً قلباً إن وقي كبة النار. ثم تمثل:

الكامل لا يبعدنّ ربيعة بن مكدّمٍ * وسقى الغوادي قبره بذنوبٍ

وقال سعيد بن بشر: إن عبد الملك بن مـروان ليلـة قبـض قلق فسمع صوت قصار فقال: ما هذا? فأخبر، فقال حيـن ثقل: ليتني كنت غالاً أعيش بما أكتسب يوماً بيـوم. فقيـل لأبي حازم: إن عبد الملك قال كذا وكذا. فقال: الحمد للـه الذي جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه، ولا نتمنـى مـا هم فيه.

وقال عبد الرحمن بن أبي الزناد عـن أبيـه أن سـليمان بـن عبد الملك قال عند الموت متمثلاً بقول الحارث بن عباد:

الرجز إنّ بنيّ صبيةٌ صغار * أفلح من كان له كبار

إنّ بنيّ غلمةٌ صيفيّون * أفلح من كان له ربعيّون

فقال له عمر بن عبد العزيز: يا أمير المـؤمنين، أفلـح مـن تزكى وذكـر اسـم ربـه فصـلى. فقالهـا، ثـم قـال: أسـألك منقلباً كريماً. ثم قضى وقال مسلم بن خالد عن ابـن أبـي نجيح: تأوه طاوس في مرضه الذي مات فيه، فقيل له: يـا أبـا عبـد الرحمـن، شـكوت ربـك فق ال: ليتنـي أخـرج مـن مرضي هذا لا علي ولا لي.

وقال محمد بن جعفر عن أبيه: دخلت على عبد الرحمن بن الفضل ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب في مرضه فبكى وقال: أبكي لصبيات خلف هذا الستر، لولاهن لهان علي الموت. إني لمؤمن، وإني لتائب، وإن الله لغفور رحيم. قلت: رحمك الله فالذي رجوته لمغفرة ذنبك فارجه لخير بناتك. فقال: صدقت، جزاك الله خيراً.

وقال أبو الحسن عن معاوية بن محمد عن عبد الله بن بجير قال: قال عبد الله بن عمرو بن العاصي لأبيه: يا أبه، كنت تقول: ليتني ألقى رجلاً عاقلاً عند نزول الموت به يحدثني ما يجد. وقد نزل بك وأنت ذلك الرجل فصف لي الذي تجد. قال: يا بني لكأن جنبي في تخت ولكأني أتنفس من سم إبرة، ولكأن غصن شوك يجر به من قدمي إلى هامتي. ثم قال متمثلاً قول أمية بن أبي الصلت:

الخفيف ليتني كنت قبل ما قد بدا لي * في رؤوس الجبال أرعى الوعولا

والله ليتني كنت حيضةً عركها الإماء. ثم مد يده فقال: اللهم، إني لست ذا قوة فأنتصر، ولا ذا براءة فأعتذر. اللهم إني مقر مذنب مستغفر.

وقال عوانة: قال عمرو بن العاصي عند موته: اللهم، إنك أمرتنا فلم نأتمر، وزجرتنا فلم ننزجر، فإنا لا نعتذر، ولكنا نستغفر.

وقال يعقوب بن عوف بن عبد الملك بن نوفل: لما نزل بالمغيرة بن شعبة الموت قال: اللهم، هذه يدي بايعت بها نبيك صلى الله عليه وسلم، وجاهدت في سبيلك، فاغفر لي ما يعلمون من ذنوبي وما لا يعلمون.

وقال أبو الحسن عن مسلمة بن محارب: لما ثقل زياد قدم عليه الهيثم بن الأسود النخعي بعهده على الحجاز،

فقيل له، فقال: شربة من ماء أسيغها أجد طعمها أحب إلي مما جاء به الهيثم.

وقال علي بن مجاهد عن محمد بن إسحاق عن الزهري قال أبو العباس وحدثني ببعض هذا الحديث وزاد عليه شيئاً العباس بن الفرج الرياشي قال: أغمي على أمية بن أبي الصلت في مرضه الذي مات فيه، وهو يقول: لبيكما لبيكما، هأنذا لديكما، لا بريء فأعتذر، ولا ذو قوة فأنتصر. ثم أغمي عليه ثم أفاق وهو يقول: لبيكما لبيكما، هأنذا لديكما، لا مال يفديني، ولا عشية تحميني. وأغمي عليه ثم أفاق وهو يقول: لبيكما لبيكما، هأنذا لديكما، محفوف بالنعم:

الرجز إن تغفر اللّهمّ تغفر جمّا * وأيّ عبدٍ لك لا ألمّا?!

ثم قال:

الخفيف كلّ عيشٍ وإن تطاول يوماً * قصره مرّةً إلى أن يزولا

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي * في رؤوس الجبال أرعى الوعولا

اجعل الموت نصب عينيك واحذر * غولة الدّهر إنّ للدّهر غولا

قال أبو الحسن عن إسحاق بن أيوب: إن عبد الله بن عبد الملك بن مروان لما نزل به الموت بشر بقدوم مال له كثير كان له بمصر، فقال: مالي وله! ليته كان بعراً حائلاً بنجد.

وقال عوانة: قال نافع بن علقمة حين حضر: ليت القرابة التي كانت بيني وبين مروان كانت بيني وبين رجل من الزنج، ولم أدخل في شيء من هذا الأمر.

وقال أبو الحسن عن الحسن بن دينار: كان الحسن البصري يغمى عليه ثم يفيق فيقول: ساعة صبر واحتساب وتسليم لأمر الله عز وجل حتى مات.

قال: وكان محمد بن سيرين يقول وهو في الموت: في سبيل الله نفسي أعز الأنفس علي، حتى هلك.

وقال يحيى بن زكريا عن أبيه إن الشعبي قال وهو بالموت: اشهدوا أني قد احتسبت نفسي عند الله تعالى.

وقال قيس بن الربيع: بلغني أن إبراهيم النخعي بكى عند الموت فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ولم لا أبكي؟ وإنما أنتظر مبشراً يبشرني بالجنة أو بالنار. والله لوددت أنها تجلجل في صدري إلى يوم البعث.

وقال حفص بن ميمون عن يونس وغيره عن الحسن أنه قال: إذا كان يوم القيامة قيل لمن كان يحدث بالرخص: لم حدثتم عبادي بالرخص قالوا: سمعناك تذكر أن رحمتي وسعت كل شيء، وأنك تغفر الذنوب غير الشرك، فحدثناهم ليشكروك ولا يقنطوا من رحمتك. فيقول لهم: قد جعلت ثوابكم على ذلك الجنة.

وقال أبو الحسن: بلغني أن سليمان التيمي قال لابنه وهو بالموت: يا بني، حدثني بالرخص حتى ألقى الله وأنا له راج.

وقال أبو الحسن عن أبي محمد الناجي قال: قال حذيفة وهو بالموت: حبيب جاء على ناقة، لا أفلح من ندم. الحمد لله الذي سبق بي الفتن. أليس بين يدي ما أعلم.

وقال النضر بن إسحاق: قيل للحسن: إن الحجاج قال عند الموت: اللهم، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تغفر لي. اللهم، فاغفر لي ذنوبي، فإنها صغيرة في في جنب عفوك. فقال الحسن: أقالها؟ قالوا: نعم. قال: عسى! وقال أبو

الحسن عن مسلمة بن محارب قال: قال مسلمة بـن عبـد الملك لعمر بن عبد العزيز: أوص إلي ببنيـك أو: ألا توصـي إلي ببنيك فقال: أوصي بهم إلى الـذي نـزل الكتـاب، وهـو يتـولى الصـالحين ونظـر إلـى ولـده فقـال: بنفسـي فتيـة أفقرتهم من هذا المال، ثم قال: ونعم المذهوب إليه ربـي. وقرأ قاريء مـن ناحيـة الـبيت، تلـك الـدار الآخـرة نجعلهـا للـذين لا يريـدون علـواً فـي الأرض ولا فسـاداً، والعاقبـة للمتقين. فقالها عمر ثم قضى.

قال عوانة: قال الوليد بن عقبة عند الموت وهو بالبليخ من أرض الجزيرة: اللهم، إن كان أهـل الكوفـة صـدقوا علـي، فلا تلق روحي منك روحاً ولا ريحاناً، وإن كانوا كـذبوا علـي فلا ترضهم بأمير، ولا ترض أميراً عنهم، وانتقـم لـي منهـم واجعله كفارة لما لا يعلمون من ذنوبي.

قال أبو الحسن عن علي بن سليمان: دخل عمـر بـن عبـد العزيز على رجل وهو يجود بنفسه، فقال له: استغفر الله، فقيل له: يا أبا حفص، لـو لقنتـه شـهادة أن لا إلـه إلا اللـه، فقال عمر: إن لا إله إلا الله من ذنبه، ولـه ذنـوب يسـتغفر الله منها، فـإذا اسـتغفر اللـه فقـد وحـده، وإن المسـتغفر الخائف بعرض خير.

وقال أبو الحسن المـدائني عـن المنهـال بـن عبـد الملـك، مولى بني أميـة حبـس هشـام بـن عبـد الملـك عيـاض بـن مسلم كاتب الوليد بن يزيد وضربه وألبسـه المسـوح فلـم يزل محبوساً مدة هشام، فلما ثقل هشـام وصـار فـي حـد من لا يرجى برؤه رهقته غشية، فظنوا أنه قد مات، أرسـل عياض ابن مسلم إلى الخزان أن احتفظوا بما في أيـديكم، فلا يصلن أحد إلى شيء وأفاق هشام من غشيته، فأرسـل يطلب شيئاً من الخزان فمنع. فقال هشام: أرانا كنا خزاناً

للوليد، وخرج عياض من ساعته من الحبس، فختم الأبواب والخزائن، وأمر بهشام فأنزل عن فرشه، ومنعهم أن يكفنوه من الخزائن. فكفنه غالب، مولى هشام، ولم يجدوا قمقماً يسخن فيه ماء حتى استعاروه، فقال الناس: إن هذه لعبرةً لمن اعتبر.

قال أبو الحسن عن عبد الله بن قائد عن أشياخ بني تميم قالوا: خرج إياس ابن قتادة يوم الجمعة من المسجد فنظر إلى السماء ثم قال: مرحباً بك، قد كنت أنتظر مجيئك! ثم سقط فحمل إلى أهله، فمات. فحمل إلى ملحوب فدفن بها، فبها قبره.

وقال أبو المنذر عن عمه عامر بن حفص قال: قيل للربيع بن خشيم حين ثقل: ألا ندعو لك أصحاب الطب؟ فقال: قد أردت ذلك ثم ذكرت عاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً، وعلمت أنه كان فيهم الداء والمداوي. فهلكوا جميعاً.

وقال أبو مخنف: مرض معبد بن طوق العنبري فجزع فقيل له: كأنك تخاف أن تموت! فقال: إي والله، ما أمرض إلا خفت ذاك. قيل له: ولم؟ قال: لأني قد استأنيت احتضار المدة، وانقضاء العدة، وتمام الظمأ واتجاه القرب.

وقال عوانة عن الأسود بن عبيد: قال أبو قيس بن الأسلت عند الموت: اللهم، إنك تعلم أني لم أقطع رحماً، ولم أشرب بإناء غادر، ولم أصب بكنة ولم أبت ليلةً جنباً حتى أصبح، فاغفر لي.

وقال الحرمازي: هلك لرجل من أهل البادية ابنان، فسئل عن جزعه عليهما فقال: كنت أتوهمهما حتى كأن الأرض تنشق عنهما فأنظر إليهما. قيل له: ثم مه؟ قال: ثم كان جرحاً فبرأ.

وقال أبو الحسن: أخبرني بعضهم قال: أتيت امرأةً أعزيها عن ابنها. قال فجعلت تثني عليه فقالت: كان، والله، مـاله لغير بطنه، وأمره لغير عرسه، وكان:

الطويل رحيب الذّراع بالّتي لا تشينه * وإن كانت الفحشاء ضاق بها ذرعا

قال: فقلت لها: هل لك منه خلف? وأنا أعني الولـد قـالت نعم، بحمد الله كثير، طيب ثواب الله عليـه، ونعـم العـوض من الدنيا والآخرة.

وقـال: دخـل درواش بـن حـبيب العجلـي علـى جعفـر بـن سليمان يعزيه بأخيه محمـد بـن سـليمان، فلمـا نظـر إليـه جعفر قال: إن كان عند أحد فرج فعند درواش. فسـلم ثـم قال: أيها الأمير، التمس ثواب الله بحسن العزاء، والشـكر لأمر الله، واذكر مصـيبتك فـي نفسـك تنسـك فقـد غيـرك واذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: من أصابته مصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها من أعظم المصائب. واذكـر قـول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: إنك ميـت وإنهـم ميتون، وقوله تعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد. وخـذ بقول عبد الله بن أراكة في أخيه عمرو:

الطويل تفكّر فإن كان البكا ردّ هالكاً * على أحدٍ فاجهد بكاك على عمرو

ولا تبك ميتاً بعد ميتٍ أجنّه * عليٌّ وعبّاسٌ وآل أبي بكر

قال: وهلك أخ لبعض الأعـراب فـأظهر لـه الشـماتة بعـض بني عمه، فأنشأ الأعرابي يقول:

الكامل ولقد أقول لذي الشّماتة إذ رأى * جزعي، ومن يذق الفجيعة يجزع

اشمت فقد قرع الحوادث مروتي * وافرح بمروتك الّتي لم تقرع

إن تبق تفجع بالأحبّة كلّهم * أو تردك الأحداث إن لم تفجع

قال: ومات بنون لا مرأة تباعاً فكلمناها، فحدثتنا ساعة ثـم ضحكت، فقالت لها امرأة: أتضحكين! أجنون بـك أم فنـد! قالت: لا، وأبيك، ولكن الشر لم يجد لي مزيداً.

قال أبو الحسن المدائني: وأنشد ابن كناسة:

الطويل لا تجزعي يا أمّ زيدٍ فإنّه * ستأتي المنايا كلّ حافٍ وذي نعل

فلولا الأسى ما بتّ في النّاس ليلةً * ولكن إذا ما شئت جاوبني مثلي

وقال محمد بن كناسة عن خشاف الفقعسي قال: حدثتني أمي قالت: دخلت علينا عجوز للحي اسـمها باديـة ورحـال إخـوتي ثمانيـة فـي جـانب الـبيت فقـالت لـي لمـن هـذه الرحال? أنزل بكم الليلة ركب? قلت: هذه رحـال إخـوتي. فقالت: لقد ولدت لك أمك حزناً طـويلاً. قـالت: وصـدقت بادية، ذهبت نفسي عليهم قطعاً. وأنشدت:

الكامل ذهبوا بنفسي أنفساً إذ فارقوا * فالعيش بعد منغّصٌ مذموم

وقال عمر بن غياث: أخبرني الثقة قال: دفن أعرابـي ابنـا له، فلما أجنه وقف على قبره وأنشأ يقول:

الكامل لمّا مشى ورجوته لغدٍ * وطمعت أن يقوى به أزري

ويكون من أعمامه خلفاً * فيقول بعد تأطّرٍ ظهري

رشقته عن قوسٍ منيّته * فغدا رهينة مظلم القعر

قد كان يضرب من مضى مثاً * وجد الثّكول وكنت لا أدري

ما ذاك حتّى ذقت لوعته * فألذّ منها لوعة الصّبر

وخرج رجل مع خالد بن الوليد بدومـة الجنـدل، فاستشـهد فجزع عليه أبوه فبكاه حتى كثر عليه بكاؤه، فليم في ذلـك وعوتب، فقال: دعوني أبكي عليه ما أسعدتني عيني، فـإن دموعها ستنفد وتبلى كما ذهب نافع وبلي. وقال يرثيه:

الكامل ما بال عيني لا تغمّض ساعةً * إلاّ اعترتني عبرةٌ تغشاني

أرعى نجوم اللّيل عند طلوعها * وهناً وهنّ من الغيار دوان

يا نافعاً من للفوارس أحجمت * عن شدّةٍ مذكورةٍ وطعان?

فلو أستطيع جعلت منّي نافعاً * بين اللّهاة وبين عكد لساني

يا نافعاً من للفوارس إذ ثووا * في يوم بؤسٍ أو ليوم ليان?

قال أبو الحسن: حدثني كليب بـن خلـف عـن إدريـس بـن حنظلة قـال: أصـيب عمـرو بـن كعـب النهـدي بتسـتر مـع مجزأة بن ثور فكتموا أباه الخـبر ثـم علـم بعـد فلـم يجـزع وقال: الحمد لله الذي جعل من صلبي مـن أصـيب شـهيداً وقال:

الوافر فهل تعدو المقادر يا لقومي * هلاك المال أو فقد الرّجال!?

فكلاًّ قد لقيت وقلّبتني * صروف الدّهر حالاً بعد حال

فما أبقين منّي غير نضوٍ * به أثر الرّحالة والحبال

عروفٍ كلّما جلبت قروحٌ * به نكئت بأعدالٍ ثقال

ثم استشهد ابن له آخر يقال له حمل مع سعيد بن العاصي بجرجان فبلغه فقال: الحمد لله الذي تـوفى منـي شـهيداً. وقال:

الطويل جزى حملاً جازي العباد كرامةً * وعمرو بن كعبٍ خير ما كان جازيا

خليليّ وابنيّ اللّذين تتابعا * شهيدين كانا عصمتي ورجائيا

ومن يعطه الله الشّهادة يعطه * بها شرفاً يوم القيامة عاليا

وقال محمد بن كناسة: زوج زبان بن منصور الحسن بن علي بن أبي طالب خولة ابنة زبان، فمكثت عنده حولاً لا تكتحل ولا تدهن حتى وضعت له ابناً، فاكتحلت وتهيأت له: فقال لها الحسن: ما حملك على ما صنعت؟ فقالت: كرهت أن تقول النساء: احتفلت فلم تصنع شيئاً. فأما إذ جاء هذا فما أبالي ما كان. فقال لها الحسن: وابأبي أنت! فلما مات الحسن اشتد جزعها عليه، فقال زبان:

الكامل نبّئت خولة أمس قد جزعت * من أن تنوب نوائب الدّهر

لا تجزعي يا خول واصطبري * إنّ الكرام بنوا على الصّبر

قال: وحدثني رجل من بجيلة عن امرأة من بني العنبر يقال لها مهدية، قال: وكان لها بنون وإخوة فهلكوا حتى بقي لها ابن فمات فقالت:

الوافر أمنجاب الأكارم من لركبٍ * أناخوا جنبةً ودنوا أصيلا?

أمنجاب الأكارم عد إلينا * لكي نشفي برؤيتك الغليلا

كأنّك لم تقل للرّكب سيروا * ولم ترحل عذافرةً ذمولا

وقال عن علي بن سليمان عن الحسن قال: الخير الذي لا شر فيه الشكر مع العافية، والصبر عند المصيبة. فكم من منعم عليه غير شاكر، ومبتلى غير صابر.

وقال أبو الحسن: قال جهم بن حسـان: بلغنـي أن توسـعة بن أبي عتبان جزع على أخيه عتبة فقال يبكيه:

الكامل منع الرّقاد تحوّبي ما أهجع * ونبا بجنبي عن فراشي مضجع

أعتيب قد كنت امرءاً لي جانبٌ * حتّى رزئتك والجدود تضعضع

فلمن أقول إذا تلمّ ملمّةٌ * أرني برأيك أم إلى من أفزع!?

قد كنت أنظر في المقامة سادراً * فنظرت قصدي واستقام الأخدع

وفقدت إخواني الّذين بقربهم * أعطي الدّنيّة من أشاء وأمنع

نعم الفتى من آل بكرٍ ألبسوا * أثوابه في اللّحد ثمّ تصدّعوا

عنه وما طابت بذاك نفوسهم * ولكلّ جنبٍ لا محالة مصرع

وجزعت عليه أخته عمرة فقالت:

الكامل قل للأرامل واليتامى قد ثوى * فلتبك أعينها على عتّاب

أودى ابن كلّ مخاطرٍ بتلاده * وبنفسه بقيا على الأحساب

الرّاكبين من الأمور صدورها * لا يركبون معاقد الأذناب

قـال أبـو الحسـن: قـال الهلالـي: أغمـي علـى سـعيد بـن المسيب فوجه ثم أفاق فقال: ما هـذا? فقيـل لـه، فقـال: أوليس وجهي لله جل ذكره حيث كان!.

وقال الهلالي: كان عثمان بن عفان، رحمه اللـه، إذا وقـف على قبر بكى، فقيل له: يا أمير المؤمنين، إنك لتبكي عنــد

القبر بكاءً ما تبكيه عند شيء! فقال: نعم، إنه آخر منازل الدنيا وأول منازل الآخر، فإن شدد على صاحبه فما بعده أشد، وإن هون على صاحبه فما بعده أهون. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه.

وقال الهلالي: لما حضرت معاوية الوفاة، قيل له: قل لا إله إلا الله. فضعف عنها، ثم قيل له فضعف، فثلث عليه. فقال: أولست من أهلها؟! وقال الهلالي: أثني قوم على عوف الأعرابي وهو في الموت، فقال: يا قوم، أمدونا بالدعاء، وأعفونا من الثناء.

باب الجفاة عند الموت

قال أبو العباس رحمه الله تعالى: ونذكر الجفاة عند الموت: قال علي بن محمد عن علي بن مجاهد عن ابن إسحاق عن الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي طالب وهو في الموت: يا عم، قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند ربي. قال: يا بن أخي، لولا أن تكون سبةً عليك بعدي لأقررت بها عينك.

وقال: قال الزهري: مر عبد الله بن مسعود بأبي جهل فقال: الحمد لله الذي أخزاك يا عدو الله. قال: يا بن أم عبد، ما أخزاني الله. لست بأول سيد قتله قومه. إن أشد من ذلك علي ألا يكون ولي مني ما تريد أن توليه، رجل من صميم المطيبين، فوضع ابن مسعود رجله على عنقه فقال: أرويعياً بالأمس بمكة. لقد ارتقيت مرتقى صعبا قال أبو الحسن: سئل وكيع بن الدورقية: كيف قتلت عبد الله ابن خازم؟ قال: قعدت على صدره، وغلبته بفضل فتاء كان لي عليه وناديت: يا لثارات دويلة يعني أخاه من أمه. وكان دويلة أخا وكيع من أمه، قتله عبد الله. قال:

وكنت طعنته في شدقه، فجمع ما كان فـي فيـه مـن الـدم والريق فتنخم بـه، فملأ وجهـي وقـال: قبحـك اللـه، أتقتـل كبش مضر بأخ لك لا يساوي كف نوى!.

قال: وكان ابن هبيرة يقول: هـذه واللـه البسـالة، لقـدرته على كثرة ريقه عند الموت.

وقال عبد الله بن قائد: كان طريف بن نافع الباهلي عالمـاً بالنسب، فلما ثقل قال لقومه وهو في الموت: بلـوا فمـي بماء، فعصروا فـي فيـه مـاءً بقطنـه، ثـم قـال: أجلسـوني فأجلسوه فقال: فلان ليس لأبيه الذي يدعى له. فقيل لـه: أتقول هذا وأنت على هذه الحال! فقـال: خفـت أن أمـوت وأنتم في شك منه، ثم أضجعره فمات.

وقال يعقوب بن عوف عن عبد الله بن أبـي بكـر أن بجـرة بن فراس القشيري قيل له وقد نزل به الموت: قل لا إلــه إلا اللــه، قـال: أشـهد أن أبـا الزاهريـة أو أبـا حـرب نعـم الفارس كان يوم النخيل ثم مات.

وقال عوانة: قال الحجاج لـوازع بـن ذؤالـة الكلـبي: كيـف قتلت همام بـن قبيصـة الفـزاري؟ قـال: مـربـي والنـاس منهزمون، ولو شاء أن يفـوتني فعـل، فلمـا رآنـي قصـدني فضربني وضربته، وسقط وحاول القيـام فلـم يقـدر عليـه، وقال وهو في الموت:

الطويل تعست ابن ذات البظر أجهز على امريءٍ * يرى الموت خيراً من فرارٍ وأكرما

ولا تتركنّي بالحشاشة إنّني * صبورٌ إذا ما النّكس مثلك أحجما

فدنوت منه. فقال: أجهز علي قبحك الله، فقد كنـت أحـب أن يلي هذا مني أربط جأشاً منك. فاحتززت رأسه فـأتيت به مروان وأخبرته الخبر، فقال: لا تبعد رجالات قيس!

قال أبو عبد الرحمن التميمي: جاء رجل مـن كلـب بـرأس زياد بن عمرو العقيلي إلى مروان، فقال لـه مـروان: مـن قتل هذا؟ قال: أنا. قال: كذبت! هذا أشـرف وأشـجع مـن أن تقتله. قال: أنا، والله، قتلته، مر بي يعدو به فرسه وهو يقول:

مشطور الرجز قد طاب ورد الموت مروان فرد * لا تحسبنّ العيش أدنى للرّشد

لا خير في طول الحياة في كبد

فطعنته فسقط، ثم نزلت إليه وهو يجود بنفسه ويقول:

السريع بعداً وسحقاً لامرئٍ عاش في * ذلٍّ وفي كفّيه عضبٌ صقيل

وقال يزيد بن قحيف: لما قتل حلحلة بن قيس وسـعيد بـن عيينة من قتلا من كلب، رجعـوا إلـى خيـبر فأقـاموا. فلمـا ظفر عبد الملك استعداه الكلـبيون وقـالوا: دماءنـا! فأخـذ عبـد الملـك سـعيداً وحلحلـة. فأمـا سـعيد فكـان يسـبح ويستغفر، وأما حلحلة فقال: أرحنا منك يا بن الزرقاء، فلـو ملكتها منك لما تركتك طرفة عين. وقال:

الطويل إن أك مقتولاً أقاد برمّتي * فمن قبل قتلي ما شفى نفسي القتل

وقد تركت حربي رفيدة كلّها * محالفها في دارها الجوع والذّلّ

ومن عبد ودٍّ قد أبرت قبائلاً * فغادرتهم كلاًّ يطيف به كلّ

وقال أيضاً:

الطويل لعمري لئن شيخا فزارة أسلما * لقد خزيت قيسٌ وقد ظفرت كلب

فلا تأخذوا عقلاً وخصّوا بغارةٍ * بني عبد ودٍّ بين دومة والهضب

سلامٌ على حيّي عديٍّ ومازنٍ * جميعاً وخصّا بالسّلام أبا وهب

أبو وهب هو زبان بن منظور بن زبان. فقال لما بلغه قـوله وخصا بالسلام أبا وهب: رحمك الله أبـا ثوابـة، لقـد كفيتنـا العـار والنـار، وأدركـت الثـار، وللقـوم فينـا فضـل، فلـم تخصصنا عليهم، وقد ظلمتهم!.

فلما دعي به ليقتل قيل له: أصبر حلحل، فبرك وقال:

الرجز أصبر من عودٍ بجنبيه الجلب * قد أثّر البطان فيه والحقب

وقال:

الرجز أصبر من ذي ضاغطٍ عركرك * ألقى بواني زوره للمبرك

ومد عنقه فقتله رجل من بني عبد ود.

وقال عوانة ويزيد بن عياض أن مسلم بن عقبة المري لمـا قتل أهل المدينة وتوجه إلـى مكـة فنـزل بـه المـوت بثنيـة هرشا أو بقفـا المشـلل فـدعا حصـين بـن نميـر السـكوني فقال: يا برذعة الحمار، إن أمير المؤمنين عهد إلي إن نزل بي الموت أن أوليك، وأكره خلافه عند الموت، ولـولا ذلـك لكان الوالي حبيش بن دلجة فإنه أولى بذلك منـك. احفـظ عني ما أقول لك: لا تطيلن المقام بمكة، فإنها أرض جردة محتدمة الحر، ولا تصلح الدواب بهـا، ولا تمنـع أهـل الشـام من الحملة، ولا تمكن قريشاً من أذنك، فـإنهم قـوم خـدع. ليكن أمرك الوقاف ثم الثقاف ثم الانصراف. ولئن دخلـت النار بعد قتلي أهل الحرة إني إذن لشقي.

وقال عثمان بن الضحاك عن ذكوان مولى مروان قال: بعث يزيد بطبيب إلى مسلم فقال مسلم للطبيب: ويحك، إنما كنت أحب أن أبقى حتى أشفي نفسي من قتلة عثمان، وقد أدركت ما أردت. فما شيءٍ أحب إلي من الموت على طهارتي قبل أن أحدث حدثاً. فإني لا أشك في أن الله عز وجل طهرني من ذنوبي بقتل هؤلاء الأرجاس.

وقال ابن جعدبة: قال مسلم بن عقبة وهو بالموت لحصين بن نمير: إنك تقدم على قوم لا عدة ولا سلاح لهم، جبال مشرفة عليهم، فانصب عليهم المنجنيق في موضعين بين جبلين فإن تعوذوا بالبيت فارمه، فما أقدرك على بنائه. ومات.

وقال حمزة بن إبراهيم بن مضرس: قيل لرجل من بني قريع: قل لا إله إلا الله وقدم خيراً فقال:

البسيط يا ربّ قائلةٍ يوماً وقد لغبت * كيف الطّريق إلى حمّام منجاب

ومات من ساعته.

وقال عبدة العنبري: قيل لعبد الله بن شعبة بن القلعم: لو قدمت لنفسك خيراً، فقال لبنيه: يا بني إن قوماً يقولون لكم بعدي: اقضوا دين أبيكم عنه، فلا تفعلوا، فإن لأبيكم ذنوباً كلها أعظم من الدين. اللهم، إن تغفر تغفر جماً. فبكت امرأته، فقال: لا تعصري عينيك علي، وإذا مت فاركبي بغلاً قوياً وطوفي اليمن وانظري أطول بني تميم رقبةً فتزوجيه. فلما هلك تزوجها أبو شيخ بن العرق الفقيمي.

وقال: لما حضرت لبيد بن ربيعة الوفاة قال لبني عمه: أسمعوني كيف تبكون علي. فقال رجال منهم أشعاراً لم يرضها، فقال بعضهم: الطويل

لتبك لبيداً كلّ قدرٍ وجفنةٍ * وتبك الصّبا من فاد وهو حميد

ولما حضرت الفرزدق الوفاة قال لأهلـه ومـن اجتمـع إليـه من قومه:

الوافر أروني من يقوم لكم مقامي * إذا ما الأمر جلّ عن العتاب

إلى من تفزعون إذا حثيتم * بأيديكم عليّ من التّراب

فقالت مـولاته لـه: إلـى اللـه. فقـال: وأنـت تعيشـين فـي مالي?! امحوا اسم الخبيثة من الوصية.

وقال المدائني: لما هلك الأحوص بن محمد بن عبد الله بن ثابت الأنصاري كان آخر ما قال، ورأسه في حجر جارية لـه يقال لها بشرة:

الطويل ما لجديد الموت يا بشر لذّةٌ * وكلّ جديدٍ تستلذّ طرائفه

فلا ضير إنّ الله يا بشر سائقي * إلى منزلٍ فيه تكون خلائفه

فلست وإن عيشٌ تولّى بجازعٍ * ولا أنا ممّا حمّل الموت خائفه

وقال عوانة: لما حضر بأخرة قيـل لـه: قـل لا إلـه إلا اللـه. قال: قد بلغ الأمر إلـى هـذا? وقـال مغلـس بـن عبـد اللـه المحاربي: كنت بساباط فسـمعت غلامـاً يصـيح واسـيداه، يعني نوفل بن صالح مولى بني جعفر، فأتيته فإذا هو يجـود بنفسه. فقلت: أبا صالح، قل لا إله إلا الله، فأبى وقال:

الطويل أيا ويح نفسي حسب نفسي الّذي بها * ويا ويح أهلي ما أصيب به أهلي

فقلت: قل لا إله إلا الله. فأبى، وجعل يردد هذا البيت حتى قبض.

وقال يونس بـن حـبيب: لمـا حضـرت أخـاه الأبـح الكنـدي الوفاة قيل له: قل لا إله إلا اللـه، فلمـا أكـثروا عليـه جعـل يتقلب على جنبه ويقول: وقد حيل بين العير والنّزوان

وقال أبو عمـرو المـدني وغيـره: إن سـالم بـن دارة وهـي أمه، وأبوه مسافع بن عقبة، من بني عبد الله بــن غطفــان وقع بينه وبين زميل بن أم دينار وأبوه أبير، من بني فــزارة شر، فضربه، فجرحـه أبيـر، فأدخـل المدينـة، وحمـل إلـى عثمان بن عفان، فأمر عثمان الطبيب فنظر ما مبلغ جرحه ثم أمره فداواه، فأفاق من وجعه، فدسـت أم البنيـن بنـت عيينة بن حصن وهي امرأة عثمـان إلـى الطـبيب دينـارين. وقال قوم: بل أعطاه ذلك منظور بن سـيار فسـم جرحـه، فانتقض فقال لأبيه وهو بالموت يحضه على قتل منظور:

البسيط أبلغ أبا سالمٍ عنّي مغلغلةً * فلا تكوننّ أدنى القوم للعار

لا تأخذن مئةً منّي مكمّلةً * وإن أتاك بها تحدى ابن عمّار

لو كان زيدٌ هو المقتول لأعترفوا * وسط الدّيار غلاماً غير عوّار

ومات من يومه. فقـال أبـوه: إن ابنـي عقنـي فـي حيـاته، وكلفني تعباً بعد موته.

وقال أبو الحسـن قـال أبـو العبـاس: وحـدثنيه أبـو عثمـان المازني وحدث به أبو الحسن عن عبد الله بن مسلم قال: قيـل لامـرأة مـن بنـي نميـر: أوصـي فحـدثني أبـو عثمـان المازني أنها قالت: ما أحب أن أوصـي. قيـل: إن لـك فـي ذلك لأجراً، قالت: من الذي يقول:

الوافر لعمرك ما رماح بني نميرٍ * بطائشة الصّدور ولا قصار

قالوا: زياد الأعجم، قالت: وممن هو? من بني نمير قالت: فثلثي لبني نمير.

وقال أبو الحسن عن كليب بن خلف قال: مرضت عجوز من بني نمير فأتوها بعطاء ابنها، وكان غائباً، فقالوا: هذا عطاء ابنك، وقد نقصناه درهمين. قالت: ولم? قالوا: قتل رجل من بني نمير رجلاً من بني سلول، فحملنا الدية شيئاً تراضوا به، فتناولت درهمين آخرين فألقتهما إليهم وقالت: قولوا له يقتل آخر، وادفعوا هذين في الدية، فضحكوا وخرجوا، فما غابوا حتى ماتت.

وقال عوانة: قيل للحطيئة عند موته: لك مال فأوص منه للمساكين: قال: بل أوصيهم بإلحاف المسألة. قيل: فأعتق غلامك سيار. قال: هو عبد ما بقي على ظهر الأرض عبسي. قيل: فأوص فإن لك بنات. قال: مالي كله للذكور دون الإناث. قالوا: إن الله جل ذكره لم يقل هكذا. قال: لكني أقوله. وأوصيكم بالأيتام شراً، كلوا أموالهم، وانكحوا أمهاتهم، واحملوني على حمار، فلعلي لا أموت، فإنه لم يمت عليه كريم قط، وويل للشعر من رواية السوء.

وقيل له وهو يجود بنفسه: قل لا إله إلا الله، فتمثل قول الشماخ:

الطويل فظلّت بيمؤودٍ كأنّ عيونها * إلى الشّمس هل تدنو ركيٌّ نواكز

وقال أبو الحسن عن أبي خيران الحماني عن عوف الأعرابي عن أبي رجاء العطاردي قال: رأيت رجلاً

مصطلم الأذن فقلت: أخلقة أم حادث؟ قـال: بـل حـادث. بينا أنا يوم الجمل أجول في القتلـى، مـررت برجـل منهـم ينشد:

الطويل لقد أوردتنا حومة الموت أمّنا * فما صدرت إلاّ ونحن رواء

أطعنا قريشاً ضلّةً من حلومنا * ونصرتنا أهل الحجاز عناء

لقد كان عن نصر ابن ضبّة أمّه * وشيعتها مندوحةٌ وغناء

أطعنا بني تيم بن مرّة شقوةً * وهل تيم إلاّ أعبدٌ وإماء

فقلت: من أنت؟ قال: أدن مني أخبرك. فدنوت منه فأزم بأذني فقطعها وقال: إذا أتيت أمك فأخبرهـا أن عميـر بـن الأهلب فعل ذلك بي، ومات.

وقال أبو الحسن عن عامر بن حفص قال: بلغنـي أن رجلاً من بني الهجيم قال وهو بالموت:

الرجز كيف تراني والمنايا تعترك * تنهض أحياناً وحيناً تبترك

وقال أبو الحسن عن عامر بن الأسود: ثقل وكيـع بـن أبـي سود فأشرف عليه عدي بن أرطاة وهو يومئذ أمير البصرة من دار الإمارة، فقال: كيف أصبحت يا أبا المطرف؟ قال: أصبحت وثاباً جرياً، فضحك عدي ورجـع. فمـا جلـس حـتى سمع الواعية عليه.

وقال حمزة بن إبراهيم: قال لبطة بن الفرزدق: لمـا ظننـا أن أبي قد احتضر بكينا حوله، ففتح عينيـه ثـم قـال: أعلـي تبكون؟ فقلنا: أفعلى ابن المراغة نبكي؟ قـال: أو هـا هنـا موضع ذكره؟ ثم أغمي عليه، فلما أفاق قال:

الوافر إذا ما دبّت الأنقاء فوقي * وصاح صدىً عليّ مع الظّلام

لقد شمتت أعاديكم وقالت * أدانيكم من أين لنا المحامي؟

وقال أبو الحسن عن كليب بن خلف قال: قال وكيع بن أبي سود عند موته لأهله وولده: إني إذا مت جاءكم قوم قد سودوا جباههم، ونشروا لحاهم، وعرضوا نعالهم، يقولون إن على أبيكم ديناً فاقضوه، فلا تقضوا عني شيئاً، فإن على أبيكم من الذنوب ما إن غفرها الله فالدين من أيسرها.

قال أبو الحسن عن عامر بن الأسود قال: قيل لأبي السفاح بكير بن معدان أوص، قال: إنا الكرام يوم طخفة. قالوا: إنك في الموت فقل خيراً وتشهد. قال: غلامي إذا مات فهو حر.

قال أبو الحسن: قال دحيم وهو بالموت:

الرجز قد وردت نفسي وما كادت ترد * قد كنت ذا أزرٍ شديد المعتمد

وكنت ذا شغبٍ على الخصم الألدّ * قد جاء قرنٌ ليس بالقرن يردّ

ثم هلك.

قال أبو الحسن: قيل لرجل وهو مريض: قل لا إله إلا الله. ب: فقال: لم يأن لذلك بعد.

وقيل لهرم بن حيان: أوص. فقال: صدقتني في الحياة نفسي، ما لي مال أوصيكم به، ولكني أوصيكم بخواتيم سورة البقرة.

وأخبر أبو الحسن عن شعبة بن عبد الله الأنصاري قال: عزى إياس بن معاوية رجلاً عن ابنه فقال: لا ينقص الله عددك، ولا يزل نعمةً عنك، وعجل الله لك من الخلف خيراً

مما رزئت به وعزى آخر رجلاً فقال: إن فيما عوضك الله من الأجر خيراً مما فجعك به من الرزية.

وقيل لأعرابية: ما أحسن عزاءك عن ابنك! فقالت: إن فقدانيه أمنني من المصائب بعده.

وقال: أخبرني سعيد عن رجل منهم قال: خرجت إلى اليمن فنزلت على امرأة منهم، فرأيت مالاً كبيراً ورقيقاً وولداً وحالاً حسنة، فأقمت حتى قضيت حاجتي. فأردت الرحيل فقلت لها: ألك حاجة؟ قالت: نعم، كلما نزلت هذه البلاد فانزل علي، فغبرت أعواماً، ثم أتيت اليمن، فأتيت منزل المرأة فإذا حالتها قد تغيرت، وذهب رقيقها، ومات ولدها، وباعت منزلها، وإذا هي مسرورة بحالها، ضاحكة. فقلت: أتضحكين مع ما قد نزل بك؟ قالت: يا عبد الله، كنت في حال النعمة ولي أحزان كثيرة، فعلمت أن ذلك من قلة الشكر، فأنا اليوم في هذه الحال أضحك شكراً لله على ما أعطاني من الصبر. فقلت لعبد الله بن عمر: ما رأيت منها؟ فقال: ما كان صبر أيوب النبي عليه السلام إلى هذه بشيء.

وقال سفيان: شكا الربيع بن أبي راشد إلى محارب بن دثار إبطاء خبر أخيه جامع. فقال له محارب: إن لم تكن وطنت نفسك على فراق جامع فأنت عاجز.

وقال: محمد بن أبي محمد: بلغني أن الإسكندر مر بمدينة قد ملكها أملاك سبعة، وبادوا. فقال: هل بقي من نسل الأملاك الذين ملكوا هذه المدينة أحد؟ قالوا: رجل يكون في المقابر. فدعا به فقال: ما دعاك إلى لزوم المقابر؟ قال: أردت أن أعزل عظام الملوك من عظام عبيدهم، فوجدت ذلك سواءً. قال: فهل لك أن تتبعني فأحيي بك شرف آبائك إن كانت لك همة؟ قال: إن همتي لعظيمة إن

كانت بغيتي عندك. قال: وما بغيتـك؟ قـال: حيـاة لا مـوت فيها، وشباب لا هرم معه، وغنـىً لا يتبعـه فقـر، وسـرور لا يغيـره مكـروه. قـال: مـا أقـدر علـى هـذا. قـال: فـامض لشـأنك، وخلنـي أطلـب بغيـتي ممـن هـي عنـده. فقـال الاسكندر: هذا أحكم من رأيت.

وقال عبد الله بن عباس: ما قيل لقوم قط طـوبى لهـم إلا خبأ لهم الدهر يوم شر، فالصبر خير مغبةً.

وتحدث أبو الحسن المدائني قال: قال بعثر بن لقيط بن خالد بن نضلة الفقعسي وهلك ابنه طعمة، فورثه بردين فلبسهما وأنشأ يقول: الطويل كساني ثوبي طعمة الموت إنّما التّ * راث وإن عزّ الحبيب الغنائم

إذا نفحت ريّاهما الرّيح نفحةً * أبيت كأنّي غضّة الطّرف رائم

يقول: أبيت أحن كالناقة الرائم حنيناً إلـى ابنـي. والرائـم: الناقة يفارقها ولدها فيحشى جلد فصيل تبنـاً أو غيـر ذلـك، ويلطخ بشيء من سلاها، وتحشى غمامة في أنفها، وتجعل درجة في حيائها، فتفتـح عينهـا، وذلـك الجلـد محشـو كـأنه خرج منها، ورائحـة السـلا فيـه، وتنـزع الغمامـة مـن أنفهـا فتجد لذلك رائحة، فكأنهـا قـد ولـدت، فـإذا تشـممت ذلـك الولد فقد رأمته، فينزل اللبن، فكأنهم خدعوها عن لبنها.

وقال شعيب بن صفوان: كان لحضرمي بن عامر الأسـدي إخوة فهلكوا، فورث أموالهم، فـراح ذات يـوم فـي برديـن له، فنظر إليه رجل من قومه يقال له جزء بن فاتك، فقـال له: لقد أمسيت يا حضرمي جذلان، فأنشأ يقول وجزع:

المنسرح يقول جزء ولم يقل جللا * إنّي تروّحت ناعماً جذلا

إن كنت أزننتني بها كذباً * جزء فلاقيت مثلها عجلا

أفرح أن أرزأ الكرام وأن * أورث ذوداً شصائصاً نبلا?

الذوذ: القليل من الإبل. يقال: إن الـذود الـذوذ إلـى الـذود إبل والشصائص: المهازيل العجاف. والنبل: يقول أصحاب الغريب إنها الحقيرة، وإنها من الأضداد.

كم كان في إخوتي إذا اشتمل الأب * طال تحت العجاجة الأسلا

من فارسٍ ماجدٍ أخي ثقةٍ * يعطي جزيلاً ويقتل البطلا

وقال حرب وذكر المعمرين: عاش دويد النهدي أربـع مائـة سنة، فقال لولـده وأهلـه حيـن نـزل بـه المـوت: أوصـيكم بالناس شراً، طعناً لزا، وضرباً أزا، اقصروا الأعنة، وأطيلوا الأسنة، وارعوا الكلأ، ثم قال:

مشطور الرجز اليوم يبنى لدويدٍ بيته * يا ربّ نهبٍ حسنٍ حويته

ومعصمٍ ذي برةٍ لويته * لو كان للدّهر بلىً أبليته

أو كان قرني واحداً كفيته

وقال عروة بـن سـليم: دخلـت علـى رجـل مـن الأحـامرة بالكوفة، وعنده جماعة من أهله وغيرهم، فقالوا: قل لا إله إلا اللـه، فـأعرض بـوجهه، فأعادوهـا عليـه مـراراً، فقـال: أخـبروني عـن أبـي طـالب أقالهـا? قـالوا: ومـا أنـت وأبـو طالب? قال: لا أرغب بنفسي عنه.

وقال سلام بن أبي خبرة: ضربت الخـوارج بكـراً الطـاحي فقطعوه بالسيوف، فدخل عليه قوم يعودونه وعنده رجـال ونساء، فقالوا له: ليس عليك بأس، فقال:

الطويل غناءٌ قليلٌ عن بكير بن وائلٍ * ترّمز أستاه الإماء العوائد

باب من تكلم في مرضه

بشيء حكي عنه

قال أبـو الحسـن: حـدثني رجـل مـن بنـي كنانـة مـن أهـل المدينة قال: مرض بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلم فعاده رسول الله صلى الله عليـه وآلـه وسـلم وأبو بكر الصديق، فقال بلال:

الرجز جاءك مولاك مع الرّسول * ذاك هدى الله به سبيلي

فلم أدن دين أبي عقيل * ولا بدين الأسود الضّلول

وقال أبو الحسـن عـن غيـاث بـن إبراهيـم عـن هشـام بـن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قال أبو العباس: وحدثني به ابن عائشة وأبـو عمـر الجرمـي ورسـمه واحـد قال: لمـا قـدم المهـاجرون المدينـة وعكـوا وابـن عائشـة والجرمي يقولان: اجتووها، وكانت أشـد أرض اللـه حمـى. قالت عائشة: فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهبي فانظري كيف أبوك وعمك، فدخلت علـى أبـي بكـر فقلت: يا أبتاه كيف تجدك؟ فقال:

الرجز كلّ امريءٍ مصبّحٌ في أهله * والموت أدنى من شراك نعله

ثم دخلت على بلال فقلت: كيف تجدك؟ فقال:

الطويل ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً * بفجٍّ وحولي إذخرٌ وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنّةٍ * وهل يبدون لي شامةٌ وطفيل

قالت: فذكرت ذلك لرسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم فقال: اللهم عليك عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام، كمـا

أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء. اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة، وانقل وباءها إلى الجحفة.

وفي حديث ابن عائشة وأبي عمر: اللهم، العن أبا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف. وحبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وأكثر، وانقل ما بها من الوباء إلى مهيعة، وهي الجحفة. قال: فجاء أهل الجحفة يضجون من الحمى.

قالت: ودخلت على عامر بن فهيرة فقلت: يا عم، كيف تجدك؟ فقال: مشطور الرجز لقد وجدت الموت قبل ذوقه

قال: وأنشدنا ابن عائشة: والمرء يأتي حتفه من فوقه

وقال أبو الحسن:

إنّ الجبان حتفه من فوقه * كلّ امريءٍ مقاتلٌ عن طوقه

كالثّور يحمي جلده بروقه

وقال أبو الحسن: مرض حسان بن بحدلٍ الكلبي ومنظور بن زيد أخو بني عبد ود، من كلب، مرضاً شديداً، فعادهما عبد الملك، فلما خرج من عندهما تمثل:

الوافر ومالي في دمشق ولا قراها * مبيتٌ إن عرضت ولا مقيل

ومالي بعد حسّانٍ صديقٌ * ومالي بعد منظورٍ خليل

وقال أبو الحسن: لما ولي بشر بن مروان البصرة أتاه الفرزدق ولم يكن أتاه بالكوفة، وكان بشر عليه واجداً. وقدم بشر البصرة فمرض فقال الفرزدق حيث قام بين يديه:

البسيط لو أنّني كنت ذا نفسين إن هلكت * إحداهما بقي أخرى لمن غبرا

إذن لجئت على ما كان من وجلٍ * وما وجدت حماماً يغلب القدرا

له يدٌ يغلب المعطين نائلها * إذا تروّح للمعروف أو بكرا

تغدو الرّياح وتمسي وهي فاترةٌ * وأنت ذو نائلٍ يمسي وما فترا

وقال: دخل كثير عزة على عبد الملـك وهـو مريـض، فلمـا رآه قال: ها هنا، وأجلسه من ورائه، فقال كثير:

الكامل ونعود سيّدنا وسيّد غيرنا * ليت التّشكّي كان بالعوّاد

لو كان يقبل فديةً لفديته * بالمصطفى من طارفي وتلادي

قال أبو العبـاس: هـذا الشـعر غلـط، إنمـا هـو لجريـر فـي الوليد بن عبد الملك وفيها يقول:

ودعا الخليفة فاستجيب دعاؤه * والله يسمع دعوة الأجناد

وتحدث أبو الحسن عن حماد الراوية قال: حدثني العريـان بن الهيثم قال: بعثني أبي إلى شبيب بـن ربعـي أسـأل بـه وهو مريض، وهو بين ابنـتين لـه كأنهمـا الشـمس يقلبـانه، فقلت: يقول لك أخوك الهيثم: كيف تجدك؟ فقال متمثلاً:

الطويل تمنّى ابنتاي أن يعيش أبوهما * وهل أنا إلاّ من ربيعة أو مضر

ونادبتين تندبان بعاقلٍ * أخا ثقةٍ لا عين منه ولا أثر

فقوما فقولا بالّذي قد علمتما * ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر

وقولا هو المرء الّذي لا حميمه * أضاع ولا خان الصّديق ولا غدر

إلى الحول ثمّ أسم السّلام عليكما * ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

ثم قال: ما فعل الحجاج؟ فأخبرته. ثم أتيت أبي فـأعلمته، فلما رحنا إلى الحجاج قال: ما فعل شبيب؟ قال أبي: أتـاه العريـان اليـوم عائـداً. فسـألني فحـدثته الحـديث. فقـال الحجاج: لا تبعد العرب! ثم قال: ويحكـم يـا أهـل العـراق، إنكم لأنتم الناس لولا ما شملكم من هذا الرأي الخبيث.

قال أبو العباس محمد بـن يزيـد: قـد أكثرنـا فـي المراثـي والمواعظ من بين شعر وكلام نثر ورسالة وغير ذلـك ممـا يتصل به.

والمراثي وأسبابها باقية مع الناس أبداً، إذ كانت الفجـائع لا تنقضي إلا بانقضاء المصائب، ولا يفنى ذلك إلا بفناء الأرض ومن عليها، ولا إله إلا الله الحي الذي لا يموت. ونحن خاتو ذلك بباب نجمع فيه من كل شيء إن شاء الله، وبه الحـول والقوة. ثم نبتديء شيئاً غيره. فإن الإكثار سـرف، كمـا أن التقصـير كـالعجز. وفيمـا أملينـا بلاغ وعظـة إن شـاء اللـه تعالى.

قال عبد العزيز بن عبد الرحيم بن جعفـر بـن سـليمان بـن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلـب يرثـي أبـاه. وكان أبوه جليلاً من بنـي هاشـم لـه أدب وعارضـة وبلاغـة ونجدة وبيان، فولاة أمير المؤمنين المعتصـم بـالله اليمـن، ثم ولى بعد أن طال مكثه بها إيتاخ ذلك البلد، فـولى إيتـاخ عليها الشار، فحمل إليه الشار عبد الرحيـم، فطـالبه إيتـاخ بالخراج وحبسـه لامتنـاعه عليـه، فم ات ف ي السـجن بعـد مدة.

وكـان عبـد العزيـز أجـل بنيـه، وقـد ولـي الولايـات، وكـان شاعراً مفلقاً وخطيباً مصقعاً، فقال يرثي أباه قولاً أعرب فيه فأفصح، وأغرب فيه فلم يفحش، ولكنـه خـرج أحسـن الخروج من كلام مبسوط ومعان مفهومة وهو قوله:

الطويل أشد أيّها النّاعي وإن كنت لا تدري * بكنه الذي تنعى من الدّين والقدر

ومن ركن أركان الملوك الذي به * تلوذ إذا حلّ الجسيم من الأمر

هوى فهوت أركان عزٍّ وأعوزت * ثغورٌ به كانت أوامن للذّعر

ومن يلبس الأقطار أمناً بذكره * ويكشف عنها طخية الذّلّ والفقر

ومن كان إن أرضٌ من المحل أظلمت * رماها بأنفى للظّلام من الفجر

بوجهٍ كأنّ البدر فوق جبينه * وبذل لهى الأموال بالنّائل الغمر

وجودٍ يبذّ المجد والجود قبله * ونور بهاءٍ كان أبهى من البدر

تزيد الليالي والخطوب ضياءه * إذا غيّر البدر المحاق من الشّهر

ويبسط بالعرف العفاة تهلّلاً * إذا كان بعض المنع بالنّظر الشّزر

فإنّك تغنى بالصّفات عن اسمه * فلم تر إلاّ عارفاً غير ذي نكر

وإنّا لمعتادو رزايا عظيمةٍ * نخاف بأدناهنّ قاصمة الظّهر

يظلّ لها منّا رجالٌ كأنّما * تعالى على أكتافها فلق الصّخر

فنصبر حتّى تنجلي غمراتها * إذا لم يكن في الصّبر عيبٌ على الحرّ

تجلّ مصيباتٌ وتعرو نوائبٌ * ولا مثل ما أنحت علينا يد الدّهر

لقد عركتنا للزّمان ملمّةٌ * أذّمت بمحمود الجلادة والصّبر
وذلك أنّ الصّبر أصبح بعده * بمن كان ذا دينٍ ومعرفةٍ يزري
فلمّا رأيت الصّبر يزري بأهله * وضاق بما قد جلّ من حدثٍ صدري
وأنّ البكا فخرٌ، بكيت بعولةٍ * عليه لكيلا يعتليني أولو الفخر
وروّحت بعد اليأس والصّبر زفرةً * تردّد ما بين الجوانح والصّدر
حنيناً كما حنّ اليراع يردّه * حيازيم ضاقت للنّشيج الذي يفري
وخلّيت أسراب الدّموع فأمطرت * بغير معيبٍ بالدّموع ولا نزر
وقلّ له منّا البكاء وقد بكت * لنا الطير لو كانت مدامعها تجري
بكى الثّقلان الجنّ والإنس فقده * وغيرهما من ساكني البرّ والبحر
وأقسم لولا خشية الله وحده * ركبت بنفسي كلّ مستصعبٍ وعر
بموتك يا عبد الرّحيم بن جعفرٍ * تزايل شعب الملك عن أفحش الكسر
وصارت بناة الدّين بعدك صدعها * يطير شظايا لا تلاءم بالجبر
بموتك مات الجود والمجد كلّه * وجدّع أنف العزّ فينا إلى الحشر

لقد هدّ ركن الدّين موتك هدّةً * أنافت لها الأعناق من أمم الكفر
وأبلس إبلاس المذلّة ديننا * وأغضى بك الإسلام عيناً على وتر
وأضحت قلوب المسلمين مريضةً * توكّف فيه مثل راغية البكر

وقد وجد الأعداء في الملك مطعناً * عواقبه قتلٌ يجلّ عن النّشر
فلا هنأ الأعداء عثرة دهرنا * فقد وأبي قرّت عيون ذوي الغمر
رزئنا أمرأً لا نحفل الدّهر بعده * ولا الموت، فلتفر الحوادث ما تفري
فللّه عينا من رأى من رزيّةٍ * وعثرة دهرٍ أمّنتنا من العثر
فواكبدا لو في الوغى كان موته * بكينا عليه بالرّدينيّة السّمر
وبالبيض والمرفوعة الزّرق دمعها * دمٌ عاندٌ ينثال بالعلق الحمر
وبالخيل يعلكن الشّكيم كأنّها * كواسر عقبانٍ نواهض عن قدر
يخضن نجيعاً مائراً بعد جامدٍ * فلأياً تبين الكمت فيها من الشّقر
وأضحى نهار النّاس ليلاً وألمعت * كواكبنا بالهندوانيّة البتر
ولم يغن ضوء الشّمس في قسطل الوغى * فتيلاً ونار الحرب ثاقبة الجمر

وأخمدت الأصوات إلاّ غماغم ال * كماة ووقع المشرفيّة بالهبر
وخذها أيا بن الأكرمين وخذ بها * وأخّر وقدّم بالوعيد وبالزّجر
فمن مقعصٍ يعطو بفضل حشاشةٍ * وآخر تفريه الحوامي وما يدري
يفرّقن أوصالاً كراماً أعزّةً * ويفضخن هاماً من جحاجحةٍ زهر
وقمنا إلى الثأر المنيم فلم يئل * ولو نيط بالعيّوق أو نيط بالنّسر
فكنّا وإن لم نوف من شيخنا دماً * نقرّ عيوناً أو نريغ إلى عذر
ونهدأ نفساً ما تلاقى جفونها * إذا اللّيل ألقى ذيل أرواقه الخضر
ولكن وقيناه القنا بنحورنا * وفات كذا في غير هيجٍ ولا نفر
فيا بن النّبيّ المصطفى وابن عمّه * ويا بن عليٍّ والفواطم والحبر
ويا بن اختيار الله من آل آدمٍ * أباً فأباً طهراً يؤدّي إلى طهر
ويا بن عليٍّ بعد والحسن الذي * تلافى عرى الإسلام وابن أبي بكر
ويا بن سليمان الّذي كان موئلاً * لمن ضاقت الدّنيا به من بني فهر
ومن ملأ الدنيا بهاءً ونائلاً * وروّى حجيجاً بالملمّعة القفر
تعزّ بما قد نالنا من رزيّةٍ * بموتك محبوساً على صاحب القبر

فإن متّ في حبس الخليفة صابراً * أبيّاً لما يعطي الذّليل على القسر

فكم من عدوٍّ للخليفة قد هوى * بكفّيك أو أعطى المقادة بالصّغر

فلا أورقت شجراء أرضٍ ولا دحا * من الغيث منهلٌّ متى طائرٌ يسري

فقل للمنايا والمتالف اعصفا * فلم يبق فينا من يريش ولا يبري

وقل للأعادي أعلنوا الآن أو دعوا * سواءٌ علينا المستسرّ وذو الجهر

وقال أحمد بن محمد الخثعمي يرثي إبراهيم بن سعيد الحميري:

الخفيف أيّها النّاعيان من تنعيان? * وعلى من أراكما تبكيان

انعيا الثّاقب الزذناد أبا إس * حاق ربّ المعروف والإحسان

ارجعا بي إن لم يكن لكما عق * رٌ إلى لحد قبره فاعقراني

فانضحا من دمي عليه فقد كا * ن دمي من نداه لو تعلمان

فكأنّا ولم يطل بك عهدٌ * ما رأيناك عامر الأعطان

بين أدمٍ تدمى، وركبٍ منيخٍ * وعساسٍ ملتوتةٍ وجفان

صلصل الصّوت في صفائك بالرو * ب خفيض الكلام في الصفان?

مسمع القدح من خطار وفودٍ * وعديم الأتباع يوم الرّهان?

ليت أنّا فداك إذ فني الطّ * مّ وفاضت مناهل الحدثان

فغدا ظاعناً يحثّ به النّع * ش حثيث السّرى وليس بوان

سفرٌ شاسعٌ وحادٍ مجدٌّ * وقعودٌ باق على الرّقلان

شرب الموت منه محضه دو * ن حليبها السطور من قحطان?

أيّها الموت قد نهضت بحملي * ن من الذّمّ فيه والأضغان

قم بأعلى البقاع من غمدان * وبسفلى الكثيب من عسفان

هل ترى غير مجلسٍ صخب الأف * ق بباكٍ ونادبٍ ثكلان

وترى غير ذابلٍ سمهريٍّ * ركد الزّجّ في مكان السّنان

وترى غير مقرمٍ ناصل النّا * ب قليل السّموّ في الهدران

وعديمٍ يعبّ في قدح الثّك * ل هديم الخباء والبنيان

ومن المراثي المستحسنة المقدمة ونحتاج أن نـذكر معهـا خبرها وهو أن مالك بن زهير بن رواحة بن جذيمة العبسـي وكان من أشراف بني عبس، وجذيمة منهم قتل في حرب داحس. وكان جانيها أخوه قيس بـن زهيـر، فنشـبت بينهـم فيما ذكر أربعين سنة. وتشاءم بهـم قـومهم، فـوجه قيـس جاريته لتعلم ما عند الربيع بن زيـاد العبسـي أيغضـب لهـذا الحديث فيقوى به أو يستهين، فرأت عنده أكثر مما أحــب، فرجعت إليه فقالت: سمعت عويلاً منه دون نسائه وحركةً أكثر من حركة جميع الحي، وهو يقول:

الكامل منع الرّقاد فما أغمّض حار * جللٌ من النّما المهمّ السّاري

من مثله تمسي النّساء حواسراً * فتقوم معولةً مع الأسحار

من كان مسروراً بمقتل مالكٍ * فليأت نسوتنا بوجه نهار

تأويل هذا البيت أنه إذا رأى ما يضع عليه من الجـزع، علـم أن ثأر مثله لا يترك.

يجد النّساء حواسراً يندبنه * يضربن أوجههنّ بالأسحار

يخمشن حرّ وجوههنّ على فتىً * سهل الخليقة طيّب الأخبار

قد كنّ يكنينّ الوجوه تستّراً * فالآن حين بدون للنّظار

أفبعد مقتل مالك بن زهيرٍ * ترجو النّساء عواقب الأطهار

قوله: أفبعد مقتل مالك بـن زهيـر، مزاحـف نـاقص جـزءاً. وهـذا فـي هـذه العـروض جـائز، وهـي الـتي يقـال لهـا المقطوعة في الكامل. ونظيره قول حميد بن ثور:

الكامل أبلغ أمير المؤمنين فإنّه * طبٌّ يلوم المستليم ويعذر

أنّي كبرت وأنّ كلّ كبيرٍ * ممّا يظنّ به يملّ ويقبر

رجع الشعر:

ما إن أرى في قتله لذوي القوى * إلاّ المطيّ تشدّ بالأكوار

ومجنّباتٍ ما يذقن عدوفاً * يجهضن بالمهرات والأمهار

هذا مثل البيت المزاحف. يقال: ما ذقت عدوفاً ولا عـداناً، ولا لماظاً ولا لماقاً. وكل هذا في معنى لم أذق شيئاً.

وفوارساً صدأ الحديد عليهم * فكأنّما طلي الوجوه بقار

ويفوز كلّ مقلّصٍ من خيلنا * سلس القياد معاقد التّكرار

حتّى نبير بذي المريقب غدوةً * بدراً ونعذر من بني سيّار

بدر: ابن عمرو الفزاري، وبنو سيار بن زبان الفزاري قتلوا ابن عمهم وحاربوهم غدراً بغير دم ولا افقار.

ولربّ مسرورٍ بمقتل مالكٍ * كلاّ وربّ البيت ذي الأسرار

حتّى نبير بمالكٍ سرواتهم * حملاً وفارسهم أبا حجّار

حمل: ابن بدر وكان من فرسانهم وشجعانهم، وهو الذي يقول فيه القائل في هذه القصة بعد أن قتل:

الوافر ولكنّ الفتى حمل بن بدرٍ * بغى والبغي مصرعه وخيم

وأبو حجار: مالك بن حمار الشمخي، وبنو شمخ من فزارة، وفزارة ابن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان. وبنو عبس ابن بغيض بن ريث، فكان عبس وذبيان أخوين. وكانت حربهم أربعين سنة.

وحرب الأنصار الأوس والخزرج، ابني حارثة بن ثعلبة بن عمرو ابن عامر كانت أكثر من هذا فيما ذكرت الرواية وكانت لا تزال تغبر.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: دربوا لي بالحروب حتى دربوا. وقالت عائشة رضي الله عنها: قدمنا عليهم والجراح تطيف دماً من حرب بعاث.

فحرب الأنصار: حرب بعاث، وحرب ابني بغيض: حرب داحس، وحرب بكر وتغلب تسمى: البسوس.

وقال أبو ناظرة السدوسي، وكان رجلاً من أهل العلم والمعرفة بكلام العرب وحسن التصرف فيه، يرثي البصرة وأهلها بكلام عربي فصيح ينبيء أنه كلام موجع يخرج عن نية صادقة من ألفاظ رجل لا عجز يقعد به عن بلوغ الحاجة، ولا إسراف في قوله وتمحل يتجاوز به القدر:

الطويل منازلنا هل من إيابٍ مؤمّ?لٍ * إليك، إذا ما آب كلّ غريب?!

وهل نحن يوماً عائدون ذوي غنىً * ومنتجعٍ للمعتفين خصيب

وآذنةٌ في كلّ حيٍّ يزينها * نقاء جيوبٍ منهم وغيوب

وحلمٌ وعلمٌ ليس بالنّزر فيهم * فلا يطون مسعاه مشوب?
وقل لدعاة الشّمس هل من تشهّدٍ * لوقت صباحٍ أو لوقت غروب
نجنّ ولم نظلم إليك صبابةً * تفتّت أكبادٍ لنا وقلوب
وقلّ غناءً عبرةٌ مستهلّةٌ * ترقرق من عينٍ عليك سكوب
أبى الصّبر تذكار الدّيار التي خلت * مجالسها من سوددٍ وخطوب
ومغدى ذوي الحاجات في كلّ شارقٍ * إلى كلّ مغشيٍّ الفناء مهيب
وكلّ مطاعٍ في العشيرة ماجدٍ * معينٍ على ريب الزّمان وهوب
منازل فارقن العهود ولم تكن * معاناً لناقوسٍ ولا لصليب
منازل قومٍ أسرع السيف منهم * إلى كلّ وضّاح الجبين نجيب
وكلّ فتىً يرنو إلى اللّهو والصّبا * جرورٍ لأذيال الشّباب سحوب
وكلّ صميمٍ من ذؤابة قومه * كريمٍ لغايات الكرام طلوب
أبوا أن يرى الله الهوادة منهم * لأعضه عن دين النّبيّ نكوب
فأودوا وقد عاشوا كراماً أعفّةً * على فتنٍ مرّت بهم وحروب
تغاديهم ضرباً على الهام تارةً * وذبحاً بأقسى أنفسٍ وقلوب
فكم من رحىً دارت وكم من مصيبةٍ * توالت ومن يومٍ هناك عصيب

على ألف ألفٍ من ملوكٍ وسوقةٍ * ثووا بين أبوابٍ لهم ودروب
مفلّقةٌ هاماتهم وشريدهم * شماطيط شتّى أوجهٍ وسروب
إلى غير راعٍ يرتجى النّصر عنده * ولا عطنٍ يؤوى إليه رحيب
عباديد من ناجٍ على جذم بغلةٍ * ومن رازحٍ يشكو الكلال جنيب
ومن راسبٍ طافٍ على الماء شلوه * وذي ظمإ أودى به وسغوب
فيا أرضهم أخلوك فابكي عليهم * وجودي عليهم يا سماء وصوبي
أرى كلّ قومٍ لا يزال مظنّةً * منازلهم من آيبٍ ومؤوب
سوانا فإنّا حشو كلّ مدينةٍ * وألقاؤها من نازحٍ وقريب
ذوو أوجهٍ فيها كوابٍ وأعينٍ * بواكٍ وفقرٍ ظاهرٍ وشحوب
فمن رام أن يبتاع منّا حديقةً * من النّخل أعطى درهماً بجريب
فذو العزّ منّا مستكينٌ وذو الغنى * كأن لم يكن ذا رتبةٍ وركوب
فما حلّ بالإسلام مثل مصابنا * وسلطاننا للدّين حقّ غصوب
وكنّا ولم تشقق عصانا ولم تبت * عقاربنا فينا ذوات دبيب
نميميّةٌ تسري إلينا كأنّما * تطالبنا في مصرنا بذنوب
يقصّر عن بغداد كلّ فضيلةٍ * خصصنا بها إسهاب كلّ خطيب

رجالاً ومالاً يعرف النّاس فضله * على كلّ حالٍ رائحٍ وغريب
فلا المربد المعمور بالعزّ والنّهى * وكلّ فتىً للمكرمات كسوب
ولا قصر أوسٍ والمناخ الّذي به * وما حوله من روضةٍ وكثيب
بمرتجعٍ يوماً ولا المسجد الّذي * إليه تناهى علم كلّ أديب
ولا قائمٌ لله اناء ليله * به كلّ أوّاهٍ إليه منيب
ولا عائذٍ ذاك الحزين كعهده * لكلّ مسنٍّ حوله ومهيب

ولا الشطّ إذ فيه لنا الخير كلّه * وإذ معتفاه الدّهر غير جديب
وبالفيض والنّهرين من كلّ جانبٍ * مناظر لذّاتٍ عفت وشروب
وإذ ما نراه من سفينٍ وراكبٍ * على ظهر منقادٍ إليه صبوب
ودجلة أحمى جانبيها كليهما * كتائب زنجٍ كالطّنين دبوب
مؤلّلةٌ أسنانهم وعيونهم * توقّد في كهرورةٍ وقطوب

قوله كهرورة إنما هـي القطـوب والعبـوس كمـا قـال زيـد الخيل:

الطويل ولست بذي كهرورةٍ غير أنّني * إذا طلعت أولى المغيرة أعبس
طماطم لا ربٌّ لهم يعرفونه * وقد دربوا بالحرب أيّ دروب
وجونٍ نواحٍ منجياتٍ لواحقٍ * تروح وتغدو غير ذات عكوب

الجون: السود. يعنى: الخيل. والعكوب: الغبار، وبه سمي عكابة تساجلنا فيها المنايا عبيدنا * بكلّ حسامٍ في العظام رسوب

أنسلبها غلباً ضوامن للقرى * على سنواتٍ تعتري وجدوب

يعني النخل، والأغلب: الغليظ العنق.

جداولها في كلّ يومٍ وليلةٍ * ذوات جمومٍ تحتها ونضوب

وما النخل في اجلاسا عن كواعبٍ * يساقطن في ديمومةٍ وشيوب؟

وما في خيام الزّنج من حرّ أو وجهٍ * ذوات وسومٍ فيهم وندوب

ولا ذو محاماةٍ ولا ذو حفيظةٍ * ولكن رقيبٌ من وراء رقيب

على الثّمر المفجوع أربابه به * على خطرٍ من مجتناه عجيب

يقولون حشرى قسا من مدافعٍ * لدى مشهدٍ منّا ولا بمغيب؟

وقالوا تناسوها فليس بعائدٍ * تجاور أحياءٍ بها وشعوب

وإنّي لأرجو أن أرى ذاك منهم * وللدّهر أيّام.... وخطوب

نعت أرضنا الدّنيا إلينا وأدبرت * بكلّ نعيمٍ في الحياة وطيب

وما كانت الدّنيا سوى البلد الّذي * خلا اليوم من داعٍ به ومجيب

وما عيش هذا النّاس بعد ذهابه * بعيشٍ ولا مغناهم برغيب

إذا الدّمع لم يسعد كئيباً فإنّني * سأبكي وأبكي الدّهر كلّ كئيب

على دمنٍ جرّت بها الرّيح بعدنا * ذيول البلى من شمألٍ وجنوب
وما كلّ بصريٍّ. شكا بمفنّدٍ * ولا كلّ بصريٍّ بكى بمعيب
ولو أنّ بصريّاً بكى كنه شجوه * بكى بدمٍ حتّى الممات صبيب
فمن مبلغٌ عنّي بريهاً ورهطه * وما أنا في حبّيهم بمريب
إذا أنتم غادرتموها كأنّها * منازل عادٍ غير ذات عريب
فلا ترفعوا الأبصار إلاّ كليلةً * إلى النّاس أو منهلّةً بغروب
فيا بصر. كم من هالكٍ مات حسرةً * عليك ومن صبٍّ إليك طروب
يظلّ شعاعاً قلبه ومبيته * على سننٍ من ربعه ونحيب
عليك سلام الله منّا فإنّنا * نرى العيش إلاّ فيك غير حبيب

وقال عمرو بن الأسلع يرثي أبا جنيد بن عمـرو بـن الأسـلع العبسي ويذكر قتل حذيفة بن بدر إباه:

الوافر فلا يكن الوداع أبا جنيدٍ * وآخر حاجة السّفر الوداع
فإن خابت حيال بني سبيعٍ * ونعم القوم إن قومٌ أضاعوا
فلا تيأس بذلك وانتظرني * وشرّ حديث قائله سماع
أتتك كأنّها عقبان دجنٍ * تجاوب في حناجرها اليراع

وقال مهلهل بن ربيعة:

الكامل قتلوا كليباً ثمّ قالوا اربعوا * كذبوا وربّ الحلّ والإحرام
حتّى تبيد قبيلةٌ وقبيلةٌ * ويعضّ كلّ مذكّرٍ بالهام
وتجول ربّات الخدور حواسراً * يمسحن عرض ذوائب الأيتام
حتّى يعضّ الشّيخ بعد حميمه * ممّا يرى جزعاً على الإبهام

إنا لنضرب بالسّيوف رؤوسهم * ضرب القدار نقيعة القدّام

ولقد وطئن بيوت يشكر وطأةً * أخوالنا، وهم بنو الأعمام

وقال أيضاً:

المديد يا لبكرٍ أنشروا لي كليباً * يا لبكرٍ أين أين الفرار?

تلك شيبان تقول لذهلٍ * صرّح الشّرّ وبان السّرار

وبنو يشكر قاموا فقالوا * قصّةٌ عوجاء فيها استتار

وبنو عجلٍ تقول لقيسٍ * ولتيم اللاّت سيروا فساروا

وسنملي بعقب ذكر مهلهل هذا خبر وقائعهم ليفهم مجـرى هذه المراثي وما يتبعها من أمثالها من لم يفهمه، ليعلم أن هذه الأشعار بنيت على أساسات مـن حكـم العـرب، تفيـد أمثالاً عجيبة ومذاهب غزيرةً وأقوالاً على أمـور ينتفـع بهـا في مثل ما قصدوا له وفي غيره من غير بابه. والحديث ذو شجون. وبالله الحول والقوة.

بكر وتغلب ابنا وائل شعبان ضخمان سادهما جميعاً كليـب بن ربيعة التغلبي، وهو الذي يقال له كليب وائـل، فيضـرب به المثل، حتى ادعت ربيعة في كليب أن العرب كلها تنقـاد لشرفها. وفيه يقول النابغة الجعدي لرجل مـن أهلـه بغـى وتعدى يخوفه عدوان الظلم:

الطويل كليبٌ لعمري كان أكثر ناصراً * وأهون ذنباً منك ضرّج بالدّم

رمى ضرع نابٍ فاستحرّ بطعنةٍ * كحاشية البرد اليماني المسهّم

وكان سبب قتله على عزة من قومه ولحمته على أنه كـان لا يرفع بحضره صوت ولا يسمع في ناديه كلمة خنـا. وفـي ذلك يقول المهلهل في مرثيته إياه:

الكامل ذهب الخيار من المعاشر كلّهم * واستبّ بعدك يا كليب المجلس

وتنازعوا في أمر كلّ عظيمةٍ * لو كنت حاضر أمرهم لم ينبسوا

ومهلهل أخو كليب واسمه عـدي، وهمـا ابنـا ربيعـة، وكـان مهلهل يسفهه كليب ويصفه بالغزل والتحدث إلـى النسـاء يذمره بذلك فيقول: أنت زير نساء.

وكان شرف بكر بن وائل في ولد ذي الجدين وهو عبد الله بن همام بن مـرة بـن ذهـل ابـن شـيبان. وهـؤلاء أشـراف وأبناء أشراف. وهم بيت بكر بن وائل وشرفها.

وكانت إحدى بنات مرة تحت كليب بن ربيعـة، وكـان عـدي المهلهل آخى همام بن مرة. وكان عاقده وعاهده ألا يكتـم أحـدهما صـاحبه خـبراً يقـع إليـه. فجـاءت جاريـة لهمـام فسارته بشيء، فتغير وجهه، فقال المهلهل: ما قـالت لـك يا أخي؟ فورى فقال له: العهـد! فقـال: خـبرتني أن أخـي قتل أخاك. فقال له المهلهل: لا ترع، فإن همة أخيك لا تبلغ ذاك.

وسيتصل الخبر مستقصىً بوقائعهم إن شاء الله.

وكانت حربهم أربعين سنة في مقتل كليب، وهـو موصـول بما ابتدأناه بما فيه من مراثيهم وغيرها. فقالت ماوية بنـت مرة امرأة كليب، تشتكي مـا بهـا مـن قتـل أخيهـا زوجهـا، وهـي قصـيدة محيطـة بـالمعنى المقصـود، جيـدة الكلام بوفرة التشكي:

الرمل يا بنة الأقوام إن شئت فلا * تعجلي باللّوم حتّى تسألي
فإذا أنت تبيّنت التي * عندها اللّوم فلومي واعذلي
إن تكن أخت امريءٍ ليمت على * شفقٍ منها عليه فافعلي
قتل جسّاسٍ على وجدي به * قاطعٌ ظهري ومفنٍ أجلي
لو بعيني فديت عينٌ سوى * أختها فأنفقأت لم أحفل
تحمل العين قذى العين كما * تحمل الأمّ قذى ما تفتلي
يا قتيلاً قوّض الدّهر به * سقف بيتيّ جميعاً من عل
هدم البيت الذي استحدثته * وبدا في هدم بيتي الأوّل
ورماني قتله من كثبٍ * رمية المصمى به المستأصل
يا نسائي دونكنّ اليوم قد * خصّني الدّهر برزءٍ معضل
خصّني قتل كليبٍ بلظىً * من ورائي ولظىً مستقبلي
ليس من يبكي ليومين كمن * إنّما يبكي ليوم ينجلي
درك الثّائر شافيه وفي * دركي ثأري ثكل المثكل
ليته كان دمي فاحتلبوا * دركاً منه دماً من أكحلي
جلّ عندي فعل جسّاسٍ فيا * حسرتا عمّا أنجلت أو تنجلي
إنّني قاتلةٌ مقتولةٌ * ولعلّ الله أن يرتاح لي

قال أبو العباس: قرأت على أبي محمد النحوي المعــروف بالتوزي عن أبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي مولى بنــي تيم بن مرة، من قريش عن مقاتل الأحول ابن سنان، مــن بني سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة. وهو الذي يقول فيه طرفة:
الطويل رأيت سعوداً من شعوبٍ كثيرةٍ * فلم أر سعداً مثل سعد بن مالك

قال مقاتل: هذا عدي وأخـوه كليـب وسـالم وفاطمـة بنـو ربيعة بن الحارث ابن جثم بن بكر بن حبيب بـن عمـرو بـن غنم بن تغلب. وكان كليـب ابـن ربيعـة ليـس علـى الأرض بكري ولا تغلبي أجار رجلاً ولا بعيراً إلا بإذن كليب، ولا كان يحمي حمىً إلا لم يقرب. وكان لمرة بن ذهـل بـن شـيبان عشرة بنين منهم جساس. وكان أصغرهم. وكـانت أختهـم عند كليب. قال مقاتل: وأم جسـاس بـن مـرة: هيلـة بنـت منقذ بن سليمان بن كعب بن عمرو بن سعد بن زيـد منـاة بن تميم. ثم خلف عليها بعد مرة بن ذهل سعد بـن ضـبيعة بن قيس بن ثعلبة. قال فراس: وهي أمنـا وخالـة جسـاس يقال لها البسوس.

قال أبو برزة: البسوس أخت هيلـة، فجـاءت فنزلـت علـى جسـاس، فكـانت جـارة لبنـي مـرة ومعهـا ناقـة اسـمها السراب وكانت خوارةً صـفياً مـن نعـم بنـي سـعد، ومعهـا فصيل لها.

قال أبو برزة: وقد كان كليب قال لصاحبته أخت جسـاس: هل تعلمين على الأرض عربياً يمنع منـي ذمتـه؟ فسـكتت، ثم أعاد ذلك عليهـا فسـكتت، ثـم أعـاد ذلـك عليهـا الثالثـة فقالت: نعم، أخي جساس وندمانه ابن عمه عمرو بن أبـي ربيعة بن ذهل. وعمرو هو المزدلف.

وأما مقاتل فزعم أن امرأة كليب بيننـا تغسـل رأس كليـب وتسرحه ذات يوم إذ قال لهـا: مـن أعـز وائـل؟ فضـمزت فأعاد عليها فضمزت. فلمـا أكـثر قـالت: أخـواي جسـاس وهمام! فنزع رأسه من يدها وأخذ القـوس فرمـى فصـيل ناقة البسوس، خالة جساس وجـارة بنـي مـرة، فأقصـده، فأغمضـوا علـى مـا فيهـا وسـكتوا. ثـم لقـي كليـب ابـن البسـوس، فقـال: مـا فعـل فصـيل نـاقتكم؟ قـال: قتلتـه وأخليت لنا لبن أمه، فأغمضوا على هذه أيضاً. ثم إن كليبـاً

أعاد بعد هذا على امرأته فقال: من أعز بني وائل؟ قالت: أخواي، فأضمرها وأسرها كليب وأسكت حتى مرت إبل جساس فإذا الناقة، فاستنكرها فقال: ما هذه الناقة؟ قالوا: لخالة جساس. قال: أو قد بلغ من أمر ابن السعدية أن يجير علي بغير إذني؟ ارم ضرعها يا غلام، فشقه. قال: فأخذ القوس فرمى ضرع الناقة، فاختلط لبنها ودمها. وراحت الرعاء على جساس فأخبروه بالأمر فقال: احلبوا لها مكيالاً من لبنها ولا تذكروا لها من ذلك شيئاً، وأغمضوا عليها.

قال مقاتل: حتى أصابتهم سماء. فغدا في غبها عمرو بن ذهل بن شيبان فطعن عمرو كليباً فقصم صلبه.

وأما أبو برزة فزعم أن جساساً أمسك حتى ظعن ابنا وائل، فمرت بكر على نهي يقال له سبيث، فأبعدهم عنه كليب وقال: لا تذوقوا منه قطرة ثم مروا على آخر يقال له الأحص فأبعدهم عنه. ثم مروا على بطن الجريب فمنعهم إياه فمضوا حتى نزلوا الذنائب، واتبعهم كليب وحيه حتى نزلوا عليهم، فمر عليه جساس وهو واقف على غدير الذنائب، فقال أبعدت أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم من العطش. فقال كليب: ما أبعدناهم إلا عن شيء نحن له شاغلون. فمضى جساس ومعه المزدلف عمرو بن أبي ربيعة. ثم ناداه جساس: هذا كفعلك بناقة خالتي. قال: أوقد ذكرتها! أما إني لو وجدتها في غير إبل بني مرة بن ذهل لاستحللت تلك الإبل بها! فعطف عليه جساس الفرس فطعنه بالرمح، فأنفذ حضنيه. فلما تداءمه الموت قال: يا جساس، اسقني من الماء. قال: ما عقلت استسقاءك من الماء مذ ولدتك أمك قبل ساعتك هذه.

قال أبو برزة: فعطف عليه المزدلف عمرو بن أبي ربيعة فحز رأسه.

وأما مقاتل فزعم أن عمرو بن الحارث بن ذهـل هـو الـذي طعنه فقصم صلبه، ففي ذلك يقول مهلهل:

الوافر قتيلٌ ما قتيل المرء عمروٍ * وجسّاس بن مرّة ذو ضرير

وقال نابغة بني جعدة لعقال بن خويلـد العقيلـي لمـا أجـار بني وائل بن معن، وقد قتلوا رجلاً من بني جعـدة، فحـذره عدوان الظلم واقتص له أمر كليب وحديثه:

الطويل كليبٌ لعمري كان أكثر ناصراً * وأيسر ظلماً منك ضرّج بالدّم

رمى ضرع نابٍ فاستحرّ بطعنةٍ * كحاشية البرد اليماني المسهّم

وقال لجسّاسٍ: أغثني بشربةٍ * تفضّل بها طولاً عليّ وأنعم

فقال:

تجاوزت الأحصّ وماءه * وبطن شبيثٍ وهو ذو مترسّم

وهي في كلمة.

وقال العباس بن مرداس لكليب بن عهمـة الظفـري أخـي عباس ومالك بن عهمة، وكانوا شركاء في القرية فجحدهم كليب حظهم منها فحذره غب الظلم وما لقي كليب منه:

الكامل أكليب مالك كلّ يومٍ ظالماً * والظّلم أنكد، وجهه ملعون

فافعل بقومك ما أرد بوائلٍ * يوم الغدير سميّك المطعون

وأظنّ أنّك سوف تلقى مثلها * في صفحتيك سنانها المسنون

إنّ القريّة قد تبيّن شأنها * لو كان ينفع عندك التّبيين

أجحدتني ثمّ انطلقت تخطّها * وأبو يزيد بجوّها مدفون

وقال رجل من بكر بن وائل في الإسلام، وهو يحمل على الأعشى وزعموا أنه شبيل بن عريرة:

الطويل ونحن قهرنا تغلب ابنة وائلٍ * بقتل كليبٍ إذ طغى وتخيّلا

أبأناه بالنّاب التي شقّ ضرعها * فأصبح موطوء الحمى متذلّلا

وهي كلمة.

قال: ومقتل كليب بالذنائب عن يسار فلجة مصعداً إلى مكة، وذلك قول المهلهل:

الوافر ولو نبش المقابر عن كليبٍ * فيخبر بالذنائب أيّ زير

قال أبو برزة: فلما قتله جساس أمال بيده الفرس حتى انتهى إلى أهله خارجةً ركبته. قالت أخته: يا أمتاه، إن جساساً قد جاء خارجةً ركبته. قالت: والله ما خرجت ركبته إلا لأمر عظيم. قالت: ما وراءك؟ قال: ورائي، والله، أني قد طعنته طعنةً لتشتغلن منها شيوخ وائل رقصاً. قالت: أقتلت كليباً؟ قال: نعم. قالت: والله لوددت أنك وإخوتك كنتم متم قبل هذا. ما بي إلا أن يتناكد بي أبناء وائل.

وزعم مقاتل أن جساساً قال لأخيه نضلة بن مرة ويقال لهما اليوم عضدا الحمار:

الوافر وإني قد جنيت عليك حرباً * تغصّ الشّيخ بالماء القراح

فأجابه أخوه نضلة بن مرة فقال:

فإن تك قد جنيت عليّ حرباً * فلا وانٍ ولا رثّ السّلاح

وإنما ذكرنا أول هذه الوقائع والسبب الـذي هيجهـا تطرقـاً إلى مراثي مهلهل أخاه وقومه ليقع ذلك على معرفـة عنـد من لم يكن عرفها.

قال المهلهل يرثي اخاه ويذكر أشـراف مـن قتـل بـه، وأن ذلك ليس بكفء:

الوافر أليلتنا بذي حسمٍ أنيري * إذا أنت انقضيت فلا تحوري

فإن يك بالذّنائب طال ليلي * فقد يبكى من اللّيل القصير

فلو نبش المقابر عن كليبٍ * فيخبر بالذّنائب أيّ زير

معنى ذا أن كليباً كان يعير مهلهلاً فيقول: أنت زيـر نسـاء. وإنما يقال ذلك لمؤثر اللهو بالنساء والحـديث إليهـن علـى المساعي وطلب الذكر، وكان مهلهل أوقـع بهـم بالـذنائب وقعة منكرة فيقول: لو رأى كليب ما صنعت لعلم أني غيـر زير.

بيوم الشّعثمين لقرّ عيناً * وكيف لقاء من تحت القبور?

وأني قد تركت بواراداتٍ * بجيراً في دمٍ مثل العبير

خبر بجير: وهو ابن الحارث بن عباد بن ضبيعة بن قيس بن ربيعة، وكان الحارث من فرسانهم، فاعتزل هـذه الحـرب. وجاء بجير يقاتل مع قومه يوم واردات، وهـو مشـهور مـن أيامهم. فأخذ أسيراً فقتله مهلهل وقال: بؤبشسـع كليـب، فقيل للحارث بن عباد إن ابنك بجيراً قتل. فقال الحـارث: إنه لأعظم قتيل بركةً إن أصلح الله بين ابنـي وائـل. فقيـل له: إن مهلهلاً حين قتله قال: بؤبشسع كليـب. فقـال عنـد ذلك:

المديد قرّبا مر بط النّعامة منّي * لقحت حرب وائلٍ عن حيال

لم أكن من جناتها علم اللّ * ه وإنّي بحرّها اليوم صال

لا بجيرٌ أغنى فتيلاً ولا ره * ط كليبٍ تزاجروا عن ضلال
ثم دخل في الحرب.
رجع إلى شعر مهلهل:
هتكت به بيوت بني عبادٍ * وبعض الغشم أشفى للصّدور
على أن ليس يشفى من كليبٍ * إذا برزت مخبّأة الخدور
وهمّام بن مرّة قد تركنا * عليه القشعمين من النّسور
ينوء بصدره والرّمح فيه * ويخلجه خدبٌّ كالبعير
فلولا الرّيح أسمع أهل حجرٍ * صليل البيض تقرع بالذّكور

فدىً لبني الشقيقة يوم جاؤوا * كأسد الغاب لجّت في الزّئير
كأنّ رماحهم أشطان بئرٍ * بعيدٍ بين جاليها جرور
كأنّا غدوةً وبني أبينا * بجنب عنيزةٍ رحيا مدير
نكرّ عليهم عوداً وبدءاً * كأنّ الخيل تنهض في غدير
وقال أيضاً يرثيه:
الخفيف طفلةٌ ما ابنة المحلّل بيضا * ء لعوبٌ لذيذةٌ في العناق
ضربت نحرها إليّ وقالت * يا عديٌّ لقد وقتك الأواقي
ما أرجّي بالعيش بعد ندامى * قد أراهم سقوا بكاس حلاق
بعد عمروٍ وعامرٍ وحييٍّ * وقتيلي صدوف وابني عناق
وامريء القيس ميّت يوم أودى * ثمّ خلّى عليّ ذات العراقي
وكليبٍ عبر الفوارس إذ ح * مّ رماه الكماة بالإيفاق
إن تحت الأحجار حزماً وجوداً * وخصيماً ألدّ ذا معلاق

من قال معلاق أراد: إذا علق خصمه بلغ منه. ومن قال مغلاق أراد: يغلق الحجة على الخصم.

حيّةٌ في الوجار أربد لا ين * فع منه السّليم نفث الراقي

وقد أطلنا القول في المراثي والتعازي وما بهما من المواعظ. وأخر بما أطيل أن يمل. وقد قال أحد المتقدمين: من أطال الحديث فقد عرض نفسه للملل ولسوء الاستماع. وقد كنا ذكرنا أشعاراً من أشعار المتقدمين، فقلنا نمليها على وجهها. ثم رجعت إلى أنها مجموعة في الكتاب الكامل على شرح جميع إعرابها ومعانيها، فإن رجعت معادةً، وهو يؤخذ من ثم. وقد أتى للقاضي رحمه الله أكثر من الحول. وقد قال لبيد: ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

ولكنا نشيع ما قد مضى من الأخبار بأخبار طريفة من هذا الباب، وأشعار ظريفة مختصرة، ينقطع الكلام عليها إن شاء الله وبه القوة.

حدثت أن رجلاً عزى يحيى بن خالد عن حرمة له فقال: أيها الوزير، تقديم الحرم من النعم، وتمثل:

الوافر تعزّ إذا رزئت بخير درعٍ * تسربل للمصائب درع صبرٍ

ولم أر نعمةً شملت كريماً * كعورة مسلمٍ سترت بقبر

وسمع أسماء بن خارجة الفزاري نائحة بالكوفة تقول:

المتقارب فمن للمنابر والخافقات * وللجود بعد زمام العرب

ومن للعناة وحمل الدّيات * ومن يفرج الكرب حين الكرب

ومن للطّعان غداة الهياج * ومن يمنع البيض عند الهرب

فقال: مثل هذا فليبك. ثم قال:

الكامل يأخذّ إنّك إن توّسد ليّناً * وسّدت بعد الموت صمّ الجندل

فاعمل لنفسك في حياتك صالحاً * فلتندمنّ غداً إذا لم تفعل

وقال عبد الله بن العباس: ما اتعظت بشيء بعدما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما اتعظت بكتاب كتبه علي عليه السلام إلي، وكان كتابه: أما بعد. فإن المرء يسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه. فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك. وليكن أسفك على ما فاتك من ذلك. وما نلت من الدنيا فلا تنعم به فرحاً، وما فاتك منها فلا تكثر عليه جزعاً، وليكن همك لما بعد الموت.

وقال بعضهم: سمعت بكاء راهب فناديت: يا راهب، ما يبكيك؟ فقال: أبكاني أمر عرفته فجزت عن سبيله، وقصرت في طلبه، ويوم مضى أورثني عبرته وحسرته، نقص له أجلي، ولم ينقص له أملي.

وروي أن بعض ملوك الفرس كان شديد الغضب، فكتب ثلاث رقاع، ثم وكل رجلاً حازماً من أصحابه فقال: إذا اشتد غضبي فادفعوا إلي الأولى، فإذا سكنت بعض السكون فادفعوا إلي الثانية، ثم ادفعوا إلي الثالثة، فكان في الأولى: إنك لست بالإله، إنما أنت بشر يوشك أن يموت، ويأكل بعضك بعضاً. وفي الثانية: ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء. وفي الثالثة: خذ الناس بأمر الله، فإنه لا يصلحهم إلا ذلك.

وقال أبو عبد الرحمن بن عائشة: لما أتي بحجر بن عدي وأصحابه يقتل بعذراء قال: ما اسم هذه القرية؟ قالوا: عذراء. قال: والله إني لأول فارس وعر أهلها يوم افتتحناها. فلما قرب ليقتل صلى ركعتين وأظهر جزعاً

قيل له: أتجزع؟ فقال: ولم لا أفعل؟ كفن منشور، وسيف مشهور، وقبر محفور، ولست أدري أيؤديني إلـى الجنـة أم إلى نار.

فلما قتل قال عبد الله بن خليفة الطائي يرثيه:

الطويل تذكّرت ليلى والشّبيبة أعصرا * وذكر الهوى برحٌ على من تذكّرا

أقول ولا والله أنسى مصابهم * سجيس اللّيالي أو أموت فأقبرا

على أهل عذراء السّلام مضاعفاً * من الله وليسق السّحاب الكنهورا

ولاقى بها حجرٌ من الله رحمةً * فقد كان أرضى الله حجرٌ وأعذرا

فيا حجر من للخيل تطعن بالقنا * وللملك المغزي إذا ما تغشمرا

فقد عشت محمود الحياة وإنّني * لأطمع أن تعطى الخلود وتحبرا

وقال حسان بن ثابت يرثي جعفر بن أبي طـالب وزيـد بـن حارثة وعبد الله ابن رواحة وكـان قـد أمرهـم رسـول اللـه صلى الله عليه وآله وسلم على جيش مؤتة:

الطويل تأوّبني ليلٌ بيثرب أعسر * وهمٌّ إذا ما نوّم النّاس مسهر

لذكرى حبيبٍ هيّجت لك عبرةً * سفوحاً وأسباب البكاء التّذكّر

بلى، إنّ فقدان الحبيب بليّةٌ * وكم من كريمٍ يبتلى ثمّ يصبر

رأيت خيار المؤمنين تواردوا * شعوب وقد خلّفت فيمن يؤخّر
فلا يبعدنّ الله قتلى تتابعوا * بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيدٌ وعبد الله حين تتابعوا * جميعاً وأسباب المنيّة تخطر
غداة مضى بالمؤمنين يقودهم * إلى الموت ميمون النّقيبة أزهر
أغرّ كضوء البدر من آل هاشمٍ * أبيٌّ إذا سيم الظّلامة يجسر
فطاعن حتّى مات غير موسّدٍ * بمعتركٍ فيه القنا تتكسّر
فصار مع المستشهدين ثوابه * جنانٌ وملتفّ الحدائق أخضر
وكنّا نرى في جعفرٍ من محمّدٍ * وقاراً وأمراً حازماً حين يأمر
وما زال في الإسلام من آل هاشمٍ * دعائم عزٍّ لا ترام ومفخر
وهم جبل الإسلام والنّاس حولهم * رضامٌ إلى طودٍ يروق ويقهر
بها ليل منهم جعفرٌ وابن أمّه * عليٌّ، ومنهم أحمد المتخيّر
وحمزة والعبّاس منهم ومنهم * عقيلٌ، وماء العود من حيث يعصر
بهم تفرح اللأواء في كلّ معركٍ * عماسٍ إذا ما ضاق بالنّاس مصدر
هم أولياء الله أنزل حكمه * عليهم وفيهم ذا الكتاب المطهّر

ومما يستحسنه الناس من المراثي ويخـف علـى ألسـنتهم قصيدة محمد بـن منـاذر الصـبيري، مـولى بنـي صـبير بـن يربوع في عبد المجيد بـن عبـد الوهـاب الثقفـي حـتى قـد خلطوا في الرواية، وزاد بعضهم على بعـض. ونحـن نختـار اختيـاراً منهـا تقـع فيـه الموعظـة الحسـنة مـن قـول المخلوقين، والكلام المرضي من ذلك، وهي التي أولها:

الخفيف كلّ حيٍّ لاقي الحمام فمود * ما لحيٍّ مؤمّلٍ من خلود

لا تهاب المنون حيّاً ولا تب * قي على والدٍ ولا مولود

يقدح الدّهر في شماريخ رضوى * ويحطّ الصّخور من هبّود

يزعمون أنه غلظ في هذا، وأن هبـود حفيـرة، وليـس كمـا قالوا، إنما الحفيرة هبوب. والذي قال هـو: هبـود. وذكـروا أنها أكمة.

ولقد تترك الحوادث والأيّ * ام وهياً في الصّخرة الصّيخود

ليس يبقى على الحوادث حيٌّ * غير وجه المهيمن المعبود

ومما استحسنت منها ولم أرذل غيره، قوله:

أين ربّ الحصن الحصين بسورا * ء وربّ القصر المنيف المشيد

شاد أركانه وبوّبه با * بي حديدٍ وحفّه بجنود

كان يجبى إليه ما بين صنعا * ء فمصرٍ إلى قرى يبرود

وترى حوله زرافات خيلٍ * جافلاتٍ تعدو بمثل الأسود

فرمى شخصه فأقصده الدّه * ر بسهمٍ من المنايا سديد

ثمّ لم ينجه من الموت حصنٌ * دونه خندقٌ وبابا حديد

وملوكٌ من قبله عمروا الأر * ض أعينوا بالنّصر والتّأييد

فلو أنّ الأيام أخلدن حيّاً * لعلاءٍ أخلدن عبد المجيد
ما درى نعشه ولا حاملوه * ما على النّعش من عفافٍ وجود
ويح أيدٍ حثت عليه وأيدٍ * دفنته، ما غيّبت في الصّعيد
غيّبت في الصّعيد حزماً وعزماً * ولزاز الخصم الألدّ العنود
إنّ عبد المجيد يوم تولّى * هدّ ركناً ما كان بالمهدود
هدّ ركني عبد المجيد وقد كن * ت بركنٍ منه أبوء شديد
حين تمّت آدابه وتردّى * برداءٍ من الشبّاب جديد
وسمت نحوه العيون وما كا * ن عليه لزائدٍ من مزيد
وكأنّي أدعوه وهو قريبٌ * حين أدعوه من مكانٍ بعيد
ولئن كنت لم أمت من جوى الحز * ن عليه، لأبلغن مجهودي
لأقيمنّ مأتماً كنجوم * اللّيل زهراً يلطمن حرّ الخدود
موجعاتٍ يبكين للكبد الحرّ * ى عليه وللفؤاد العميد
ولعينٍ مطروفةٍ أبداً قا * ل لها الدّهر: لا تنامي وجودي
كلّما عزّك البكاء فأنفد * ت لعبد المجيد سجلاً فعودي
لفتىً يحسن البكاء عليه * وفتىً كان لامتداح القصيد

فكل هذه الأبيات غرة، ولقد بلغني بلاغاً إخـاله صـحيحاً أن عبد المجيد كان للمدح حياته موضعاً، وللمراثي بعـد مـوته مستوجباً، عفافاً وجمالاً وأدباً وشباباً.

وقال القائل:

البسيط وإنّ أحسن بيتٍ أنت قائله * بيتٌ يقال إذا أنشدته صدقا

وأحسن من ذلك وإن جل قدر المـؤمن بكـاء الرجـل علـى نفسه وإن كان حياً، لمـا يتـوقعه. كمـا قـال إسـماعيل بـن القاسم:

السريع كم سترى في النّاس من هالكٍ * وهالكٍ حتّى ترى هالكا

فهذا مأخوذ مما يـروى أن الصـديق رحمـه اللـه كـان يكـثر إنشاده وهو:

مجزوء الكامل تنفك تسمع ما حيي * ت بهالكٍ حتّى تكونه

والمرء قد يرجو الرّجا * ء مغيّباً والموت دونه

ومع قوله هذا:

السريع أصبحت الدّنيا لنا عبرةً * والحمد لله على ذلكا

اجتمع النّاس على ذمّها * وما ترى منهم لها تاركا

ومثله قوله:

الطويل ننافس في الدّنيا ونحن نعيبها * وقد حذّرتناها لعمري خطوبها

وما نحسب السّاعات تقطع مدّةً * على أنّها فينا سريعٌ دبيبها

كأنّي برهطي يحملون جنازتي * إلى حفرةٍ يحثى عليّ كثيبها

وباكيةٍ حرّى تنوح وإنّني * لفي غفلةٍ عن صوتها لا أجيبها

وإنّي لممّن يكره الموت والبلى * ويعجبني روح الحياة وطيبها

فحتّى متى حتّى متى وإلى متى * يدوم طلوع الشّمس لي وغروبها

أيا هادم اللذّات ما منك مهربٌ * تحاذر نفسي منك ما سيصيبها
رأيت المنايا قسّمت بين أنفسٍ * ونفسي سيأتي بعدهنّ نصيبها

وقال منصور النمري يرثي يزيد بن مزيد:

متى يبرد الحزن الذّي في فؤاديا * أبا خالدٍ من بعد ألاّ تلاقيا?!
أبا خالدٍ ما كان أدهى مصيبةً * أصابت معدّاً يوم أصبحت ثاويا
أبا خالدٍ لا بل عممت بنكبةٍ * فتبكي معدٌّ والقبيل اليمانيا
وناعٍ غدا ينعى يزيد بن مزيدٍ * فقلت له: أصبحت للجود ناعيا
أعينيّ جودا بالدّموع وأسعدا * بعبرة محزونٍ بكى لبكائيا
سمعت بكاء النائحات بسحرةٍ * فهيّجن أحزاناً غلبن عزائيا
ألا عذر الله العيون البواكيا * وقد عاينت يوماً من الدّهر شاجيا?
لعمري لئن سرّ الأعادي وأظهروا * شماتاً، لقد مرّوا بربعك خاليا
وخلّفت ليثي غابتين كلاهما * سيلقى الأعادي من يديه الدّواهيا
فشبهك أخلاقاً وعزّة أنفسٍ * إذا النّفس جاشت لو بلغن التَّراقيا

قال النفس في موضع النفوس.

سقيت السّواري والغوادي وقد أرى * خيالك يسري ثمّ يصبح غاديا

نعزّي بك الإسلام إنّك دونه * إذا نكل الحامون كنت محاميا

مشمّر أذيالٍ تحوط حريمه * وتحمي له أطرافه والقواصيا

وكنت شهاباً للخليفة ثاقباً * وكوكبةً ترمي العدا والمناويا

وكنت سناناً نافذاً في يمينه * وسيفاً له عضباً يقدّ الهواديا

وكنت إذا نادى لأمر عظيمةٍ * ولم يك من يكفي أصابك كافيا

.... دوينا جانباً والسواسا * وشمّرت أذيالاً ولبّيت داعيا?

وقمت بأمر الثّغر بعد فساده * وأوشكت منه رقع ما كان واهيا

فقد مات معروفٌ وماتت تجارةٌ * ومات غناءٌ يوم ودّعت ماضيا

نعزّي أمير المؤمنين ورهطه * بسيفٍ له ما كان في الحرب نابيا

لقد كان في أعدائهم ذا شكيمةٍ * لهم ناهكاً عدا وقد كان ناكيا?

وملآن من ودّ الخليفة صدره * يؤدّي إليه النّصح مذ كان ناشيا

مضى ماجد الأيّام رافع همّةٍ * إلى الخلق الأعلى، من الذّمّ ناجيا

فإن عدّ في دنيا فذكر مكارمٍ * وإن عدّ في دينٍ فلم يك تاليًا

على مثل ما لاقى يزيد بن مزيدٍ * عليه المنايا فالق إن كنت لاقيا

فتىً كانت الأبطال تعرف أنّه * إذا قارعته ليس بالضّيم راضيا

فإن تك أفنته اللّيالي فأوشكت * فإنّ له ذكراً سيفني اللّياليا

حلفت لقد أبقى يزيد لرهطه * معالي لا تنفكّ تبني معاليا

كنا أردنا أن نملي أشعاراً من أشعار المحدثين في ضروب من المراثي فأشفقنا من أن يستخف بهذا الكتاب، والمراثي لا تنقضي ما كان الناس؛ فأحببنا أن نختمه ونأخذ في غيره، وأن يكون ما نختمه به شريفاً بهياً، فاخترنا له قصيدة أنشدناها الرياشي لرجل من غطفان من بني عبد الله، كانت له صحبة، قتل يوم جلولاء يقال له سالم، يرثي رسول صلى الله عليه وسلم:

المتقارب أفاطم بكّي ولا تسأمي * لصبحك ما طلع الكوكب

فقد هدّت الأرض لمّا ثوى * وأيّ البريّة لا ينكب

فمالي بعدك حتّى المما * ت إلاّ جوىً داخلٌ منصب

جوىً حلّ بين الحشا والشّغاف * فخيّم فيه فما يذهب

فيا عين ويحك لا تسأمي * وما بال دمعك لا يسكب!

وقد بان منك الّذي تعلمين * وضاقت بك الأرض والمذهب

ومن ذا لك الويل بعد الرّسول * يبكّى من النّاس أو يندب

فإن تبكه تبك خير الأنام * كثير الفواضل لا يجدب

وإن تبكه تبك سهل الجنا * ب محض الضرائب لا يؤشب

وإن تبكه تبك نور البلا * د ضخم الدّسيعة لا يحسب

وإن تبكه تبك خير الأنام * سريعاً سوابله مخصب

وإن تبكه تبك واري الزّناد * صدوق المقالة لا يكذب

وتبكي الرّسول وحقّت له * شهود المدينة والغيّب
وتبكي له الصّمّ، صمّ الجبال * وشرق المدينة والمغرب
وتبكيه شعثاء مضرورةٌ * إذا حجب النّاس لا تحجب
ويبكيه شيخٌ أبو ولده * تطيف بعقوته أشيب
ويبكيه أهل النّهى والحجى * من النّاس والطّارق الأخيب
ويبكيه ضيفٌ جفاه الصّديق * وذو النّسب الدّاخل الأقرب
ويبكيه شعثٌ خماص البطون * أضرّ بهم زمنٌ أنكب
وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليما.

هذا آخر الكتاب. وقيل: ما قيل فيه صلى الله عليه قليل وإن كان كثيراً في اللفظ، ويسير وإن كان جليلاً في النفس، وعليه رحمة الله وبركاته.

وهذا حديث نذكره ليتبعه ذكره عليه السلام، ويعوذ به عائذ، ويأتم به مؤتم: حدثني الرياشي العباس بن الفرج قال: أخبرنا أحمد بن شبيب قال: أخبرنا أبي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطي المدني عن أبي أمامة بن سهل ابن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رحمة الله عليه في حاجة له، وكان عثمان لا ينظر إليه ولا يلتفت إلى حاجته. فلقي عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: إيت الميضأة فتوضأ، ثم ائت المسجد فصل ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك بنبيي محمد، نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي لي حاجتي وتذكر حاجتك، ثم رح حيث تروح.

فانطلق الرجل فصنع ذلك. ثم أتى باب عثمان بن عفان، رحمة الله عليه فأخذ البواب بيده، فأدخله على عثمان بن

عفان رضي الله عنه فأجلسه معه على الطنفسة، فقال له: حاجتك؟ فذكر له حاجته فقضاها، ثم قال: ما فهمت حاجتك حتى كانت الساعة. وقال: انظر ما كانت لك من حاجة.

ثم إن الرجل خرج فلقي عثمان بن حنيف، فقال له: جزاك الله خيراً. ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلي حتى كلمته، فقال عثمان بن حنيف: ما كلمته، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء ضرير فشكا إليه ذهاب البصر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو تصبر؟ فقال: يا رسول الله، إنه ليس لي قائد، وقد شق علي. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إيت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين، ثم قل: اللهم، إني أسألك وأتوجه إليك بنبيي محمد نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم. يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي ليرد لي بصري. اللهم شفعه في، وشفعني في نفسي. قال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل الرجل كأنه لم يكن به ضرر.

تم كتاب التعازي والمراثي بأسره، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم وكان الفراغ منه في العشر الأوسط من جمادى الآخرة من سنة ثلاث وستين وخمس مائة.

منسوخ من موقع الورَّاق - جزاهم اللَّه خيراً

قام بنسخه وتنسيقه ونشره أخوكم (خزانة الأدب)

وهو يُرجو ممن يستفيد منه أن يدعو له ولوالديه

وأن لا يحذف هذه السطور